

سلسلة الرسائل الجامعية

(٤)

النحو والإبداع

رؤية نصية لتأويل الشعر العربي القديم

النحو والإبداع

(رؤية نصية لتأويل الشعر العربي القديم)

تأليف

أ.د. محروس بُرَيْك

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تقديم

أ.د. محمد حماسة عبد اللطيف

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

نائب رئيس مجمع اللغة العربية



دار النابغة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

رقم الإيداع: ٥٩٧٩ / ٢٠١٤

الترقيم الدولي: 978-977-85099-2-2

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه فى أى نظام ميكانيكى أو إلكترونى يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أى لغة أخرى إلا بعد الحصول على إذن خطى مسبق من الناسخ.

دار النابغة للنشر والتوزيع

٥٦ ق نروب أمام كلية التجارة جامعة القاهرة
ميامي بجوار معهد هيدى بقر - الإسكندرية
ت: ٠٤٠٢٠٨٢١٨٢ - ٠٤٠٢٠٣٦١٨٦
darelnapegha@yahoo.com



كلمة حق

بقلم: أ. د. محمد حماسة عبد اللطيف

أشعر بغير قليل من الزهو والسعادة إذ أقدم هذا الكتاب النادر المثال للباحث المتميز الأستاذ الدكتور/ محروس السيد بريك. وموضوع هذا الكتاب هو «المعنى النحوي الدلالي» وهو موضوع جديد في مجاله، وإن ظن بعض أبناء المجال أنه موضوع مطروق معروف مُنطلقين في هذا الظن - وبعض الظن إثم - من التسرع عند قراءة «المعنى النحوي» وتلهيهم العجلة عن وصف «المعنى النحوي» بالدلالي، وتأمل هذا التركيب النعني تكمن فيه الأعاجيب التي جلاها الأستاذ الدكتور محروس بريك، إذ شرح هذا المصطلح شرحاً وافياً بديعاً، وبيّن أثره في تفسير النص الشعري وتحقيق تماسكه متخذاً من نصوص «المعلقات» مجالا للتطبيق والشرح والبيان.

أما مبعث زهوي وسعادي فهو العلاقة التي تربطني بمؤلف هذا الكتاب، فهو - وسوف أتغلب على الحياء الذي ينتابني في هذا المجال - من أحبّ تلامذتي إلى قلبي، وهو من أخلصهم وذاً، وأنقاهم سريرة، وأصدقهم توجّهاً. وقد كشف بهذا الصدق والإخلاص خبايا مصطلح جرى في بعض ما كتبت، فتلقّفه بودّ، وب عقل متفتح وثّاب، واستعداد مكتمل، وأدوات صحيحة، وأضنى عليه من ثقافته وتأصيله العلمي، وقراءته الواسعة، وتحليله العميق ما بعث فيه الحياة والحركة، وجعله يسعى في البحث العلمي واضح المعالم جليّ السمات، وهذا ما يجعلني سعيداً فرحاً به.

لقد أعمل هذا المصطلح في نصوص المعلقات، فكشفت عن ذات نفسها، وأبانت عن جوانب الجمال فيها، مستندة في ذلك إلى أسس علمية موضوعية تحذت من صنيع علماء النحو الأقدمين ومن علماء نحو النص المحدثين مزيجاً متجانساً من المبادئ التي يمكن الاهتداء بها في غيرها من النصوص الشعرية القديمة والحديثة، وما

أصل الكتاب رسالة دكتوراه نوقشت بكلية دار العلوم -
جامعة القاهرة وحصل صاحبها على درجة الدكتوراه
بمرتبة الشرف الأولى

مقدمة

نبعت حيوية النحو في القديم من أنه (علم نصي) نشأ في حِضْنِ القرآن الكريم، ومن أن النحاة القدماء لم يَقِفُوا - في الغالب - عند حدود وصف الظواهر، بل تَعَدَّوْا ذلك إلى تفسيرها وبيان ما تحمله من دلالات.

والناظر في كتاب سيبويه يجد أنه يتجاوز الحديث عن مستوى الصحة اللغوية، إلى الحديث عما يحمله الكلام من حُسن وقبح. وقد اقتفى النحاة أثر سيبويه - بدرجات متفاوتة - فاهتم بعضهم بالتأليف في معاني القرآن، وشروح الشعر؛ في محاولة منهم لربط النحو بالنص، واتخاذ النحو مُنْطَلَقًا في تفسير النص وبيان أسرارِهِ.

كما كانت «تجربة النقاد العرب القدماء عندما تتعمق تدور حول بنية النص نفسه، ومن هنا كانت نظرات ابن سلام، وابن قتيبة، والآمدي، والقاضي الجرجاني - على تفاوت بينها - تكتسب قيمتها كلما اقتربت من النص نفسه وانطلقت منه»^(١).

لقد أخلص نحائنا ونقادنا القدماء في محاولاتهم المختلفة للاقتراب من النص الأدبي، إلا أن هذه المحاولات اتسمت بالفردية وعدم وضوح المنهج النصي، حتى كانت قضية إعجاز القرآن، واختلاف أهل السنة والمعتزلة حولها، وهل الإعجاز بالَصْرْفَةِ أم بما تضمنه القرآن من أخبار، أم بنظمه؟ وأصبح «الحديث عن إعجاز القرآن مجالا خِصْبًا للكشف عن طاقات اللغة الكامنة في التعبير الأدبي، وكان معظم الاعتماد في هذه المجال على المعاني النحوية»^(٢)، واستطاع عبد القاهر الجرجاني

يفيد منه الباحثون في هذا المجال. لقد قيل قديمًا إن النحو نُضِجَ حتى احترق، وصنَّع الدكتور محروس يقفنا على أبواب لعوالم في النحو جديدة تحتاج إلى من يرتادها ويتأملها، ويعمل من خلالها.

لقد كان هذا الكتاب الذي بين يديك في أول أمره رسالة علمية جامعية، وأذكر - وقد كان لي شرف الإشراف العلمي عليها - أن أعضاء اللجنة العلمية التي شاركتني إجازتها كانوا مفتونين بهذا العمل العلمي الرصين الذي يجمع إلى رصانة العلم متعة التذوق، ولذلك أنا أضمن لقارئ هذا الكتاب تحقيق الإفادة والمتعة؛ الإفادة العلمية، والمتعة العقلية والتذوقية.

إن صاحب هذا الكتاب شاعر مبدع قبل أن يكون باحثًا لغويًا مبدعًا، ولقد أعانته حب الشعر، وفهمه، وتذوقه، ومعاناته على فهم نصوصه وطريقة بنائه، ولما سلط على هذا البناء مصباحًا كاشفًا من «المعنى النحوي الدلالي» استقام له الأمر، واستطاع بقدرة فائقة تحليل هذا البناء. ولقد حاول بعض الباحثين مثل ما حاوله الدكتور محروس بريك ولم يُتَحَ لهم ما أُتِجَ له من المواهب الشخصية المتميزة، فقعد بهم المسعى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

لا أريد أن أستعرض لك فصول هذا الكتاب ومباحثه، لأنني لا أود أن أفسد عليك متعة الرحلة معها والتنقل السلس السهل الذي أبدعه مؤلفه بينها، وأترك لك عزيزي القارئ أن تروى هذا بنفسك وأن ترويه دون دليل. وما قدمته هنا جزء من انطباعي الذاتي عن هذا العمل، وأنا على يقين أن محبتي لصاحبه لم تؤثر على تكوين انطباعي عنه، إن مثل هذا الانطباع كان سيحدث لي بعد قراءته حتى لو كان لباحث غير معروف لي. وأتمنى للدكتور محروس التوفيق الدائم والإبداع الموصول.

محمد حماسة عبد اللطيف

(١) اللغة وبناء الشعر: ص ١٥، د. محمد حماسة، مطبعة الصفوة، ١٩٩٢ م.

(٢) السابق: ص ١٩.

ت ٤٧١ هـ أن يخرج علينا بنظرية «النظم»، عندما نظر إلى الفروق بين الوجوه الممكنة؛ مفسرا الظاهرة وما تحمله من دلالات، فاستطاع بذلك أن يتعدى مرحلة الوصف المجرد للظواهر إلى بيان ما يحمله كل وجه من الوجوه الممكنة من دلالات.

وكان المتوقع أن يتجه مَنْ جاء بعد عبد القاهر إلى تطبيق معطيات هذه النظرية على النصوص الأدبية، ولكنهم - خلا الزمخشري - لم يزيدوا على عمل عبد القاهر سوى التفريع والتقسيم والتععيد، مع أن عبد القاهر قد أشار إلى أن هذه الوجوه والفروق تَبْدُو عن التععيد الصارم عندما قال: «فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها»^(١)، ويعملهم هذا «أصبح علم المعاني من بين علوم البلاغة - خاصة - نحوا من النحو صناعة مضبوطة Exact System لا منهجا ذوقيا للنقد الأدبي»^(٢).

إن علم المعاني «الذي أسفرت عنه محاولة عبد القاهر الفذة - وهو علم يقوم على فهم التراكيب وأسرارها - يقدم مادة وفيرة في صدد محاولة بيان المعنى النحوي في البناء الشعري»^(٣). والحق أن هذا العلم قد «اعتبره النحاة - وما أصابوا - خارج مجال اهتمامهم... وهذه الدراسة للمعنى - وهي دراسة معانٍ وظيفية في صميمها - تبدو أكثر صلة بالنحو منها بالنقد الأدبي الذي أريد بها خطأ أن تكونه، ومن هنا نشأت هذه الفكرة التي تتردد على الخواطر منذ زمن طويل أن النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمى (علم المعاني)»^(٤).

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر: ص ٨٧، مكتبة الخانجي، ط ٥، ٢٠٠٤.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان: ص ١٩، عالم الكتب ط ٣، ١٩٩٨ م.

(٣) اللغة وبناء الشعر: ص ٢٣.

(٤) اللغة العربية معناها ومبناها: ص ١٨.

لقد أصاب الركود الدراسات النحوية فترة طويلة، منذ القرن السادس الهجري حتى بداية العصر الحديث؛ لأن النحاة عزلوا النحو عن النص، وانصرفوا إلى التقارير والشروح والحواشي، وبذلك فَقَدَ النحوُ بريقه وأصبح هيكلا بلا روح، وأصبح هناك ترديدٌ لما قيل دون إضافةٍ لجديد ذي قيمة. كما انفصلت عن الدراسات النحوية جوانبٌ من الدرس اللغوي، استقل بها علماء اللغة الذين «عندما بدأوا حركتهم اللغوية كان هناك شيء من التعالي على مقاربة النص الأدبي بوصفه تناولا ذاتيا أكثر منه موضوعيا، وهذه القطيعة عززها علماء اللغة أنفسهم فقد انصرفوا إلى مهمات عاجلة، كدراسة لغة الهنود الحمر في أمريكا أو دراسة لغة المستعمرات في إسبانيا وأفريقيا»^(١). كما استقلت فئة ثالثة بالنصوص الأدبية، وابتعد نقاد الأدب عن الاهتمام بفاعلية النظام النحوي، وإن كان «بعضهم قد أدرك دور النحو في تفسير النص الشعري فيما عرف به (النقد اللغوي)»^(٢).

لكن هذا الأمر لم يدم طويلا حيث استطاع اللغويون «أن يخطوا خطوات في اتجاه المشكلة، وخطا النقاد خطوات أخرى، فالتقى الفريقان على أن النص الأدبي نمط من الاستعمال مهم جدا وجدير بالتأمل»^(٣).

وبدأ الاهتمام بالنص الأدبي منذ نشأة «علم الأسلوب» الذي اشتق من «البلاغة القديمة»، ثم تطور في القرن التاسع عشر إلى فرع معرفي مستقل^(٤).

(١) ندوة الأسلوبية: ص ٢١٨، (فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٤).

(٢) دور النحو في تفسير النص الشعري، مصطفى عراقي (رسالة ماجستير بدار العلوم بالقاهرة)، انظر: المقدمة.

(٣) ندوة الأسلوبية: ص ٢١٨.

(٤) انظر: مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفانج هاينه من، وديتر فيهفيجر، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي: ص ١٦، منشورات جامعة الملك سعود ١٩٩٩ م.

وأدت «الأسلوبية» مع «البلاغة القديمة» دور المبشر بعلم اللغة النصي، ويعد هاريس Z. Harris ١٩٥٢م أول من أشار إلى ضرورة توسيع مجال علم اللغة ليتجاوز حدود الجملة، فيمتد من «علم لغة الجملة» إلى «علم لغة النص»^(١). لكن نقطة التحول الجوهرية من علم لغة الجملة إلى علم لغة النص كانت سنة ١٩٦٤م بفضل فرضيات هارتمان Peter Hartmann الذي رأى أن النصوص هي المدار الحق للاتصال اللغوي^(٢).

ومنذ تلك اللحظة نشأ «علم اللغة النصي» الذي يهتم بدراسة النص وبيان مدى تماسك أجزائه.

أما الاتجاهات النقدية الحديثة فعلى الرغم من أنها اهتمت بالنص في ذاته فإن الجمهور العريض من باحثيها يستخدمون «عبارات غامضة، وإحصاءات صماء، ورسوماً وأشكالاً مصمتة، ومصطلحات مبهمّة غائمة، أقلها: التمحور، والتمفصل، والتركيح، وهي ترجمات عاجزة تزهّد القارئ فيما يكتبون»^(٣).

وهذا ما يؤكده الدكتور محمود الربيعي إذ يقول: «لا شبهة عندي أن وضوح لغة النقد الأدبي هي جوهره، وذلك لأنها سر نجاحه؛ إذ سر نجاحه نفاذه إلى عقول الآخرين ونفوسهم، وحين تصبح هذه اللغة غامضة على أمثالي (هكذا يقول) - ممن يدعون التخصص في النقد الأدبي - يكون ثمة خلل ما، في مكان ما، يحتاج إلى إصلاح، وهب أن الخلل حاصل في أذهان القراء، من أمثالي، فذلك لا يفيد قضية

(١) انظر: السابق: ص ٢١.

(٢) انظر: السابق: ص ٢٢.

(٣) اللغة وبناء الشعر: ص ٨.

المؤلف شيئاً؛ وما نفع مُغَنٍّ بلغ من الحِذْقِ حدّاً جعله أعلى من مستوى سامعيه فانفضوا عنه ١٩»^(١).

إن الهدف من تناول النص هو وضع احتمالاته أمام القارئ، وتحليله إلى مكوناته التي بُني منها، وبيان مدى تماسك أجزائه. ولا بد أن يكون ذلك كله بأكبر قدر من الوضوح والسلاسة وعدم التعقيد.

وذلك ما ترجوه هذه الدراسة التي جاءت في خمسة فصول؛ تناول الفصل الأول بيان «أسس تأليف الكلام وإنتاج النص»؛ وذلك لأنه لما كانت الدراسة معنية في شقٍّ منها بالمعنى النحوي الدلالي - كان لابد من بيان الأسس التي يتألف بها الكلام الذي يحمل ذلك المعنى، ولما كانت معنية في شقها الآخر بالنص الذي هو هنا «نص المعلقات» كان لابد من بيان الأسس التي تنتج النص الأدبي.

أما «أسس تأليف الكلام» فقد تناولتها من خلال أقوال العلماء متدرجاً من القديم إلى الحديث؛ منطلقاً من مبدأ أكدّه كثير من الباحثين وهو أن الكلام المفيد لا تتحقق له تلك الإفادة إلا إذا تحقق له مبدئياً أساسان: أولهما: الوظائف النحوية المترابطة فيما بينها حسبما يقتضيه علم النحو، وثانيهما: المفردات المعجمية بما تحمله من دلالات معجمية أولية؛ وبواسطة التفاعل بين هذين الأمرين ومعرفة السياق، تتم الفائدة المرجوة من الكلام. فإذا ما غاب أحدهما لم تتحقق تلك الفائدة.

أما «أسس إنتاج النص» فهي لا تختلف كثيراً عن «أسس تأليف الكلام»، وقد أشرت إلى استنباط (فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر) للصفات الأساسية للنصوص، مبيناً أن المجاز أحد الأسس الأساسية التي يقوم عليها النص الشعري.

(١) انظر: عرض ومناقشة الدكتور محمود الربيعي لكتاب (النقد والحداثة) تأليف:

عبد السلام المسدي، فصول، العدد السابق: ص ٢٣٢-٢٣٣.

أما الفصل الثاني فقد انصرف إلى بيان مفهوم (المعنى النحوي الدلالي) وأثره في تأويل الشعر، وذلك ببيان أن هذا المعنى يقوم على جانبين رئيسيين هما:

الجانب الأول: المعنى النحوي الأولي، وله ثلاثة روافد:

(أ) معاني الصيغ الصرفية.

(ب) معاني الصيغ النحوية.

(ج) معاني الحروف «حروف المعاني».

الجانب الثاني: المعنى الأولي للمفردات.

وعند تناولي لكل جانب أو رافد أوضح دوره في بناء النص من خلال دراسة نص المعلقة، ثم دوره في تفسير النص المختار؛ فبينت (في سياق الحديث عن الرافد الأول من الجانب الأول) السبب وراء اختيار الشاعر الاسم دون الفعل أو العكس، ثم اختياره بنية صرفية بعينها من بين الأبنية الممكنة؛ نحو اختياره التعبير بـ (فَعَّال) دون (فَعُول) و(فَعِيل) مثلاً ... وهكذا، ثم بينت مدى دقة الشاعر في اختيار أبنيته الصرفية على مستوى نص كامل (معلقة امرئ القيس) لأوضح إلى أي حد تؤدي الأبنية الصرفية دوراً في بناء المعنى النحوي الدلالي للنص كله.

وفي سياق الحديث عن الرافد الثاني (معاني الصيغ النحوية) بينت كيف أن الشاعر قد يطلق عنصري الإسناد فتأتي الجملة بسيطة قصيرة، وقد يقيد أحدهما، أو كليهما، فتطول الجملة وتتعدد؛ مبيّناً أثر ذلك كله في أداء المعنى النحوي الدلالي للنص الشعري. كما بينت كيف تأتي الجمل مطلقة أو مقيدة بالتوكيد أو النفي أو الاستفهام

ونحوهما وكيف أن اللغة تطرح في كل مجموعة من البدائل اللغوية التي يختار المبدع من بينها ما يناسب المعنى النصي للمعلقة، وأثر ذلك الاختيار في بناء النص وتفسيره.

ثم تحدثت عن الحروف (الرافد الثالث) ومعانيها، وكيف أن النحاة أدركوا أن الحرف لا يتضح معناه إلا داخل التركيب، وإلى أي حد يقوم الحرف بتغيير المعنى النحوي الدلالي للجملة، وبينت مدى دقة الشاعر في اختيار الحرف دون الآخر لمناسبة المعنى النصي.

ثم تحدثت عن الجانب الثاني (معاني المفردات) وأثر اختيار المفردة في تشكيل المعنى النحوي الدلالي من حيث الحقيقة والمجاز؛ وذلك بكسر قواعد الاختيار بين الحقول الدلالية للمفردات داخل التراكيب النصية؛ مبيناً أثر ذلك كله في تفسير النص الشعري (نص المعلقة).

ثم كان «الفصل الثالث» الذي عني بـ «النص: مفهومه ومعايير تقسيمه»؛ وكان ضرورياً أن أتناول مفهوم النص لما وجدت اختلافاً بين الباحثين في علم اللغة النصي حول «تحديد النص»، فبينت خلطهم بين مصطلحي: «النص text» و«الخطاب discourse» ونظر الكثيرين منهم إليهما على أنهما مترادفان، ثم تناولهم للنصوص بشيء من التعميم دون تفريق بين النص الأدبي وغير الأدبي.

ولما كان نص المعلقة قد جاء مكتوباً على صفحة الورق كتلة واحدة دون تقسيم إلى أجزاء، لا تفصل بين أبياته علامات ترقيم؛ فالقصيدة تبدو مجموعة من الأبيات المتتالية دون فواصل، ولما كانت القصيدة - في حقيقتها - ليست مجموعة من الأبيات المتتالية، بل مجموعة من الأجزاء المتناسكة، لما كان هذا كله كان لابد من تقسيم النص المدروس الذي هو نص المعلقة.

وقد اعتمدت في تقسيم النص على مجموعة من المعايير النحوية كـ(التحولات في أزمنة النص - تحولات الضمائر - التقابل والتجاور بين الخبر والإنشاء)، وأخرى دلالية كـ(التفريع الدلالي - التداعي الدلالي).

إن تقسيم النص يعد بابا يدخل منه القارئ إلى عالم ذلك النص، أو هو ضرب من البيان والتفسير.

أما «الفصل الرابع» فَعُني بـ «التماسك النصي بين القدماء والمحدثين»؛ وبدأتُ ببيان إشارات المبدعين (الشعراء) إلى التماسك النصي وضرورته، وليس أدل على أن يكون الأصل في النص أن يأتي متماسكا متلاحم الأجزاء - من أن يؤكد المبدع نفسه على ذلك ويتنبه له وينبه إليه، ويفخر بأنه يقول شعرا متماسكا مترابط الأجزاء.

ثم انتقلت إلى بيان: «صور التماسك عند القدماء»، وقسمتها إلى:

١. وسائل الترابط عند النحاة القدماء.

٢. الفصل والوصل بين الجمل كما تناوَلها عبد القاهر الجرجاني.

٣. ترابط أجزاء البيت: وهي إشارة للجاحظ.

٤. التماسك على مستوى الجزء / القطعة؛ كما بين ذلك عبد القاهر الجرجاني في

سياق حديثه عن «التشبيه المقلوب» بكتابه: أسرار البلاغة.

٥. التماسك النصي: وقسمته إلى:

(أ) الإرهاصات الأولى: التي تمثلت في إشارات الأصمعي التي أوردها الجاحظ في

«البيان والتبيين»، ثم إشارة ابن طباطبا العلوي بـ «عيار الشعر».

(ب) الدراسة المنهجية: التي قام بها حازم القرطاجني في كتابه «منهاج البلغاء».

ثم انتقلت إلى بيان: «التماسك النصي عند المحدثين»، فتحدثت عن:

أولا: إسهامات علماء النص الغربيين: فتناولت منها:

(١) الاتساق النصي ووسائله عند هاليداي ورقية حسن في كتابهما:

«Cohesion in English».

(٢) ترابط قضايا التتابعات (أي المعاني النحوية الدلالية للجمل المتتابعة) والأبنية

الكبرى (أي موضوعات النص)، وذلك كما تناوَلها «فان دايك» في كتابه:

«علم النص - مدخل متداخل الاختصاصات».

(٣) انسجام التأويل كما يرى «براون ويول» في كتابهما: «تحليل الخطاب».

ثانيا: إسهامات عربية معاصرة: وتناولت منها:

(١) التماثل والتباين وسيلتا الانسجام النصي كما بين الدكتور محمد مفتاح في

كتابه: «دينامية النص»، و«تحليل الخطاب الشعري».

(٢) وسائل انسجام النص الشعري عند الدكتور محمد خطابي في كتابه: «لسانيات

النص».

(٣) السبك والحبك معيارا التماسك النصي عند الدكتور سعد مصلح كما بين في

بحثه: «نحو أجرومية للنص الشعري» الذي نُشر بمجلة فصوص، ع ١٤، ٢ سنة

١٩٩١ م، والذي مهد له ببحث آخر بعنوان: «العربية من نحو الجملة إلى

نحو النص» نُشر في الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية بكلية الآداب

بالكويت سنة ١٩٩٠ م.

(٤) التماسك النحوي الدلالي كما وضع ذلك أستاذنا الدكتور محمد حماسة في

كتبه: (الجملة في الشعر العربي - اللغة وبناء الشعر - الإبداع الموازي:

التحليل النصي للشعر).

وأما «الفصل الخامس» ففيه بيانٌ بعض «وسائل التماسك النصي»، وانطلاقا

من «المعنى النحوي الدلالي» قمت بتقسيم هذه الوسائل إلى: وسائل نحوية، وأخرى

دلالية، مستفيدا مما قدمه علماؤنا القدماء والمحدثون، وعلماء النص الغربيون، متناولا عند دراسة كل وسيلة النص الذي تتضح فيه من الملاحظات.

أما وسائل التماسك النحوي فتناولت منها:

(١) الإحالة بالضمائر وأسماء الإشارة.

(٢) أدوات التشبيه خاصة «الكاف».

(٣) حروف العطف.

(٤) التوازي التركيبي.

(٥) التقابل التركيبي.

(٦) التجاوب والتدرج والانتقال في أزمنة النص.

وأما وسائل التماسك الدلالي فتناولت منها:

(١) علاقات الترتيب الدلالي: والتي تشمل: (الكل / الجزء - الإجمال / التفصيل

- الخارج / الداخل - السبب / المسبب).

(٢) التوازي الدلالي.

(٣) التقابل الدلالي.

(٤) الصور المجازية.

ولا شك أن هناك وسائل - غير التي ذكرت - تحتاج إلى دراسات أخرى

تبينها من خلال تناول النص الفني.

محروس السيد بُريّك

الفصل الأول

أسس تأليف الكلام وإنتاج النص

أسس تأليف الكلام:

مدخل:

ألح القدماء في تعريفهم للكلام أو اللغة أو النحو على ضرورة تعانق اللفظ والمعنى؛ فيقول ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١ هـ في بيان معنى الكلام: «الكلام، في اصطلاح النحويين^(*)، عبارة عما اجتمع فيه أمران: اللفظ والإفادة. والمراد باللفظ: الصوت المشتمل على بعض الحروف، تحقيقاً أو تقديرًا. والمراد بالمفيد: ما دل على معنى يحسن السكوت عليه»^(١).

ويقول ابن فارس ت ٣٩٥ هـ: «زعم قوم أن الكلام ما سمع وفهم وذلك قولنا: قام زيد وذهب عمرو، وقال قوم: الكلام حروف مؤلفة دالة على معنى. والقولان عندنا متقاربان؛ لأن المسموع المفهوم لا يكون إلا بحروف مؤلفة تدل على معنى»^(٢).

ودلالة اللفظ إما دلالة إفرادية أو دلالة تركيبية، والمقصود هنا في تعريفهم للكلام الدلالة التركيبية؛ لأن الكلام لا يتحقق إلا بالإسناد وذلك «كدلالة قولنا: زيد قائم وعمرو خارج، فإن ما هذا حاله دال على معنى مركب، وهو إضافة هذه الأحكام لتحصل من أجلها الفائدة المركبة، وهذا هو الكلام في ألسنة النحاة، ويقال له

(*) وفي اصطلاح اللغويين: اسم لكل ما يتكلم به، مفيداً كان أو غير مفيد. وعند المتكلمين هو المعنى القائم بالنفس. (انظر شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ١ ص ١٩، المكتبة العصرية - بيروت - ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، وانظر شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى: ج ١ ص ١٨، ١٩ - المطبعة الأزهرية المصرية، ط ٢، ١٣٢٥ هـ).

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، تحقيق بركات يوسف هبود، مراجعة يوسف البقاعي: ج ١ ص ٣٣، دار الفكر - بيروت - ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م، وانظر: شرح ابن عقيل: ج ١ ص ١.

(٢) الصاحبى في فقه اللغة، ابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر: ص ٨٧، مطبعة عيسى البابى الحلبي، القاهرة ١٩٧٧ م.

الجملة»^(١) التي يتحرك بناؤها تبعاً للمعنى المراد «فيكون تقديم الخبر معنا على أداء الأخبار المفيدة أو تحقق وجه الإسناد الصحيح، لكنه إذا تأخر اختل الإسناد وانصرف التركيب إلى شيء آخر غير قد يكون صحيحاً ولكنه غير مطلوب في هذا الموضع»^(٢)، فيجب أن يتوازى بناء الجملة في السطح مع المعنى المقصود في النفس، فما دامت الألفاظ أوعية للمعاني «فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق»^(٣).

فالغرض من التركيب هو معناه، وهو مقصود المتكلم، والمعنى هو الموضوع الأول والأخير/ لأية لغة، «وحسبك أن ترى لغة ناطقة تخلو جملها من الدلالات والمعاني، ماذا يكون حالها؟! لا شك أن مجتمعا يلزم شملها مجتمع ميت لا حراك به»^(٤)، فما اللغة إلا «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»^(٥)، «والأغراض - وهي المعاني أو الدلالات التي يراد نقلها من متكلم إلى مستمع - تستخدم الأصوات

(١) الطراز، للعلوي: ج ٢ ص ٩، مطبعة المقتطف، القاهرة، ١٣٣٣ هـ، ١٩١٤ م. وانظر: شرح المفصل، لابن عيش، تحقيق د. إميل يعقوب: ج ١ ص ٧٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

ولا يصح أن يقال لكل جملة كلاماً؛ ذلك لأن الجملة - في اصطلاح النحاة - ما اشتملت على طرفي الإسناد وإن لم تتحقق الفائدة، فقولنا: زيد مجتهد، هذه جملة وهي كلام لتحقق الفائدة، أما قولنا: إن خرج زيد، فهذه جملة وليست كلاماً لعدم تمام الفائدة؛ ومن ثم فكل كلام جملة، وليست كل جملة كلاماً. فمراد العلوي بالجملة: أي التي تفيد فائدة يحسن السكوت عليها. انظر في ذلك: شرح الرضي على الكافية: ج ١ ص ٨، الشركة الصحافية العثمانية، ١٣١٠ هـ وبناء الجملة العربية، د. محمد حماسة عبد اللطيف: ص ٢١، ٢٢، دار الشروق، ط ١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

(٢) بناء الجملة العربية: ص ٧٨.

(٣) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص ٥٢.

(٤) من وظائف الصوت اللغوي، د. أحمد كشك: ص ١٠، مطبعة المدينة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(٥) الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار: ج ١ ص ٣٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٤، ١٩٩٩ م.

المنطوقة أو المكتوبة صورة لها، فهنا إذن جانبان، أحدهما مادي مسموع أو مرئي، والآخر إدراكي معنوي، وكلا الجانبين يؤثر في الآخر ويتأثر به»^(١).

فهناك إذن أصوات منطوقة ترمي إلى معان ذهنية مدركة^(٢)، وهذه الأصوات تتألف من قواعد نحوية (تتضمن على وظائف نحوية وصيغ صرفية وحروف رابطة) ومفردات معجمية تشغل هذه الوظائف ويتم الربط بينها عن طريق العلاقات والقواعد النحوية فينتج المعنى المراد من التركيب، ويتم تحديد هذا المعنى داخل السياق الذي يرد به.

ف«أي شكل من أشكال اللغة يسوقه المتكلم، سواء كان محكياً أو مكتوباً، إنما يسوقه لتحقيق غرض تواصل معيّن في سياق معيّن»^(٢)، وهذا الغرض هو غاية النحو الأساسية كما يتضح من تعريف السكاكي للنحو بأنه: «معرفة التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً»^(٣)، والكلم - كما بين سيبويه في مطلع كتابه - «اسم

(١) النحو والدلالة د. محمد حماسة: ص ٣١، مطبعة المدينة، القاهرة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.
(*) نظرية الدلالة اللغوية يجب أن تمثل الكيفية التي تستعمل بها العبارات اللغوية الدالة لحمل المعلومات عن العالم الخارجي وعن حالتنا الذهنية، فاللغة تصنف وتمقول الأذهان والأوضاع. بعض النظريات تشدد على تصنيف الأذهان، فالكلمات تعبر عن الأفكار الموجودة بالذهن والتي تدل على الأشياء، ومن ثم فالكلمات تعبر عن الأشياء. ونظريات أخرى تشدد على الدلالة الخارجية للغة وعلاقتها بالعالم الموصوف لا بالذهن الواصف، فترى أن الجمل تصنف تبعاً للكيفية التي توجد عليها الأشياء ولا تصنف تبعاً للأفكار كما يرى أصحاب الرأي الأول. ولجأ فريق ثالث إلى أن الأذهان تمسك المفاهيم، والكلمات تعبر عنها، والأشياء يحال عليها بواسطة هذه الكلمات. (انظر: اللسانيات واللغة العربية، د. عبد القادر الفاسي الفهري، ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٣ م.)

(٢) تحليل الخطاب، براون ويول، ترجمة: د. محمد لطفي، د. منير التريكي، مقدمة المترجمين ص (هـ)، (مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧).

(٣) مفتاح العلوم، السكاكي، ضبط وتعليق نعيم زرزور: ص ٧٥، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.)

وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل^(١)، وهو ما يوازي مصطلح (المفردات)، وعن طريق التركيب بين هذه المفردات (الأسماء والأفعال والحروف) يتم تأدية (أصل المعنى) وهو ما اصطلاح عليه أستاذنا الدكتور محمد حماسة بـ «المعنى النحوي الدلالي» مراعيًا السياق الذي يرد فيه التركيب، وسيتضح ذلك في موضعه من الفصل الثاني إن شاء الله.

فالغرض من الشكل هو الإفادة (تأدية أصل المعنى)، فإذا لم تتحقق الإفادة لا يعد هذا الشكل كلاماً، وأصبح وصوتاً يصوته المتكلم سواء، فالإفادة لا تتحقق إلا عن طريق صلب المفردات في علاقات نحوية فيتألف الكلام.

وصور تأليف الكلام ستة^(٢)، وأقل ما يتألف منه الكلام خبراً كان أو إنشاءً اسمياً أو اسم وفعل، أما الحرف فلا يجوز وقوعه مسنداً ولا مسنداً إليه؛ ذلك لأن الحرف «رسم كلمة تدل على معنى في غيرها فقط»^(٣)، ولا يدل على معنى في ذاته، أما قولنا في النداء: يا عبد الله، فذلك أيضاً «إذا حُقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو: أعني وأريد وأدعو، و«يا» دليل عليه وعلى قيام معناه في النفس»^(٤)، وكذلك إذا وقع الخبر - وكذلك الصفة أو الصلة أو الحال - ظرفاً أو جاراً ومجروراً فإنهما يتعلقان بمحذوف وجوبا هو الخبر في الحقيقة، أو هما مع متعلقهما الخبر،

(١) الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون: ج ١ ص ١٢، (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م).

(٢) انظر: تفصيل ذلك في: شرح التصريح: ج ١ ص ٢٢ - ٢٣، وأوضح المسالك: ج ١ ص ٣٣، وشرح ابن عقيل: ج ١ ص ١٩.

(٣) ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: د. رجب عثمان محمد، مراجعة د. رمضان عبد التواب: ج ٥ ص ٢٣٦٣ (مكتبة الخانجي القاهرة، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).

(٤) دلائل الإعجاز: ص ٨ (المدخل في دلائل الإعجاز).

واختلف في تقديره، فقال الاخفش والفارسي والزمخشري تقديره (كان) أو (استقر)، والصحيح عند جمهور البصريين أن تقديره (كائن) أو (مستقر)، ويرى ابن هشام أنه لا يترجح تقديره اسماً ولا فعلاً بل بحسب المعنى^(١)، ونحن نوافق ابن هشام على هذه اللمحة الذكية في مراعاته المعنى؛ لأن المعنى هو الذي يوجه التركيب، فإذا كان المراد الدلالة على التجدد والحدوث قدر بالفعل، وإذا ما أردت الدلالة على الثبوت والدوام قدرته بالاسم.

ويعلل الدكتور محمد حماسة لتحديد النحاة أدنى قدر تعتقد به الجملة كلاماً مفيداً، وعدم تحديدهم للجملة الطويلة بأن الجملة الطويلة لا تنتهي بحد معين يجب التوقف عنده؛ ومن ثم حدد النحاة العناصر غير المؤسسة التي يتم بها إطالة الجملة بحيث تصبح جملة مركبة لا بسيطة^(٢).

فالإفادة لا تتحقق إلا بالتركيب فيما بين المفردات، فإذا وقعت الكلمة منفردة وحدها فإنها لا تفيد معنى تركيبياً إلا إذا قدر معها محذوف، كما في قولنا: خرج، جواباً لمن سأل: ما فعل زيد؟ وقولنا: صالح، لمن سأل: كيف زيد؟ فالخبر معنى «لا

(١) انظر: التوضيح: ج ١ ص ١٦٦، والمغني لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: ج ٢ ص ٥١٦، (المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م).

(٢) انظر: بناء الجملة العربية: ص ٤٨.

والجملة تطول عن طريق تقييد العنصر الفعلي أو الأسماء المشتقة بمقيد أو أكثر مثل المفعولات والتمييز المنسوب والجار والمجرور، أو التقييد بالتبعية أو تعدد وظيفة من الوظائف النحوية خاصة النعت، وتطول الجملة عن طريق معاقبة الجملة للمفرد كما في الخبر والحال والنعت والمضاف إليه بعد (إذ وإذا وحيث ولما الحينية)، والمفعول به في جملة مقول القول، كما تطول الجملة عن طريق احتياج الجملة الأولى إلى الثانية (طول الترتب)، وتطول الجملة عن طريق جملة الاعتراض التي تتخللها فتصبح بذلك جزءاً لا يتجزأ من الجملة التي احتوتها. (انظر تفصيل ذلك في: بناء الجملة العربية ص ٤٨ - ٧١).

يتصور إلا بين شيئين يكون أحدهما مثبتا والآخر مثبتا له، أو يكون أحدهما منفيا والآخر منفيا عنه»^(١).

مما سبق يتبين أن المعنى الذهني هو الذي يحرك البناء السطحي للجملة (الكلام)، وهذا الكلام يتألف من طريق جانبيين اثنين لا ينفكان أبدا هما:

١. المفردات المعجمية (الكلم عند السكاكي).

٢. وظائف وقواعد نحوية (طريقة التركيب عند السكاكي).

وعن طريق صب هذه المفردات المعجمية في هذه القوالب (الوظائف النحوية) والربط بين هذه المفردات حسبما يقتضيه علم النحو - ينتج الكلام أو التركيب المفيد فيدل على (معنى نحوي دلالي) أو (أصل المعنى) - كما يقول السكاكي - ويتحدد هذا المعنى داخل السياق الذي يرد فيه التركيب.

«إن كل ما يراد استخراجاه من معان كامن في الصيغة المقولة بشقيها الصوتي والعقلي، أو بعبارة أخرى كامن في المفردات ونظامها النحوي الذي يحكمها»^(٢)، ف«التلاحم بين المفردات ووظائفها النحوية تفاعل عقلي صوتي في وقت واحد، وبعبارة أخرى هو تفاعل دلالي نحوي معا لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ لأن المفردات من غير نظام نحوي يحكمها ويربط ما بينها لا يتأتى لها اجتماع إلا في التنظيم المعجمي فحسب، والتنظيم المعجمي عمل لا يقوم به المتكلم، بل يقوم به الباحث اللغوي، والنظام النحوي من غير مفردات تقوم به وتحقق وجوده العقلي وعاء فارغ ولا يقوم إلا في عقول أبناء اللغة ولا يجد سبيلا لتحقيقه إلا في الجمل التي ينطق بها أبناء اللغة أو يكتبونها، وبينهم اتفاق جماعي عليها»^(٣).

(١) دلائل الإعجاز: ص ٥٢٧.

(٢) النحو والدلالة: ص ١٧٢.

(٣) النحو والدلالة: ص ١٦٦.

إنا لو أهملنا أحد هذين الجانبين لا تتحقق الإفادة المرجوة، فلو نظرنا إلى جملة مثل: خرج محمد من المنزل صباحا بغير إفطار، وجدناها قد تألفت من مفردات ذات معان معجمية شغلت وظائف نحوية تم الربط بينها حسب قواعد علم النحو فتحققت الإفادة المرجوة من صياغتها أو - بمعنى آخر - تحقق المعنى الذي يحسن السكوت عليه، «لكن ماذا يحدث لهذه الجملة لو رتب ترتيبا آخر يخالف قواعد النحو أي قواعد التماسك السياقي، وقلنا: من خرج إفطار محمد بغير صباحا المنزل؟ هل تنبئ هذه الجملة حينئذ عن معنى؟ الجواب بالنفي لكنها بمجرد أن ترتب ترتيبا نحويا سليما، يوضع فيه الفعل مجاورا للفاعل وحرف الجر لصيقا للمجرور. هذه الكلمات ما إن يتحقق لها سلامة النحو حتى يأتي المعنى بالضرورة واضحا»^(١)، ف«لا يكون الكلام مفيدا إذا كان مجتمعا بعضه مع البعض الآخر دون ترابط... وقد لا يستشعر المتكلم الوسائل التي يصطنعها نظام لغته من أجل أن يبدو كلامه مترابطا محكما، ولكنه - على أية حال - يستطيع أن ينكر من الكلام ما يكون مفككا، لأنه في هذه الحال سيكون غير مفيد»^(٢)، «فإنك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلتها تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدعي به مؤلفا، وتشبه معه بمن عمل نسيجاً أو صنع على الجملة صنيعا، ولم يتصور أن تكون قد نُحِثَّت لها المواقع»^(٣)، «فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلا أو مفعولا، أو يريد منه حكما سوى ذلك من الأحكام... وإن أردت أن ترى ذلك عيانا

(١) من وظائف الصوت اللغوي: د. أحمد كشك: ص ٩ - ١٠.

(٢) بناء الجملة العربية: ص ٧٤.

(٣) دلائل الإعجاز: ص ٣٧٠ - ٣٧١.

فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزائه عن مواضعها، وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ

(من نبك قفا حبيب ذكرى منزل)، ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟^(١). إن الفكر لا يتعلق إلا إذا توخينا إمكانات النحو في تركيب البيت، وهو ما صنعه امرؤ القيس «من كون (نبك) جوابا للأمر، وكون (من) مُعَدِّية له إلى (ذكرى) وكون (ذكرى) مضافة إلى (حبيب)، وكون (منزل) معطوفاً على (حبيب)»^(٢).

ولا تتحقق الفائدة المرجوة من الكلام أيضا إذا أهمل المعنى المعجمي للمفردات رغم تحقق المعنى النحوي الوظيفي، فلو «أننا أبحنا لأنفسنا أن نتساهل قليلا في أمر التمسك بالمعنى المعجمي فكُونَا نسقا نطقيا من صور بنائية عربية لا معنى لها من الناحية المعجمية لأمكن لنا أن نعرب هذا النسق النطقي»^(٣)، فلو نظرنا نظرنا إلى ما يأتي (وهو من تمثيل أستاذنا الدكتور تمام حسان)^(٤):

قاصَّ التجيُّ شحالَه بتريسه الـ *** فاخي فلم يستف بطاسية البرن

(١) دلائل الإعجاز: ص ٤١٠.

(٢) السابق: ص ٣٦٣.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: د. تمام حسان، ص ١٨٢ (عالم الكتب، ط ٣، ١٤١ هـ / ١٩٩٨ م).

(٤) السابق: ص ١٨٣.

لوجدناه نطقا هراثيا لا يدل على معنى؛ لغياب المعنى المعجمي للمفردات، على الرغم من تحقق ما سوى ذلك من حفاظ على صياغته بحروف عربية في صيغ صرفية عربية، ووجود علاقات نحوية من فاعلية ومفعولية... إلخ بين هذه المفردات، بله الحفاظ على الوزن العروضي لهذا النطق الهراثي حيث جاء على زنة بحر الكامل التام. فضرورة تعانق المفردات بمعناها المعجمي مع وظائفها النحوية لكي يتألف الكلام المفيد أمر يتفق عليه كثير من علماء العربية القدماء أمثال سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، وابن جني (ت ٣٩٢ هـ)، وعبد القاهر (ت ٤٧١ هـ)، والسكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، وابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ)، ويحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ)، وكثير من المحدثين من التوليديين التحويليين ومن تابعهم، وستتناول إشارة كل منهم بشيء من الإيجاز فيما يلي من صفحات.

أسس تأليف الكلام عند القدماء :

المستقيم والمحال من الكلام عند سيبويه:

أول من ألحَّ على ضرورة تعانق المفردات بمكوناتها الدلالية مع النظام النحوي الذي تشغله لكي يتألف الكلام المفيد هو سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، فيلاحظ الناظر في كتابه أنه بدأ حديثه متدرجا من الحديث عن أقسام الكلم في العربية، إلى بيان المسند والمسند إليه، إلى الحديث عن معاني الألفاظ وما يعرض للفظ من تغيير إلى الحديث عن الاستقامة والإحالة من الكلام؛ وكأنه بذلك يضع الأسس التي يقوم عليها الكلام وما يتألف منها.

فالكلم في العربية (اسم وفعل وحرف) يتم الإسناد بينها، وهذه الكلم لا بد لها من معاني هي (معاني الألفاظ)؛ وعن طريق هذا الإسناد بين هذه المفردات بما

تحمله من معان ينتج الكلام فيكون إما مستقيماً أو محالاً؛ أما المحال فلم يعد إليه سيبويه في كتابه مرة أخرى لأنه خلاف الاستعمال الصحيح، وأما المستقيم فهو المستعمل الذي يقعد له؛ لذا اقتصر عليه دون المحال.

يقول سيبويه في (باب الاستقامة من الكلام والإحالة)^(١):

« فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأيتك غدا.

وأما المحال فإن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا، وسأيتك أمس.

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيد يأتيتك، وأشبه هذا.

وأما المحال الكذب فإن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس».

نلاحظ في النص السابق أن سيبويه يولي المفردات بدلالاتها الأولية أهمية

كبيرة عندما تتعاقب مع وظائفها النحوية داخل التركيب، ففي المثالين اللذين ضربهما سيبويه للمستقيم الحسن لم تتصادم قواعد الاختيار بين المفردات عند تفاعلها داخل التركيب؛ فالفعل (أتى) يصح وقوعه من الفاعل وهو في الجملة (المتكلم) وتعبّر عنه (تاء الفاعل)، ويمكن تحقق المفعولية التي تمثلها في الجملة (كاف الخطاب)، ولا تعارض بين زمن الجملة والدلالة الأولية لظرف الزمان (أمس)، فلا تناقض بين

(١) الكتاب: ج ١ ص ٢٥-٢٦.

وقد تناول أستاذنا الدكتور محمد حاسة هذا النص بالشرح والتحليل الوافي في (المبحث الثاني ص ٦١-٩٨) من كتابه: النحو والدلالة، وبنى عليه رؤيته حول (المعنى النحوي الدلالي).

وقوع الفعل وفاعله مع مفعوله وبين المفعول فيه^(٢)، وكذلك الأمر في المثال الثاني: سأيتك غدا.

فإذا ما حدث اختلال في درجة من درجات النحو أدى ذلك إلى وصف الكلام بالقبح رغم استقامته في المعنى، يقول أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) في الارتشاف: «والفصل بالمعمول بين قد والفعل قبيح نحو: قد زيدا رأيت، قال سيبويه: وهو مستقيم قبيح؛ يعني أنه مستقيم في المعنى قبيح في التركيب»^(٣)، «الرؤية ممكنة للمتكلم وممكنة الوقوع على زيد ... غير أن بعض هذه العناصر قد فصلت عن بعضها الآخر فلم توضع الموضع الصحيح الذي يحدده لها نظام اللغة فجاءت الصورة المنطوقة وقد اختل بها شرط الورود النحوي بحيث صار (قد + اسم) و (كى + اسم) وهذا تركيب غير مسموح به في نظام العربية، ولكنه لا يؤدي إلى خلل معنوي في صحة العلاقات بين أجزاء الجملة، ولهذا السبب وصف هذا الكلام بالقبح مع كونه مستقيماً»^(٣) في المعنى.

فإذا ما تم كسر قانون الاختيار بين المفردات التي تشغل الوظائف النحوية أدى ذلك إلى أن تتحول الجملة من المستقيم الحسن إلى المستقيم الكذب، أو أن تتحول من الاستقامة إلى الإحالة.

(١) انظر: النحو والدلالة ص ٦٤.

(٢) ارتشاف الضرب: ج ٥ ص ٢٣٦٤.

وذكر سيبويه أمثلة أخرى للمستقيم القبيح منها:

"لو قلت: كانت زيدا الحمى تأخذ أو تأخذ الحمى". الكتاب ج ١ ص ٧٠.

"ما زيدا عبد الله ضاربا، وما زيدا أنا قاتلا". الكتاب ج ١ ص ٧١.

(٣) النحو والدلالة: ص ٦٥.

والمقصود بالكذب في (المستقيم الكذب) الكذب الدلالي لا الكذب الأخلاقي^(١)، وهو ما يعرف بـ «المجاز» أو «الاتساع» في اصطلاح سيبويه، ففي المثال الأول الذي ضربه سيبويه للمستقيم الكذب «تمثل هذا الكذب الدلالي لا في علاقة (الفعل) بـ (المفعول به) النحوية من حيث هي، بل في علاقة (حملت) [الفعل والفاعل] من حيث هي فعل وفاعل أي (صيغة نحوية) و (مدلول) معا بـ (الجل) من حيث هي (مفعول به) أي صيغة نحوية و (مدلول) معا، وبعبارة أخرى في (التفاعل) بين الوظائف النحوية بعلاقاتها وما يمثلها من المفردات بدلالاتها»^(٢).

وعندما يتحول الكلام إلى (الإحالة) «لا تكون الجملة معه صحيحة دلاليا - ومن هنا لا تصح نحويا حيث إن الصحة النحوية ليست مجردة، أو تتم في فراغ - وتخرج عن أن تكون ذات دلالة مفيدة أصلا»^(٣)، ففي قولنا: أتيتك غدا، وسأتيتك أمس، نقض لأول الكلام بآخره، وفي قولنا: سوف أشرب ماء البحر أمس، تحول الكلام إلى مجال الكذب الدلالي (المجاز) لكن آخره نقض أوله فخرج عن أن يكون كلاما أصلا؛ لأنه «لا يصح له معنى، ولا يجوز أن تقول فيه صدق ولا كذب، لأنه ليس له معنى، ألا ترى أنك إذا قلت: أتيتك غدا لم يكن للكلام معنى تقول فيه صدق ولا كذب»^(٤).

والعرب قد تتكلم بالكلام القبيح ضرورة مادام مستقيما في المعنى، لكنها لا تتكلم بالمحال لأنه لا معنى له. يقول سيبويه: «ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه؛ لأنه مستقيم ليس فيه نقض، فمن ذلك قوله:

(١) انظر: السابق: ص ٦٨.

(٢) السابق: ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) السابق: ص ٨٣.

(٤) الكتاب: ج ١ ص ٢٦ حاشية (١)، والكلام للأخفش.

صَدَدَتْ فَأَطَوَلَتِ الصُّدُودَ وَقَلَّتْهَا *** وَصَالَ عَلَى طُولِ الصُّدُودِ يَدُومُ
وإنما الكلام: وقل ما يدوم وصال»^(١).

تبين لنا إذن «أن سيبويه يعطي الاختيار من المفردات أو من الحقول الدلالية المناسبة التي تقبل التواؤم والاستجابة أهمية كبرى لا تقل عن اهتمامه باستواء النظام النحوي، فليس النظام النحوي نظاما معدا للكلمات الهوائية أو للفراغ ولكنه معد لأن تتحقق في علاقاته المفردات الملائمة بدلالاتها الأولية التي تتفاعل مع الوظائف النحوية تفاعلا يكسبها معناها المناسب ويتحقق به (المعنى النحوي الدلالي)»^(٢) للجملة، وتتم الفائدة المرجوة من تأليف الكلام.

(١) السابق: ج ١ ص ٣١، والبيت لعمر بن ربيعة، وجعله الشنمري من شعر المزار الفقعي، وإنما كان هذا الكلام قبيحا لأن (قل) هنا مكفوفة بـ (ما) فلا تعمل في الفاعل. وقدر بعضهم فعلا لـ (وصال) = والتقدير: قل وصال، وبعضهم جعل (ما) بعد (قل) زائدة لا كافة فارتفع بها الفاعل. (من تقريرات المحقق على الكتاب ج ١ ص ٣١ بتصرف).
(٢) النحو والدلالة: ص ٨٣.

وبعد أن يناقش الدكتور محمد حماسة نص سيبويه السالف يستخلص ست نقاط مهمة، يمكن أن نوجزها في ثلاث:

أولا: ما يتصل بالأساس الأول من أسس تأليف الكلام، وهو "المفردات المعجمية": كل كلمة تحمل دلالة معجمية أولية، وتنتمي إلى حقل دلالي معين يستجيب للدخول في علاقات نحوية معينة على سبيل الحقيقة أو المجاز مع كلمات من حقول دلالية أخرى، ولا يستجيب بالضرورة لبعضها الآخر. وتنقل الكلمة إلى حقل دلالي آخر عن طريق تقييدها بأي وسيلة من وسائل التقييد (الجار والمجرور - النعت - الإضافة... إلخ).

ويتم اختيار المفردات من بين الحقول الدلالية المختلفة لوضعها في علاقات وصيغ نحوية عن طريق عدة قواعد بعضها صرفي يرجع إلى سياق الكلمة، وبعضها يرجع إلى المكون الدلالي للكلمة، وهذه القواعد يمتلكها المتكلم بطريقة عفوية، وهي التي تعرف بالسليقة أو الكفاية اللغوية Competence. يقول الفاسي الفهري: "على الرغم من تباين اللغات وتعقدها، فإن أي طفل عادي يستطيع أن يتعلم أية لغة يحتك بها في محيطه اللساني، وهذا ما يوحى بأن كل المخلوقات البشرية تشترك في بنية معرفية محددة نسميها بالملكة اللغوية، وهذه الملكة ما هي إلا نسق كلي للتمثل الذهني للغة" (اللسانيات واللغة العربية ج ١ ص ٤٢-٤٣، ٤٧).

تأليف الكلام المفيد وتحديد العنصر الغائب عند ابن جني:

يولي ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) اهتماما كبيرا بالمفردات، وأن الكلمة بمجرد نطقها تحدد العنصر الغائب الذي يمكن أن يكون معها كلاما مفيدا، وهذا التحديد يتم على المستويين (النحوي والدلالي).

يقول ابن جني في باب (الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية)^(١):

«... ألا ترى إلى (قام)، ودلالة لفظه على مصدره ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله، فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه... ألا تراك حين تسمع (ضرب) قد عرفت حدثه وزمانه، ثم تنظر فيما بعد فتقول: هذا فعل، ولا بد له من

ثانيا: ما يتصل بالأساس الثاني من أسس تأليف الكلام وهو "القواعد والعلاقات النحوية التجريدية":

كل لغة يتم تمثيلها داخليا بمجموعة من القواعد النحوية، وقد تكفلت كتب النحو ببيانها، وتحتزن هذه القواعد في عقول أبناء اللغة فيتتجون بها ما لا يحصى من الجمل سواء أسمعوها من قبل أم لم يسمعوها، وذلك عن طريق التفاعل المستمر بين المفردات ووظائفها النحوية داخل التركيب، حسبا يقتضيه علم النحو. يقول تشومسكي: "عندما نتكلم عن شخص ما بوصفه عارفا للغة لا نعني أنه يعرف قائمة لا نهائية من الجمل، أو الأزواج المؤلفة من الأصوات وما يقابلها من المعاني، فتصوره ماصدقيا، أو يعرف قائمة من الأحداث وصور السلوك، بل ما نعنيه - بالأحرى - أن يعرف الشخص ما يجعل الصوت والمعنى يرتبط أحدهما بالآخر بطريقة محددة، ما يجعلها يتحدان معا، أو ربما ما يجعلهما تحديدا معينا لسياق وظيفة ما. فلدى الشخص مفهوم عن البنية A nation of Structure، كما أنه يعرف لغة مبنية داخليا على نحو ما يحدد سماتها نحو اللغوي". (المعرفة اللغوية تشومسكي، ترجمة د. محمد فتيح، ص ٨٨، دار الفكر العربي، ط ١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م).

ثالثا: ينضم إلى هذين الأساسين "السياق":

والسياق على أي نحو متضمن داخل التعبير المنطوق بطريقة ما - على حد تعبير الدكتور محمد حامسة - ويقوم السياق بتحديد دلالة الكلمة في جملتها، ولا تكون للعلاقات النحوية ميزة في ذاتها، ولا للمفردات المختارة كذلك، ما لم يكن ذلك كله في سياق ملائم. (انظر: النحو والدلالة ص ٨٦-٩٨).

(١) الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار: ج ٣ ص ١٠٠-١٠٣، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٤، ١٩٩٩ م).

فاعل، فليت شعري من هو؟ وما هو؟ ألا ترى أنه يصلح أن يكون فاعله كل مذكر يصح منه الفعل، مجعلا غير مفصل. فقولك: ضرب زيد، وضرب عمرو، وضرب جعفر، ونحو ذلك شرع سواء، وليس لـ (ضرب) بأحد الفاعلين هؤلاء ولا غيرهم خصوص ليس له بصاحبه، كما يخص بالضرب دون غيره من الأحداث، وبالماضي دون غيره من الأبنية، ولو كنت إنما تستفيد الفاعل من لفظ (ضرب) لا معناه للزمك إذا قلت: (قام) أن تختلف دلالتها على الفاعل لاختلاف لفظيهما، كما اختلفت دلالتها على الحدث لاختلاف لفظيهما، وليس الأمر في هذا كذلك، بل دلالة (ضرب) على الفاعل كدلالة (قام)، و (قعد) و (أكل).

و (شرب) و (انطلق) و (استخرج) عليه، لا فرق بين جميع ذلك.

فقد علمت أن دلالة المثال على الفاعل من جهة معناه، لا من جهة لفظه، ألا ترى أن كل واحد من هذه الأفعال وغيرها يحتاج إلى الفاعل حاجة واحدة، وهو استقلاله به وانتسابه إليه، وحدوثه عنه، أو كونه بمنزلة الحادث عنه، على ما هو مبين في باب الفاعل... وكذلك (الضرب) و (القتل) نفس اللفظ يفيد الحدث فيهما، ونفس الصيغة تفيد فيهما صلاحتهما للأزمنة الثلاثة، على ما نقوله في المصادر، وكذلك اسم الفاعل نحو (قائم) و (قاعد) لفظه يفيد الحدث الذي هو القيام والقعود، وصيغته وبنائه يفيد كونه صاحب الفعل، وكذلك (قطّع) و (كسّر) فنفس اللفظ هاهنا يفيد معنى الحدث، وصورته تفيد شيئين: أحدهما الماضي، والآخر تكثير الفعل، كما في (ضارب) يفيد بلفظه الحدث، وبينائه الماضي، وبمعناه على أن له فاعلا، فتلك أربعة معان، فاعرف ذلك إلى ما يليه، فإنه كثير، لكن هذه طريقه « أ. هـ.

نستطيع أن نستنتج من نص ابن جني السابق أن المتكلم بمجرد أن ينطق اللفظة الأولى عند شروعه في تأليف الكلام - تتحدد لها ثلاث دلائل:

الدلالة اللفظية: وهي الدلالة المستفادة من لفظ الكلمة، فهي تساوي (الدلالة المعجمية)، فلفظ (قام) يدل على القيام، و(القتل) لفظه يفيد الحدث فيه، و(قائم) لفظه يفيد الحدث الذي هو القيام، و(قاعد) لفظه يفيد الحدث الذي هو القعود.

الدلالة الصناعية: وهي الدلالة المستفادة من صيغة الكلمة، فهي تساوي (الدلالة الصرفية) ف (قام) صيغته تدل على الماضي، و (القتل) صيغته تفيد صلاحيته للأزمنة الثلاثة، و (قائم) صيغته تفيد كونه صاحب الفعل، و(ضارب) صيغته تدل على الماضي وكون الفعل من اثنين.

الدلالة المعنوية: وفي هذه الدلالة يتحدد العنصر الغائب لكي يتم الكلام، وهذا التحديد يتم على المستويين النحوي والدلالي، ف (قام) فعل، فلا بد له من (فاعل مذكر)، فإذا كان الفعل متعديا تطلب فاعلا ومفعولا، أو فاعلا ومفعولين، أو فاعلا وثلاثة مفاعيل - تبعا لمعنى الحدث، هذا على المستوى النحوي. أما على المستوى الدلالي فلا بد أن يكون هذا الفاعل قادرا على القيام بالفعل، أو كما يقول ابن جني: "يصح منه الفعل"، وأن يكون المفعول محلا صحيحا لوقوع الفعل عليه من هذا الفاعل المخصوص في سياق الجملة.

فإذا اختير العنصر الغائب وتحديده وكان ملائما نحويا وداليا، فهذا هو الكلام (المستقيم الحسن) في اصطلاح سيبويه. أما إذا اختير العنصر الغائب غير ملائم نحويا (بوضع اللفظ في غير موضعه)، فإن هذا الكلام يوصف بالقبح وإن كان مستقيما في المعنى.

وقد يُختار العنصر الغائب غير ملائم دلاليا فيؤدي هذا إلى شيء من اثنين؛ إما إلى الإحالة فيخرج بذلك عن أن يكون كلاما أصلا لعدم تحقق الفائدة، أو إلى أن يوصف الكلام بأنه (كذب)، وذلك لأن هذا العنصر الذي اختير (لا يصح منه الفعل

حقيقة)، وعندئذ يتحول الكلام إلى مجال (المجاز)، وهو كثير في كلام العرب شعرهم ونثرهم.

وقد أشار ابن جني بقوله (يصح منه الفعل) إلى الكلام الحقيقي أو (المستقيم الحسن) في اصطلاح سيبويه؛ ذلك لأن الأصل في الكلام أن يكون على جهة الحقيقة، فإذا خرج إلى دائرة المجاز (المستقيم الكذب) فهذا وإن كان إبداعا إلا أنه بخلاف الأصل؛ لذا نجد الأسلوبيين يسمونه انحرافا Deviation^(١)؛ ولهذا كله لم يشر ابن جني إلى هذا المستوى من الكلام في هذا الموضع.

ولم يشر ابن جني إلى (المحال) لأنه ليس كلاما أصلا، ولم يشر إلى (المستقيم القبيح) لأنه بخلاف الأصل كذلك، ولا يُتكلم به إلا في ضرورة كما أشار إلى ذلك سيبويه^(٢).

النظم وتأليف الكلام عند عبد القاهر الجرجاني:

وقد استفاد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) من إشارات سيبويه، فاستطاع من خلال حديثه عن (النظم)^(٣) أن يبين أنه لا بد من مراعاة معاني النحو فيما بين المفردات

(١) يقول الدكتور شكري عياد: "الانحراف يخص اللغة الفنية، وهذا منطقي، إذ إن الخروج على الطرق المتعارفة في التعبير معيب اجتماعيا، ولكنه مقبول إذا كان له غرض فني؛ ولذلك لا يقدم عليه إلا أديب متمكن". اللغة والإبداع، د. شكري عياد: ص ٧٨، (إنترناشيونال برس ١٩٨٨ م).

(٢) انظر: الكتاب: ج ١ ص ٣١.

(٣) يعرف عبد القاهر النظم في عدة مواضع من كتابه "دلائل الإعجاز": منها:

"النظم هو توخي معاني النحو في معاني الكلم" ص ٣٦٢.

"لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم" ص ٣٧٠.

"ليس النظم شيئا غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم" ص ٣٩١-٣٩٢.

"وأمر النظم في أنه ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم" ص ٤٥٤.

"ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم" ص ٥٢٥.

والتعريف الأخير جاء تفصيلا للتعريفات الأخرى، ولما كانت المفردات (الكلم) لا بد أن تدل على معنى عبّر به (الكلم) مرة وبـ (معاني الكلم) مرة أخرى.

لكي تتم الفائدة المرجوة من تأليف الكلام، وقد رأينا كيف أن الفائدة لم تتحقق عندما أزال عبد القاهر العلاقات النحوية بين المفردات من قول امرئ القيس^(١):

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ

لقد ألح عبد القاهر في كثير من المواضع في كتابه (دلائل الإعجاز) على أن الفائدة مَرَدُّهَا إلى النظم الذي هو توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه فيما بين الكلم (المفردات)، ولا يقف عبد القاهر عند بيان مستوى الصحة اللغوية في الكلام ورجوع ذلك إلى موافقة النظم أو عدم موافقته، بل نجده يستدل على أن مرجع مزية الكلام وفضله إنما هو النظم. يقول عبد القاهر: «... فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساد، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»^(٢).

لكن عبد القاهر لم يشر إلى (كسر الدلالة المعجمية للمفردات) التي يُراعى النحو فيها بينها عند التأليف؛ ذلك لأنه - كما يقول عبد القاهر - «معلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلمة المفردة التي تكلمه بها، فلا تقول: خرج زيد، لتعلمه معنى (خرج) في اللغة، ومعنى (زيد)، كيف؟ ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف. ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم، ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل - كلاما»^(٣).

فالتكلم يقصد إعلام السامع شيئا لا يعلمه، والسامع لا شك يعلم المعاني الأولية للمفردات؛ ومن ثم فالتكلم يقصد معنى تركيبيا يحمله الكلام المؤلف من

(١) انظر: الدلائل: ص ٣٦٣، ٤١٠.

(٢) الدلائل: ص ٨٣.

(٣) السابق: ص ٤١٢.

مفردات ذات دلالات معجمية، تتفاعل مع وظائفها النحوية التي تشغلها حسبما تقتضيه قوانين علم النحو.

وكما قسم سيويه الكلام إلى (مستقيم) و(محال) - قسم عبد القاهر الكلام إلى (مؤتلف) و (غير مؤتلف)، ويبيّن أن العبرة بالكلام المؤلف الذي يحمل معنى، فيقول: «ليس من عاقل يفتح عن قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض (يقصد أفراد الكلمات)، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق ببعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق، ويعلم ضرورة - إذا فكر - أن التعلق يكون فيما بين معانيها لا فيما بينها أنفسها، ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقا فيما بين لفظين لا معنى تحتها لم نتصور؟ ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين: مؤتلف وهو الاسم مع الاسم والاسم مع الفعل، وغير مؤتلف وهو ماعدا ذلك كالفعل مع الفعل والحرف مع الحرف، ولو كان التعلق يكون بين الألفاظ لكان ينبغي ألا يختلف حالها في الائتلاف»^(١).

ولم يقف عبد القاهر عند حدود بيان ضرورة مراعاة هذين الأساسين (أعني المعاني النحوية والمفردات) لكي يتم تأليف الكلام، بل يبيّن أن فصاحة اللفظة وعدم فصاحتها يرجع أيضا إلى دخولها في التركيب، وأنها خارج التركيب لا يحكم عليها بشيء من ذلك^(٢).

ويؤكد عبد القاهر أن تأليف الكلام (نظمه) إنما يكون تابعا للمعاني الكامنة في النفس، وأن المتكلم يرتب المعاني أولا في نفسه، ثم يحذو على ترتيبها بالألفاظ في نطقه^(٣)؛ فالكلام المنطوق صورة للمعاني الذهنية المدركة.

(١) السابق: ص ٤٦٦.

(٢) انظر: السابق: ص ٤٦٧.

(٣) انظر: الدلائل: ص ٥١، ٥٢، ٥٦.

وهكذا نجد أن «المعنى النحوي عند عبد القاهر الجرجاني يقصد به هذا التوفيق في الاختيار بين المفردات ووظائفها النحوية على الهيئة المرادة»^(١) وهذا المعنى النحوي هو (معنى الكلام) أو (الفائدة) المرجوة من تأليف الكلام، وهذه الفائدة لا بد منها لكي يكون الكلام كلاماً، كما بين النحاة في تعريفهم للكلام، كما أسلفنا.

تعريف النحو ودوره في تأدية المعنى عند السكاكي:

من الذين اعتبروا هذين الأساسين في تأليف الكلام أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، وذلك عندما عرف النحو بقوله: «هو أن ننحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية، وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وبالكلم نوعيها المفردة وما هي في حكمها»^(٢).

وغير خاف أن السكاكي في هذا التعريف الجيد للنحو قد استفاد من إلحاح عبد القاهر على هذين الأساسين في تعريف النظم، والسكاكي في هذا التعريف يشير إلى أنه لكي يتم تأليف الكلام النحوي (المستقيم) لا بد من:

١. معرفة كيفية التركيب (وهذا وظيفة علم النحو بقوانينه المختلفة).
٢. المفردات (الكلم: اسم وفعل وحرف)، وما في حكم المفردات (كالمركب المزجي والإسنادي والإضافي).

وفكرة (الكلام تعبير عن المعاني الذهنية) قال بها كثير من المحدثين. انظر: اللسانيات واللغة العربية: ج ٢ ص ٢١٠-٢١١.

(١) النحو والدلالة: ص ١٦٨.

(٢) مفتاح العلوم: ص ٧٥.

وعن طريق وضع هذه المفردات في تراكيب تبعا لقواعد علم النحو يتحقق الغرض المقصود من التركيب، ويشمل:

١. تأدية أصل المعنى مطلقاً^(١) (أي تحقق الفائدة التي اشترطها النحاة في تعريف الكلام).

٢. الاحتراز من الخطأ في التركيب.

فإذا ما تم تأدية أصل المعنى انتفت (الإحالة) التي أشار إليها سيبويه، وإذا ما تم الاحتراز من الخطأ في التركيب انتفى (قبح الكلام)، الذي أشار إليه سيبويه بقوله: «أن تضع اللفظ في غير موضعه»^(٢)؛ وعندئذ يتألف الكلام المستقيم الحسن (الحقيقي)، أو المستقيم الكذب (المجاز) كما وضحنا من قبل عند تناولنا لنص سيبويه.

أسس تأليف الكلام عند ابن الأثير:

لعل أوضح نص يتناول كيفية تأليف الكلام والغرض من تأليفه كان نص ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) في «المثل السائر»؛ حيث يقول في (باب الصناعة اللفظية)^(٣):

فصاحب الصناعة اللفظية يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء:

الأول: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة، فإنها تُتخير وتُنتقى قبل النظم.

(١) يقول د. محمد خطابي: "وما لم يهتم النحو بالمعنى فإنه يظل ناقصاً، ولتجاوز هذا النقص يقتضي الأمر أن يحدد النحو - كما يقول فان دايك - بنية المعنى المرتبطة بهذه الأشكال، وذلك رغم أن المعنى ليس جزءاً من بنية الأقوال" لسانيات النص: ص ٢٨ (المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١ م).

(٢) الكتاب: ج ١ ص ٢٦.

(٣) المثل السائر: ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي، و د. بدوي طبانة: ج ١ ص ٢٤٥ (منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط ٢، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).

الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها، لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها.

الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنفا في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه».

وهكذا يتفق ابن الأثير مع سيبويه وابن جني وعبد القاهر والسكاكي في بيان أنه لكي يتم تأليف الكلام لابد من اختيار المفردات أولا، ثم وضعها في تركيب؛ لتألف الجملة فتؤدي الغرض المقصود منها أو المعنى أو الفائدة. ولا يقف ابن الأثير عند هذا الحد، بل ينص على ضرورة مراعاة كل جملة لسياقها الذي ترد به؛ ذلك لأنه « لكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه » على حد تعبير ابن الأثير.

التأليف بين الألفاظ والنظام النحوي عند يحيى بن حمزة العلوي:

ثم يأتي يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ) ليؤكد ضرورة مراعاة هذين الأساسين، لكي يتم تأليف الكلام، فيقول: « يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة والجمل المركبة، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذا بعضها بأعناق بعض، وعند ذلك يقوى الارتباط، ويصفو جوهر نظام التأليف، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء، أو كالعقد من الدر فُصِّلَتْ أسماطه بالجواهر واللائع، فخلص على أتم تأليف، وأرشد نظام»^(١).

(١) الطراز: يحيى بن حمزة العلوي: ج ٢ ص ٢٢٤-٢٢٥.

ويعلق الدكتور محمد حماسة على هذا النص بقوله: «ولست هذه الصفات إلا مظهرا من مظاهر التوفيق في الاختيار بين المعنى الأساسي الذي يقدمه النظام النحوي والمفردات المتلائمة»^(١).

ويضرب العلوي أمثلة تتضح فيها إجادة التأليف بين الألفاظ المفردة ونظامها النحوي الذي وردت به، منها قول البحري:

بَلَوْنَا صَرَائِبَ مَنْ قَدْ مَضَى ** فَمَا إِنْ رَأَيْنَا لِفَتْحٍ ضَرِيْبَا
هُوَ الْمَرْءُ أَبَدَتْ لَهُ الْحَادِثَاتُ ** عَزَمًا وَشِيكًا وَرَأْيَا صَلِيْبَا
تَنْقَلَّ فِي خُلُقِي سُودُودٍ ** سَمَاحًا مُرَجَّى وَبَأْسًا مَهِيْبَا
فَالْكَسِيفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِحًا ** وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَشِيْبَا

(١) النحو والدلالة: ص ١٠٦.

يقول العلوي: «فانظر إلى إجادته تأليف هذه الكلمات التي صارت كالأصباغ التي يعمل منها النقوش، فما أحسن موقع قوله (هو المرء)، كأنه قال (فتح) هو الرجل الكامل في الرجولية، ثم تأمل إلى تنكيره السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثم أعقبه بقوله: فالكسيف، فلقد أجاد في التشبيه وأحسن في صوغه (وليس كل آذان تسمع القيل)، فليس إذا راق التنكير في موضع يروق في كل موضع، بل ذاك على حسب الانتظام ومأخذ السياق يفوق ويزداد إعجابا وحسنا، فأنت إذا فكرت في هذه الأبيات وجدتها قد اشتملت على نهاية المدح، مع ما حازته من جودة السبك، وحسن الرصف في أسهل مأخذ وأعجبه، وهكذا يكون الإعجاب في القلة والكثرة، بحسب ما ذكرناه»^(١).

وفي هذا النص إشارة واضحة من العلوي إلى ضرورة مراعاة السياق عند تعانق المفردات مع وظائفها ليتألف الكلام؛ فلا بد أن يتلاءم المعنى الذي يؤديه هذه الكلام مع السياق الذي يرد فيه.

عند هذا الحد يتبين لنا أن القدماء قد نصّوا على ضرورة مراعاة أساسين اثنين في تأليف الكلام أو نظمه، هما:

١. المفردات بدلالاتها المعجمية الأولية.

٢. الوظائف والعلاقات النحوية.

وعن طريق صب هذه المفردات بدلالاتها في وظائفها النحوية تبعاً لما يقتضيه علم النحو داخل التركيب يتم تأليف الكلام المفيد.

وينضم إلى هذين الأساسين امر ثالث لا بد من مراعاته عند تأليف الكلام ألا وهو (السياق) بشقيه المقالي والمقامي.

أسس تأليف الكلام عند المحدثين:

منهج التحليل إلى الوحدات النحوية:

إذا انتقلنا إلى المناهج والنظريات اللغوية المعاصرة، وجدنا أن أول هذه المناهج اهتماماً بالوظائف النحوية، وما يشغلها من أسماء أو أفعال، لكي تتألف الجملة - ما يسمى بـ «المنهج التجميعي» أو «منهج التحليل إلى الوحدات النحوية Tagmemic Analysis»، وهو منهج من مناهج التحليل في إطار البنائية الأمريكية، وضع أسسه بايك (١٩٤٨م) وبجانبه عدد من الباحثين، حيث يرى وأتباعه «أننا إذا وصفنا جملة مثل: (زيد يحب الكتب) بأنها تتكون من: اسم + فعل + اسم، فقد وصفناها وصفا شكلياً بحتاً، وإذا قلنا إنها تتكون من: مسند إليه + مسند + مفعول به، فقد وصفناها وصفا وظيفياً محضاً، وكلا الوصفين غير كامل؛ لأنه إما أن يراعي الشكل وحده أو الوظيفة وحدها، ولتجنب ذلك بحث (بايك) عن وحدة لغوية تجمع بين الوظيفة والشكل»^(١)، فاقترح ما يعرف بالتجميعيات، «والتجميع يوحّد في وحدة واحدة وظيفة معينة في تركيب أكبر، وطائفة من العناصر Items التي تنجز هذه الوظيفة، وقد عرف بوصفه (ارتباط وظيفة قواعدية أو حيز وظيفي Slot بطائفة من العناصر التي يحل بعضها محل بعض تبادلياً وتقع في هذا الحيز الوظيفي) فالمسند إليه (بوصفه تجميعياً) الذي يُعرض أو يُملأ بالاسم، والمسند

(١) نظام الجملة في شعر المعلقات: د. محمود نحلة: ص ٣٣، ٣٤ (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١م).

الذي يعرض أو يملأ بالفعل، والمفعول به الذي يعرض أو يملأ بالعبارة الاسمية - هي كلها تجميعات، وهذه التجميعات تكون تركيبات أكبر كالعبارات **Clauses**، والجمل^(١).

وهذا الابتكار لوحدة لغوية تتضمن كلا من الوظيفة (الحيز) وطائفة العناصر (مالتات) التي تقوم بهذه الوظيفة، يبدو أنه أكثر فائدة في التعامل مع اللغات؛ ذلك لأنه عند تحديد التجميعات تؤخذ في الاعتبار كل من الوظيفة الدلالية والوظيفة النحوية^(٢).

لقد كاد «بايك» أن يقترب من بيان أسس تأليف الكلام كما بينها لغويونا القدماء عندما أخذ في الاعتبار الوظائف النحوية، وما يشغلها من عناصر مألوفة (أسماء وأفعال)، ولم يقتصر على أحد هذين الجانبين دون الآخر. غير أنه لم يشر إلى الدلالة الأولية (المعجمية) لهذه المفردات (المالتات) كما أشار إليها العرب القدماء.

كيفية تأليف الكلام عند تشومسكي:

من أبرز النظريات اللغوية المعاصرة التي اهتمت بمدى التفاعل المستمر بين المفردات بدلالاتها الأولية مع الوظائف النحوية داخل التركيب لكي يتألف الكلام المفيد - النظرية التوليدية التحويلية في النموذج الثاني لها سنة ١٩٦٥ م.

ففي تشومسكي (١٩٥٧ م) يتضح «عدم وجود مكون دلالي، وكذلك عدم الاهتمام بما يكفي بالمشكل المعجمي»^(٣)، فلم يفرق هذا النموذج بين جملة مستقيمة

دلالية؛ نحو: اشتعلت النار في المنزل، وجملة غير صحيحة دلالية (على المستوى الحقيقي للكلام) مثل: اشتعل الثلج في الماء؛ لأن كلتا الجملتين مكونة من:

مركب فعلي + مركب اسمي + حرف + مركب اسمي

«وبعد عمل كاتز وفودر **Katz, Fodor** (١٩٦٣ م) عن (بنية النظرية الدلالية)، وكذلك عمل كاتز وبوسطل (١٩٦٤ م)، نجد أول محاولة لإدخال الدلالة كجزء نسقي في التحليل»^(١)، حيث يتم التأويل الدلالي في البنية العميقة، «ويترتب على هذا أن كل المعلومات الدلالية الضرورية يجب أن تتوفر في هذا المستوى، وأن القواعد التحويلية لا يسمح لها بإحداث أي تغيير في المعنى»^(٢).

وثبني تشومسكي (١٩٦٥ م) هذه الأطروحة إذ يقول: «عندما نعرف (البنى العميقة) بأنها (البنى التي تولد عن طريق المكون القواعدي) فإننا نفترض، في الواقع، أن تأويل الجملة الدلالي يتوقف فقط على وحداتها المعجمية وعلى الوظائف والعلاقات النحوية الممثلة في البنى التحتية التي تظهر فيها»^(٣).

في هذا النموذج الذي تبناه تشومسكي (١٩٦٥ م) وأطلق عليه اسم (النظرية النموذجية) **Standard Theory** «يعتبر المكون التركيبي المركزي في النحو، ويضطلع المكونان الآخران، الدلالي والصوتي بوظيفة التأويل **Interpretation**، لا التوليد **Generation** الذي يختص به التركيب»^(٤)، «فبعد

(١) السابق: الصفحة نفسها.

(٢) السابق: ج ١ ص ٦٩.

(٣) السابق: الصفحة نفسها.

(٤) السابق: ج ٢ ص ١٩٣.

(١) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب: روبنز، ترجمة: د. أحمد عوض: ص ٣٤٦ (سلسلة عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر ١٩٩٧ م).

(٢) انظر: السابق: ص ٣٤٧.

(٣) اللسانيات واللغة العربية: ج ١ ص ٦٧.

أن يثبت المكون التركيبي في الجمل، يُفسر المكون الدلالي معاني هذه البنى، ويُفسر- المكون الفونولوجي أصواتها»^(١).

ولكن تشومسكي يغير موقفه هذا بعض الشيء فيرى أن «البنى السطحية تلعب أحيانا دورا في التأويل الدلالي»^(٢).

يتبين لنا إذن أن أصول اللغة تشكل «في إطار النظرية التوليدية التحويلية تنظيما يربط بين الأصوات والمعاني، وتتألف من ثلاثة أقسام متماسكة يشتمل كل منها على تنظيم قواعدي. وهذه الأقسام هي التالية: المكون الفونولوجي، والمكون التركيبي، والمكون الدلالي»^(٣).

يتألف المكون التركيبي من مكونين^(٤): المكون الأساسي والمكون التحويلي. يحتوي المكون الأساسي على:

١. مجموعة قواعد بناء (قواعد إعادة كتابة).

٢. معجم يشتمل على المداخل المعجمية (المورفيات)، ويحتوي كل مدخل منها على سمات تركيبية وصوتية ودلالية.

تولّد قواعد البناء مشيرا ركنيا (ركنا اسميا - ركنيا فعليا) يتعلق بكل جملة، وتستبدل رموزه النهائية (اسم - فعل) بالمداخل المعجمية (المفردات بدلالاتها الأولية)، فيتم الحصول على الجملة في البنية العميقة، ويخضع هذا الاستبدال لضوابط محددة تبعا لسمات المداخل المعجمية.

(١) الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): د. ميشال زكريا:

ص ١٥ (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١٤٠٣، ١/هـ - ١٩٨٣ م).

(٢) اللسانيات واللغة العربية: ج ١ ص ٧٠.

(٣) الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): ص ١٥.

(٤) انظر: السابق: ص ١٦.

أما المكون التحويلي فيحتوي على «مجموعة التحويلات التي يبدل كل منها مشيرا ركنيا، بمشير ركني آخر، والتي تخضع إلى ضوابط بعضها كلية وبعضها الآخر خاص بكل لغة»^(١).

ويقوم المكون الدلالي «بتخصيص كل تركيب بمعنى شامل، انطلاقا من الدلالات الفردية للمورفامات التي تؤلفه وتبعا للطريقة التي تألف بها هذه المورفامات، فيخصّص - بالتالي - كلا من التراكيب التي يولدها المكون التركيبي، بتمثيل دلالي»^(٢)، ويمكن التعبير عن المعنى الواحد بطرق متعددة، وهذا يمكن تفسيره بأن «البنى العميقة Deep Structures ... يمكن أن تعبر عنها اللغة ببنيات سطحية Surface Structures متعددة، لكل بنية منها مكون دلالي خاص بها لا يشركها فيه غيرها من البنى الأخرى، مع الإقرار بوجود نوع من القربى بين هذه البنى المتعددة، هذا الإقرار ينفي تماما تساويها في أداء المعنى الواحد»^(٣).

فالمكون الدلالي هو الذي يفسر انحراف جملة (اشتعل الثلج في الماء) رغم أنها صحيحة نحويا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن «المكونات الدلالية للفعل «اشتعل» (المركب الفعلي) لا تتركب مع المكونات الدلالية للفاعل «الثلج» (المركب الاسمي)»^(٤).

(١) السابق: الصفحة نفسها.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

(٣) البنى التركيبية الدلالية لظاهرة التعليل في العربية: د. طه الجندي: ص ١١ (مجلة دارالعلوم، ع ٢٧).

(٤) نظرية تشومسكي اللغوية: جون ليون، ترجمة د. حلمي خليل: ص ١٦٠ (الحاشية)، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٥ م).

أما المكون الفونولوجي فيقوم «بتخصيص كل تركيب لغوي بنطق خاص، انطلاقاً من لفظ كل مورفام على حدة، ومن خلال تألف هذه المورفامات. ويحتوي على مجموعة قواعد تختص بدراسة الأصوات اللغوية»^(١).

فتأليف الكلام بها يحمله من دلالات يتم عن طريق تفاعل المفردات مع وظائفها النحوية، داخل البنية العميقة.

لقد كان تشومسكي يأخذ في الاعتبار دائماً أن التراكيب ليست مجرد تكوين كلمات، أو مجرد تجاور ألفاظ، «بل إن أساس التركيب - عنده - يتمثل في مجموعة العلاقات المعقدة بين الكلمات، حتى ولو لم تكن متجاورة، بل إن هذه الأخيرة قد تأخذ اهتمامه أكثر من غيرها»^(٢)، وهذا ما أقره اللغويون العرب القدماء كما بينا ذلك في الصفحات السابقة. وهذا النموذج من النظرية التوليدية التحويلية (١٩٦٥ م) يلتقي بالنظر العربي كما قدمه سيويه وعبد القاهر ومن سار على دربهم من القدماء^(٣).

ويبقى - بعد ذلك - للنظر العربي تفرد في الاهتمام بالسياق الذي لم يحفل به التوليديون، ولعل السبب في ذلك - كما يقرر الدكتور محمد حماسة - أن التوليديين يريدون دراسة اللغة دراسة علمية، وهذا العنصر (السياق) يضيف صعوبة بالغة لمنهج التحليل اللغوي المنظم؛ ومن ثم تركوا هذا المجال لعلماء علم اللغة الاجتماعي^(٤).

وقد سار على درب التوليديين التحويليين من تابعهم من العرب أمثال الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري؛ حيث يؤكد ضرورة مراعاة كل متكلم للغة أو متعلم لها - أساسين اثنين لا بد منهما لتأليف الكلام المفيد. يقول: «كل متكلم للغة

(١) الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): ص ١٥.

(٢) البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب: ص ١٥١ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ م).

(٣) انظر: النحو والدلالة: ص ١١٠ (الحاشية).

(٤) انظر: السابق ص ٤٧ (الحاشية).

طبيعية قد قر قراره على مخزون ذاكري غير واع يجلي معرفته لتلك اللغة وملكته فيها. وهذا المخزون عبارة عن معجم ذهني يمثل الثروة المفرداتية المخزنة، وجهاز قواعد نشيط يرسم أسس تأليف هذه الأبجدية. وكل متعلم للغة يتزود، عادة، بأدوات لغوية صناعية ضمنها قاموس يعينه على تمثل معاني المفردات وصيغها وأصواتها، وكذلك كتاب قواعد نحوية وصرفية تعيد إلى ذهنه طرق تأليف الوحدات المعجمية»^(١).

وكما لم يحفل تشومسكي بسياق المقام، لم يحفل به كل من تابعوه من التحويليين الغربيين والعرب، غير أن الدكتور الفاسي الفهري يتعرض لضرورة مراعاة السياق ودوره في تحديد المعنى المراد من الكلام في سياق حديثه عن (بعض الكليات اللغوية في دلالة الأوضاع)، حيث ذكر من هذه الكليات: إنتاجية اللغة، ومردوديتها، وهو يعني بمردوديتها: إمكان استعمال الجمل نفسها في مواقف مختلفة من أشخاص مختلفين، فنتج دلالة مختلفة لتلك الجمل نفسها؛ لاختلاف السياق. ويرى أن هذا هو الأهم، ويرى أيضاً أن مردودية اللغة - بهذا المفهوم - يمكن أن تعتبر وجهاً لتعدد المعاني^(٢).

الخروج من الصمت اللغوي إلى النطق الكلامي:

يؤكد أستاذنا الدكتور تمام حسان أنه لكي نخرج من حيز الصمت اللغوي إلى حيز النطق الكلامي لا بد من وضع المفردات المعجمية في وظائفها النحوية تبعاً لما يقتضيه علم النحو بمفهومه الواسع؛ حيث يرى أن اللغة العربية «مكونة من ثلاثة أنظمة، وقائمة من الكلمات التي لا تنتظم في جهاز واحد، وهذه الأنظمة والقائمة تكون معيناً صامتاً، فإذا أردنا أن نتكلم أو أن نكتب نظرنا في هذا المعين الصامت،

(١) اللسانيات واللغة العربية، ج ١ ص ٦.

(٢) انظر: اللسانيات واللغة العربية، ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧.

فوضعنا محتوياته في حالة عمل وحركة، فأخذنا من الكلمات ورصفناها على شروط الأنظمة؛ أي بحسب قواعد اللغة، وخرجنا من دائرة الصمت اللغوي إلى دائرة النطق الكلامي، أي من حيز السكون إلى حيز الحركة، ومن حيز الإمكان إلى حيز التطبيق^(١).

وقد سبق أن عرضنا للبيت المراثي الذي أورده^(٢)، والذي يؤكد به ضرورة مراعاة المفردات بدلالاتها المعجمية، وهو بذلك يبين أن الكلام لا يتم تأليفه إلا إذا راعينا المفردات بدلالاتها الأولية، والقواعد النحوية التي يتم رصف المفردات تبعاً لها.

محاور بناء الجملة الصحيحة نحويًا ودلاليًا عند د. محمد حماسة :

من أكثر الداعين إلى ضرورة فهم الجملة عن طريق التفاعل المستمر بين المفردات بدلالاتها المعجمية مع وظائفها النحوية داخل السياق - أستاذنا الدكتور محمد حماسة في كتابه « النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي » الذي كشف به القناع عن إشارات سيويه في هذا المجال، ثم دعوة عبد القاهر الجرجاني من بعده، وإشارة العلوي، واستفاد من كل ذلك - بجانب معطيات النظرية التوليدية التحويلية - في بيان علاقة النحو بالدلالة، وسوف نفصل ذلك كله في موضعه من الفصل الثاني.

(١) اللغة العربية معناها ومبناها: ص ٤٠-٤١.

(٢) انظر: السابق: ص ١٨٣.

وتكفي - هنا - الإشارة إلى أنه يرى أن هناك محاور تركز عليها الجملة التي تعد صحيحة نحويًا ودلاليًا في اللغة، وهي^(١):

١. وظائف نحوية بينها علاقات أساسية تمد المنطوق بالمعنى الأساسي.

٢. مفردات يتم الاختيار من بينها لشغل الوظائف النحوية السابقة.

٣. علاقات دلالية متفاعلة بين الوظائف النحوية والمفردات المختارة.

٤. السياق الخاص الذي ترد فيه الجملة سواء أكان السياق لغويًا أم غير لغوي.

عن طريق هذه المحاور أو الأسس يتألف الكلام المفيد، ف« هناك تفاعل قائم مستمر بين الوظيفة النحوية والدلالة المعجمية للمفرد الذي يشغل هذه الوظيفة، ويشكل هذا التفاعل بينهما، مع الموقف المعين، المعنى الدلالي للجملة كلها. والجملة هي الغاية الأولى لكل نظام نحوي، إذ يعمل على كشف تركيبها، ويحاول أن يربط بين الصورة الصوتية المنطوقة لها والمعنى المراد منها، من خلال النظام العقلي الذي يحكمها»^(٢).

ويشير إلى أن التفريق بين الظواهر النحوية والدلالية، وعدم مراعاة التفاعل المستمر بين المفردات ووظائفها النحوية داخل السياق - ليس وصفًا ملائمًا لحقائق اللغة، فقد «كان يُنظر إلى كل من هذين الجانبين، على حدة، على أنه أساس من دراسة اللغة مستقل، ولذلك حظي كل منهما بدراسات كثيرة متنوعة في القديم والحديث. هذه التفرقة بين التفسيرات النحوية والتفسيرات الدلالية لم تسمح بأن تقرر طبيعة العلاقة الحميمة المحكمة بينهما. وقد أصبح واضحًا بعد تطور النظريات اللغوية، وبخاصة نظرية النحو التحويلي التوليدي أن الوصف اللغوي الذي يعالج القواعد

(١) النحو والدلالة. ص ٤٦.

(٢) السابق: ص ٩.

النحوية والمعجم - أو إن شئت مفردات اللغة - بوصفها وحدتين مستقلتين منفصلتين بدون قواعد تربطهما ربطا داخليا، لا يمكن أن يُنظر إليه على اعتبار أنه الوصف الملائم لحقائق اللغة أو لقدرة المتكلمين الأصليين بها»^(١).

إن الناظر في كتاب «النحو والدلالة» فضلا عن المؤلفات الأخرى للدكتور حماسة يجد أنه يلح إلحاحا متواصلا على ضرورة مراعاة التفاعل المستمر بين المفردات بدلالاتها المعجمية ووظائفها النحوية داخل السياق. ويطلق على المعنى الناتج عن هذا التفاعل «المعنى النحوي الدلالي» الذي هو موضوع الفصل الثاني.

أسس إنتاج النص الأدبي:

اللغة تتشكل في نص متماسك:

كان الحديث فيما مضى عن أسس تأليف الكلام، ويُقصد به الجمل في ألسنة النحاة - كما بيّن ذلك العلوي^(٢) - وهذه الجمل التي تناوّلها النحاة منها «الجمل النصّية»، و«الجمل النظامية»^(٣)، والمقصود بالجمل النصّية الجمل الحية التي تنتمي إلى نص معين، وهذه الجمل لا يمكن تفسيرها تفسيراً صحيحاً إلا داخل سياقها النصي الذي ترد به. أما الجمل النظامية فهي الأمثلة المصطنعة التي يعتمد عليها النحوي لتوضيح القاعدة، أو الجمل التي تنتمي إلى اللغة العادية (لغة العلوم مثلاً)، و«البون شاسع بين الكتابة الأدبية واللغة العادية؛ لأن اللغة العادية (تلقائية) لا تصدر عن (وعي) ولا عن (اختيار)، وهي تشكل معظم النشاط اللغوي الإنساني، أما الكتابة الأدبية فهي لغة فردية خاصة، تصدر عن اختيار واع، ومن ثم كانت خروجاً عن

(١) السابق: ص ٣٩.

(٢) انظر: الطراز: ج ٢ ص ٩.

(٣) هذا التمييز قال به "لاينز"، انظر تحليل الخطاب: ص ٢٤.

النمط العادي Deviation From The norm ومن هنا أيضاً كان قول

القائلين بأن الأسلوب هو الرجل، أو بأن الأسلوب كبصمات الإنسان»^(١).

لكن اللغة - كما يرى هاريس - «لا تأتي على أشكال كلمات أو جمل مفردة،

بل في نص متماسك»^(٢)؛ لذا يجب تحليل الجمل في سياقها النصي.

والمبدع عندما ينتج نصاً أدبياً فإنه يعتمد إلى الاختيار الدقيق بين مفرداته

والوظائف النحوية التي تشغلها؛ ذلك لأن لغة الشعر غاية، في حين أن لغة العلوم

وسيلة، فاللغة «التي تستخدم لنقل حقائق العلوم والمعارف لا يُطلب منها بعد تحقق

الصحة سوى أن تكون دقيقة محدّدة، وتعبر عن معناها الذي جاءت للتعبير عنه دون

لبس أو غموض، وقد كان تحقق شرط أمن اللبس من الأمور التي اشتراطها اللغويون

في كثير من الأحوال. لكن لغة الأدب والفن تختلف عن ذلك، إنها ستكون وسيلة

جمالية يُطلب منها أكثر من دلالتها التي وُضعت لها، ويُراد لها أن تعبّر عن أمور لا

تتضمنها المعاجم ولا تشير إليها»^(٣).

أما مكونات النص الأدبي، فيرى بعض الباحثين أنه «يتألف من مجموعة

كبيرة من الجمل المتلاحقة في نسيج متشابك يؤدي إلى النهاية التي هي آخر جملة في

النص»^(٤).

لكن النص الأدبي في حقيقته مكون من مجموعة من الأجزاء، كل جزء يتألف

من مجموعة من الجمل المتلاحقة أو من جملة واحدة طويلة - خاصة في الشعر القديم

(١) علم اللغة والنقد الأدبي، د. عبده الراجحي: ص ١١٧ (فصول، ٢، يناير ١٩٨١ م).

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي: ص ٢٠.

(٣) بلاغة التراكيب، د. توفيق الفيل: ص ٨ (مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩١ م).

(٤) النص الأدبي تحليل وبنائه د. إبراهيم خليل: ص ٦٤-٦٥ (عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٥ م، دون ناشر).

نحو شعر المعلقات - «وقارئ الشعر العربي القديم يلحظ أن الجملة تطول فيه طولا عظيما قد يستغرق أبياتا كثيرة، قد تفوق العشرين بيتا في القصيدة»^(١).

ويرى حازم القرطاجني أن النص مكون من مجموعة من الفصول، وكل فصل مكون من مجموعة من الأبيات^(٢)، والأبيات لا شك تتكون من مجموعة من الجمل أو من جملة واحدة طويلة.

فالجملة هي وحدة بناء النص؛ إذ النص في النهاية مجموعة من الجمل مصوغة في أجزاء أو فصول. ولكن، هل أسس تأليف الجملة هي نفسها أسس إنتاج النص وإبداعه؟

الصفات الأساسية للنصوص:

يقرر علماء النص أن (النص) ليس عملية ميكانيكية بسيطة، بل هو حالة خاصة من الإبداع الخلاق، وأن المقصد الأساسي من صناعته هو المعنى^(١). وإذا كان إنتاج النص عملية صعبة ومعقدة - كما قرروا - فما الجوانب الأساسية لإنتاجه؟ يستنبط (فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر) ثلاث صفات أساسية للنصوص هي^(٢):

(أ) يعد إنتاج النص نشاطا لغويا، يخدم أهدافا اجتماعية، ويكون لذلك مرتبطا - غالبا - بسياقات نشاط معقدة.

(ب) إنتاج النص نشاط واع وخلاق يحتوي على التطوير المباشر لأصناف الحدث واختيار الوسائل المناسبة لتحقيقها. إنتاج النص يكون دائما نشاطا مقصودا، ينفذه المتكلم وفقا للشروط الملائمة التي ينتج النص ضمن حدودها، ويحاول أن يفهمه السامع من خلال الأقوال اللغوية.

(ج) يعد إنتاج النص دائما نشاطا تفاعليا مرتبطا بشريك، ويكون دائما بشكل نسبي بين شركاء الاتصال الذين يتعلق بهم النشاط اللغوي لمنتج النص بدرجات متفاوتة.

ثم يقول المؤلفان: «بهذه الصفات النوعية الثلاث في القصد، والتفاعل، وكذلك وضع الهدف الاجتماعي، نكون قد ذكرنا في الواقع الجوانب الجوهرية لإنتاج النص، وبذلك أيضا الصفات الأساسية للنصوص، لكن توصيفا كافيا لقضايا إنتاج النص ليس ممكنا بعد، فالتكلم الذي ينتج نصا لا يعيد بذلك إنتاج نص (منتج) بشكل

(١) انظر: مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٣٧٣.

(٢) السابق: ص ١١٨.

(١) بناء الجملة العربية: ص ٢٤٧، وانظر: اللغة وبناء الشعر، د. محمد حماسة: ص ٣٧، ٣٨ (مطبوعة دار الصفوة، ط ١، ١٩٩٢ م) وانظر كذلك: العربية من نحو الجملة إلى النحو النص، د. سعد مصلوح، ص ٤٣١ (الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكويت، دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون ١٩٩٠ م).

(٢) منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة: ص ٢٨٧ (دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦ م).

أو بآخر مما يكون مخزوناً في الذاكرة ببساطة، بل ينفذ نشاطاً بنائياً خالقاً، مما يحتاج في تحقيقه وضبطه إلى معرفة مجتمعية مكتسبة، وكذلك خبرات مجتمعية أيضاً^(١).

فأسس الرئيسة لإنتاج النص (كما يرى الباحثان) هي:

١. أن يكون نشاطاً لغوياً يخدم أهدافاً اجتماعية.
٢. أن يكون نشاطاً مقصوداً، يحاول أن يفهمه السامع من خلال لغته.
٣. مراعاة السياق الاجتماعي.

أما كونه نشاطاً لغوياً فقد نص الباحثان على «أن كل نص يتم تحقيقه من خلال نسق لغوي معين، بكلمات أخرى: لإنتاج أي نص نحتاج إلى علم قواعدي وأيضاً معجمي»^(٢)، ويقولان في موضع آخر: «لأجل إنتاج النص يلزم وجود محتوى واسع جداً من القواعد اللغوية والوحدات»^(٣) أي المفردات المعجمية.

وهذا ما نصّ عليه القدماء والمحدثون، فاعتبروا المفردات المعجمية والقواعد النحوية أساسين مهمين من أسس تأليف الكلام (وكانوا يقصدون الجملة)، ومادام النص مكوناً من مجموعة من الجمل، فما يصدق على الجزء يصدق على الكل، فلا بد إذن من هذين الأساسين.

وأما كونه نشاطاً مقصوداً، فهذا يعني أن يختار المبدع مفرداته ووظائفه بدقة عن قصد ووعي بهذه الاختيارات، بانياً منها معانيه الحقيقية والمجازية حسبما يريد، وإنما يتحكم في ذلك مدى قدرة المبدع في التأليف بين العوالم المختلفة لبناء عالمه الفني.

وأما مراعاة الهدف أو السياق الاجتماعي، فهذا أمر نوافق عليه مادام الحديث عن إنتاج النص، لا عن تفسيره وتناوله؛ فالمنتج أو المبدع لابد أن يعتبر سياق الموقف

(١) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ١٢٠.

(٢) السابق: ص ١٢٥.

(٣) السابق: ١٢٦.

الذي أبدع فيه نصه، ولا بد أن تكون له خبرات مجتمعية ومعرفة مجتمعية مكتسبة، لكي يأتي كلامه مناسباً للمقام الذي قيل فيه ومعبراً عنه. لكن المتلقي أو السامع لا يعتبر ذلك السياق الاجتماعي بوصفه مدخلاً لتناول النص، بل عليه استنباط ذلك السياق غير اللغوي من لغة النص نفسها، ولذلك المعنى أشار الباحثان بقولهما السالف: «ويحاول أن يفهمه السامع من خلال الأقوال اللغوية».

إذن لابد لمبدع النص أن يراعي ما يلي عند إنتاج النص:

١. اختيار المفردات بدلالاتها المعجمية.
 ٢. مراعاة القواعد النحوية المناسبة لوضع المفردات السابقة في جمل يتكون منها النص.
 ٣. مراعاة السياق الاجتماعي الذي يرد به النص عند إبداعه. أما المتلقي فيفهم السياق الاجتماعي من خلال السياق النصي، وهو سياق لغوي في النهاية، فـ «تحليل الخطاب يقتضي بالضرورة القيام بدراسة للتركيب والدلالة»^(١)، وهما متضمنان للسياق الاجتماعي الذي قصده المبدع وأنشأ نصه في ظله.
- فلا بد لكي يكون النص نصاً «من تعانق النحو مع النص الأدبي، والانطلاق من (النحو) في تفسير النص الشعري؛ إذ إن النص لا يمكن أن (يتنصص) إلا بفنل جديدة من البنية النحوية والمفردات، وهذه الجديدة هي التي تخلق سياقاً لغوياً خاصاً بالنص نفسه، وعند محاولة فهم أي نص وتحليله لابد من فهم بنائه النحوي على مستوى الجملة أولاً، وعلى مستوى النص كله ثانياً»^(٢).

فالشاعر لا يتعامل مع مفردات لغوية مستقلة، ولا مع وظائف نحوية مجردة من أي شيء يشغلها، بل يتعامل مع المفردات بدلالاتها المعجمية داخل التركيب تبعاً

(١) تحليل الخطاب، براون ويول: ص ٣٢.

(٢) اللغة وبناء الشعر: ص ٧.

لقواعد علم النحو، مراعي السياق الذي ينتج فيه نصه، وغاية تأليف النص وإنتاجه تختلف من كونه شعرا عنه إذا كان نثرا، « وهنا تكمن عبقرية الشعراء الأفذاذ في استيلاد الكلمات معاني لم تكن لها قبل أن توضع في تراكيب مفيدة. إن بناء الجملة هو الذي يظهر عبقرية الشاعر، ويكشف تفرد وامتياز. وكم من الكلمات المفردة تستخدم عند عدد من الشعراء، ولكنها في بعض الشعر تكون متألثة مشعة لأنها صادفت بناءها، ولاقت موقعها الملائم. فليست القيمة في المفردات من حيث هي، ولكنها في بناء الجملة ونظم التركيب. ولو كان المعول في جودة الشعر على المفردات وحدها لكان أخرى بأصحاب المعاجم أن يكونوا أشعر الناس وأقدرهم على ناصية الشعر، ولكن ملاك الأمر كله وقوامه على انعقاد التراكيب وبناء الجمل»^(١).

ومبدع النص لا يقف عند حدود اختيار المفردات فحسب، بل هو يختار أيضا من بين الوظائف النحوية ما يلائم الغرض المقصود فيعبر بالجملة الاسمية أو الفعلية، ويقدم ويؤخر، ويذكر ويحذف، ويعرف وينكر... إلخ، وهذا الاختيار مقصود لذاته لما يحمله من دلالات ومعاني لا توجد في غيره من البدائل المطروحة. فلا بد إذن من مراعاة الجانبين كليهما وعدم الاقتصار على أحدهما دون الآخر، هذا بجانب السياق الاجتماعي الذي يراعيه المنتج عند إبداع نصه، في حين يستنبطه المتلقي من لغة النص (السياق اللغوي).

إن «عملية الاختيار - في النص الأدبي على وجه الخصوص - هي في الوقت نفسه عملية خلق للمعنى»^(٢)، والشاعر ينطلق من هذا المعنى إلى الكلمات، بينما يسلك المتلقي طريقا عكسية، فينطلق من الكلمات التي بين يديه إلى المعاني التي أرادها الشاعر نفسه، وقد يقترب من مراد الشاعر أو لا يقترب، وهذا لا يهم كثيرا؛ لأن

(١) بناء الجملة العربية: ص ٢٤٩.

(٢) اللغة والإبداع: ص ٧١.

وجهة نظر الشاعر نفسه والمعاني التي يقدمها لقصيدته ما هي إلا قراءة ضمن القراءات المشروعة للقصيدة؛ فالشاعر بعد إنتاج النص يصبح واحدا من المتلقين، وتظل قراءة كل متلق للنص مشروعة مادامت تعتمد على معطياته اللغوية.

والمعاني المستفادة من النص إما معان حقيقية أو مجازية، فالمجاز ناتج من نتائج الاختيار بين المفردات ووظائفها النحوية كالحقيقة تماما، فإذا «كان الاختيار بين كلمات من حقول دلالية يمكن أن تكون بينها علاقات نحوية في سياقها بأن تستعمل الكلمة في حقيقتها اللغوية، أي تستعمل فيها وضعت له في اصطلاح أبناء البيئة اللغوية المعينة، كان ذلك المستوى هو ما يعرف بمستوى الحقيقة اللغوية، أما إذا كان الاختيار بين كلمات من حقول دلالية لا تألف بينها في الحقيقة الوضعية، وبمعنى آخر لا تستجيب لعلاقات نحوية معينة بينها وبين بعضها، فلا تصلح للإسناد، أو الإتياع، أو الإضافة، أو غير ذلك؛ فإما أن تكون هناك قرينة تسوغ هذا الاختيار، وبذلك يكون الكلام مقبولا، أي صحيحا نحويا وداليا، ويدخل في هذه الحالة تحت باب المجاز اللغوي بفروعه، أو لا تكون هناك قرينة - وهي دائما علامة سياقية - تسوغه، وتجزئ وروده، وهنا يخرج عن أن يكون كلاما أصلا»^(١)، «وقيمة العمل الأدبي تتوقف، لا على ما فيه من الحقائق - وإنما على الطريقة الفنية التي تجعل من الأشياء غير الحقيقية أشياء تبدو وكأنها في الواقع»^(٢).

إن المجاز أحد الأسس الرئيسة لكي يكون الشعر شعرا^(٣)، فشاعرية الشعر لا تتحقق إلا به، فما الشعر - في أكثر وجوهه - إلا ضرب من التصوير؛ ذلك لأن الشعر

(١) الجملة في الشعر العربي: ص ٧١.

(٢) النص الأدبي - تحليله وبناءه: ص ٥٩.

(٣) انظر: الجملة في الشعر العربي: ص ٨.

قائم على المبالغة، و«المجاز في الاستعمال أبلغ من الحقيقة، (كما) أنه يلطف الكلام ويكسبه حلاوة، ويكسوه رشاقة»^(١).

يقول ابن فارس: «للشعر شرائط لا يسمى الإنسان بغيرها شاعرا، وذلك أن إنسانا لو عمل كلاما مستقيما موزونا يتحرى فيه الصدق، من غير أن يفرط أو يتعدى أو يمين أو يأتي فيه بأشياء لا يمكن كونها البتة، لما سماه الناس شاعرا، ولكان ما يقوله مخسولا ساقطا. وقد قال بعض العقلاء وسئل عن الشعر فقال: «إن هزل أضحك، وإن جد كذب، فالشاعر بين كذب وإضحاك»^(٢).

ولكن أكثر النحاة لم يهتموا بالمجاز، واقتصروا على دراسة الجانب التجريدي للغة (القواعد)، فلم يفرق الدرس النحوي - في الغالب - بين قولنا: «رأيت محمدا» و«رأيت العدل»، فكلتا الجملتين عندهم مكونة من (فعل وفاعل ومفعول)، وعند هذا الحد وقف أكثر النحاة ليتركوا المجال للبلاغيين في بيان المجاز، مع أن المجاز من صميم النظرية النحوية؛ لأنه لا يقع إلا من خلال العلاقات النحوية بين المفردات في التركيب، فإيقاع الرؤية من المتكلم (الفاعل) على محمد (المفعول به) أدخلت الكلام في مجال الحقيقة اللغوية، في حين أن وقوعها من المتكلم (الفاعل) على العدل (المفعول به) أدخلت التركيب في مجال المجاز، لأن الرؤية ليست ممكنة الوقوع على المفعول به عقلا في هذا الموضع، لكنها ممكنة فنيا.

ويكثر المجاز بالشعر؛ ذلك لأن «واقع النص واقع وجداني عاطفي لا واقع مادي، وبالقدر الذي يعبر فيه النص عن عواطف الشاعر تعبيرا فنيا بقدر ما تتجلى فيه الحقيقة الفنية، والصدق الفني»^(١).

إذا عدنا مرة أخرى للحديث عن السياق باعتباره أحد أسس إنتاج النص، فسنجد أن «تأثيرات الموقف على إنتاج النص كثيرة، لدرجة أنه لا يسمح أن ينظر إلى إنتاج النص على أنه منته، بل مفتوح باستمرار»^(٢)، لكن المتلقي لا يفهم سياق الموقف إلا من خلال السياق اللغوي النصي، فالكلمات هي التي تحيل إلى الظروف التي راعاها المبدع (المتج) عند إنتاج النص، «فكأن القارئ يخترق النص ليصل بنفسه إلى السياق المقامي، وإلى الظروف المحيطة بالكاتب أو الشاعر، ولكي يتحقق هذا يجب أن يكون بناء النص (سياقه اللغوي) بناء يتجلى فيه الترابط والتناسق، الذي يحيل إلى ذلك المقام إحالة تشف عما بين أجزاء النص ووحده من ترابط، وتفاعل داخلي يؤدي إلى نموه من المقدمة إلى النهاية»^(٣)، فالأمر غير اللغوية «يحيلنا إليها الكلام الذي يتألف منه النص، فهي مضمنة في ثنايا التعبير اللغوي»^(٤).

ويتضح سياق الموقف من خلال لغة النص في النص المكتوب؛ لأنه همزة الوصل بين المبدع والمتلقي في أي عصر وأي مكان، فهو يحمل معه سياقه اللغوي الذي يعيش به، بخلاف النص المنطوق الذي يعتمد على سياق الحال، والذي ينتهي بانتهاء المحادثة، فلا يعيش أحدهما بدون الآخر، بل يموتان معا.

(١) النص الأدبي - تحليله وبنائه: ص ٦١.

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ١٥١.

(٣) النص الأدبي - تحليله وبنائه: ص ٣١.

(٤) السابق: ص ٢٢ - ٢٣.

(١) الطراز: ج ٢ ص ٨.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر: ص ٤٦٦، (مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٧م).

ومن ثم فالتلقي لا يهيمه سوى لغة النص التي تهديه إلى الموقف الذي قيل فيه النص، «وكلمها توافر السياق النصي ضمنا بصفة عامة فهم النص. فالنص يخلق سياقه الخاص به»^(١).

وللسياق دور كبير في تحديد المعنى سواء أكان هذا المعنى معنى وظيفيا أم معجميا، ف«كلاهما متعدد ومحمّل خارج السياق، وواحد فقط في السياق»^(٢).

وقد اقتصر اهتمام لغويينا القدماء على السياق الجُملي وسياق الموقف، ولم يهتم بالسياق النصي إلا الذين اتصلوا منهم بالنصوص، وما قالوه في هذا الجانب «يمكن أن تؤسس عليه نظريات مفيدة إذا أحسن استغلالها وأجيد عرضها»^(٣).

وقد أدى عدم اهتمامهم بالسياق النصي إلى القول مثلا بأنه «لا يخبر بالزمان عن أسماء الذوات نحو: زيد اليوم»^(٤)، والنحاة عندما قرروا ذلك إنما كانوا ينظرون إلى الجملة من جانب وإلى المعنى الحقيقي دون المجازي من جانب آخر، ولو ورد الإخبار بالزمان عن أسماء الذوات داخل السياق النصي لانتقل لا من مجال الخطأ إلى الصواب فحسب، بل إلى مجال المجاز. فيمكن أن يقال: زيد أمس ومحمد غدا، هجاء لزيد واتهاما له بأنه دائما ينظر إلى الماضي أو أنه يجتر مجد الآباء دون إضافة لجديد ذي بال، ومدحا لمحمد بأنه ينظر إلى المستقبل ويعمل له، ويمكن أن يكون المراد أن زيدا ملك بالأمس، وأن محمدا سيخلفه في الغد، أو غير ذلك من المعاني، وإنما يتحدد معنى من هذه المعاني حسب السياق النصي الذي يرد به الكلام، وبذلك يتضح أنا لو راعينا

(١) تحليل الخطاب: ص ٦٠ - ٦١.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها: ص ٢٨.

(٣) ظواهر نحوية في الشعر الحر - دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور، د. محمد حماسة:

ص ١٣١ (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٠ م).

(٤) التصريح: ج ١ ص ١٦٧.

السياق النصي الذي ترد به الجملة لأصبحت تلك الجملة التي نحكم عليها بالخطأ، في غاية الصحة، بل في غاية البيان.

ومثال آخر، يقولون: «و (ليت) للتمني، وتكون في المستحيل والممكن ... ولا تكون في الواجب، لا تقول: ليت غدا يجيء»^(١)، لكن هذه الجملة لو اعتُبر السياق الذي قيلت فيه لانتقلت إلى مجال المجاز أيضا، وذلك كأن يدل السياق اللغوي على أن قائلها قد أشرف على الموت، فهو يقولها لاستحالة مجيء الغد في اعتقاده، وهذه الاستحالة لم تُستفد من الجملة بل من السياق الذي قيلت فيه، وهنا تبرز قيمة (السياق النصي) الذي يحدد المقصود بمثل هذه الجملة، وينقلها لا إلى مجال الصحة فحسب بل إلى مرتبة المجاز، فبدلا من أن يقول المتكلم في هذا الموقف: ليتني أدرك غدا، قال: ليت غدا يجيء.

وهكذا نجد «أن المجاز والسياق يعرضان اللفظ للتوسع الدائم»^(٢).

خلاصة:

لقد تبين لنا عند هذا الحد أنه لكي يتم «تأليف الكلام وإنتاج النص» لا بد من مراعاة الأسس التالية:

١. المفردات بدلالاتها الأولية (المعجمية).

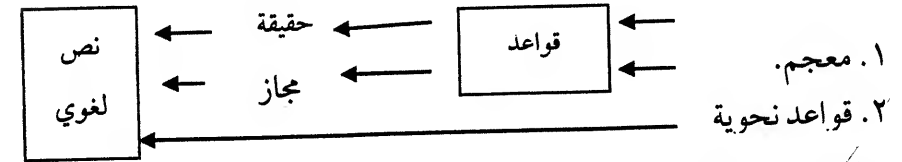
٢. الوظائف النحوية التي تشغلها هذه المفردات، والعلاقات النحوية بينها تبعا لما تقتضيه قواعد علم النحو.

(١) ارتشاف الضرب: ج ٣ ص ١٢٤١، وانظر: التصريح: ج ١ ص ٢١٢.

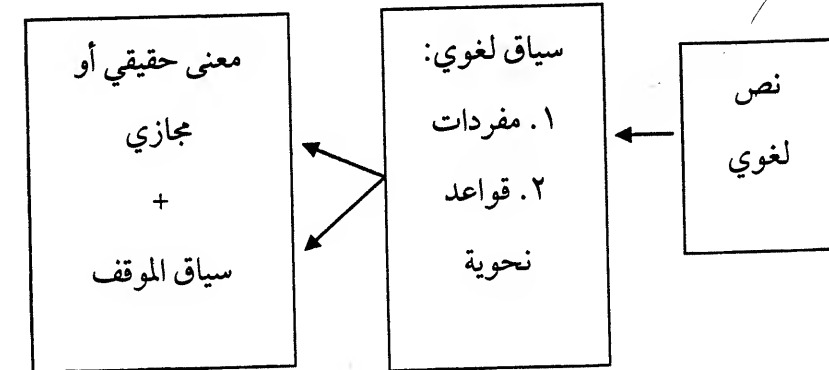
(٢) اللسانيات واللغة العربية: ج ٢ ص ٢٠٤.

٣. مراعاة الاختيار الدقيق بين المفردات والوظائف النحوية ؛ لينتج بذلك معنى حقيقي أو مجازي.

٤. مراعاة سياق الموقف (مع ملاحظة أن المتلقي يتوصل إليه من خلال لغة النص).
- ويمكن تمثيل إنتاج المبدع للنص بالمخطط التالي:



- ويمكن تمثيل تناول المتلقي للنص بالمخطط التالي:



هذا، مع الأخذ في الاعتبار أن الكلام إذا كان كلاما عاديا (علميا مثلا) لا يشترط فيه مراعاة السياق، ولا الاختيار الدقيق بين المفردات والوظائف ؛ لأن لغة العلوم بعيدة كل البعد عن المجاز، ومن ثم يقتصر في تأليف مثل هذا الكلام العلمي على الأساسين الأول والثاني فحسب.

الفصل الثاني

المعنى النحوي الدلالي

وأثره في تأويل الشعر

مفهوم المعنى النحوي الدلالي :

اتفق كثير من الدارسين القدماء والمحدثين - كما وضعنا في الفصل الأول - على أن الكلام لابد لكي يكون كلاماً أن يكون مفيداً ، أي دالاً على معنى ؛ فالمعنى هو مقصود اللغات ، وهو الذي يصوغ المتكلم جملته تبعاً له ، وهو الذي يبحث عنه المتلقي بين الكلمات المتفاعلة مع وظائفها النحوية داخل التركيب ؛ فالمعنى به يبدأ المتكلم وإليه ينتهي المتلقي .

وهذه الإفادة هي ما عبّر عنها سيبويه بالاستقامة ، وقسم الكلام المفيد تبعاً لذلك إلى (مستقيم حسن) وهو ما يقابل مستوى الحقيقة اللغوية ، و(مستقيم كذب) وهو ما يقابل مستوى المجاز اللغوي أو (الاتساع)^(١) كما اصطلاح على ذلك في كتابه . وتابع عبد القاهر سيبويه في ذلك فقسم المعنى قسمين : (المعنى) ويقصد به مستوى الحقيقة اللغوية ، و(معنى المعنى) ويقصد به مستوى المجاز ؛ فالمراد بالمعنى - كما يقول عبد القاهر - «المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»^(٢) . فالكلام لا قيمة له إلا بما يحمله من معانٍ حقيقية كانت أو مجازية ، وقد انتهينا إلى أن الكلام لكي يتألف لابد له من أسس أربعة . ونضيف أن كل أساس من هذه الأسس له دور في أداء المعنى المراد من الكلام :

فالمفردات تمد الكلام بالمعنى الأولي لها (المعجمي) .

والنحو بأحكامه المختلفة يمد الكلام بالمعنى النحوي الأولي (الوظيفي) .

(١) انظر: الكتاب ج ١: ص ٢١١-٢١٥ .

(٢) الدلائل: ص ٢٦٣ .

والاختيار الدقيق بين المفردات المتفاعلة داخل التركيب له دور كبير في تحديد المعنى من حيث الحقيقة أو المجاز؛ وذلك أنه لو اختيرت المفردات دون كسر للسمات الانتقائية لكان معنى الكلام على جهة الحقيقة، أما إذا كسر قانون اختيار السمات الانتقائية بين المفردات؛ فجاءت لا تألف بينها في الواقع - انتقل الكلام إلى مستوى المجاز.

أما السياق اللغوي فيقوم بتحديد المعنى على مستوى المفردات أولا، ثم على مستوى التركيب ثانيا؛ وذلك بترشيح معنى معين، ونفي ما عداه من المعاني المحتملة خارج النص.

لقد أطلق أستاذنا الدكتور محمد حماسة على هذا المعنى الذي بينا كيفية تحقيقه (المعنى النحوي الدلالي) حيث يقول: «وسوف أطلق على تفاعل المعنى النحوي الأولي والدلالة الأولية للمفردات في السياق الملائم الذي يعطي المفرد معنى جديدا خاصا في إطار الجملة (المعنى النحوي الدلالي) وقد يرد مختصرا (المعنى النحوي)»^(١)، ويقول في موضع آخر: «لا المفردات وحدها ولا الأشكال النحوية وحدها كافية في إبراز السمات الأسلوبية الدقيقة للنص الأدبي، وإنما هو ذلك (الاختيار) الدقيق بينهما المرتبط بالسياق. وهذا ما أعنيه بالمعنى النحوي الدلالي»^(٢).

لقد فهم الدكتور عبد الفتاح البركاوي (المعنى النحوي الدلالي) على أنه (المعنى المجازي)، حيث يقول: «إن المعنى النحوي الدلالي هنا كما يراه الدكتور

(١) النحو والدلالة: ص ٥٥

(٢) السابق: ص ١٧٩

حماسة لا يختلف في قليل أو كثير عما أسماه عبد القاهر (معنى المعنى) وهو أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»^(١).

والدكتور البركاوي بذلك يحصر المعنى النحوي الدلالي في دائرة (المجاز) رغم اتساعها، والحق أن المعنى النحوي الدلالي قد يكون معنى حقيقيا (مستقيما حسنا) عندما يتم الاختيار بين المفردات التي تشغل التركيب، دون إخلال بشروط ورودها في التراكيب حسبما تقتضيه السمات الانتقائية لكل مفردة من مفردات التركيب، وقد يكون معنى مجازيا (مستقيما كذبا) عندما تُكسر قواعد السمات الانتقائية بين المفردات داخل التركيب.

فالاختيار بين المفردات بما تحمله من سمات انتقائية له دور فعال في تشكيل المعنى النحوي الدلالي، فالفعل (تضيء) مثلا له سمات مقولية وهي أنه يتطلب (فاعلا ومفعولا به)، وله سمات انتقائية منها (أن يكون الفاعل مصدرا للإضاءة)، والمفعول به (قابلا لأن يضاء)، فلو تم الاختيار دون كسر - لهذه السمات فقلنا: (يضيء المصباح الظلام) لفهمنا من هذه الجملة معنى نحويا دلاليا حقيقيا، ولكن لننظر إلى قول امرئ القيس يصف محبوبته:

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا *** مَنَارَةٌ تُحْسِي رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ

لقد كُسرَت قواعد الاختيار بين المفردات فأتى الشاعر بفاعل من سماته الانتقائية: (+حي)، (-مصدر للإضاءة)، وهو الضمير المستتر المقدر بـ (هي) العائد على المحبوبة التي يتحدث عنها كما يوحي بذلك سياق الأبيات، فنتج لدينا معنى نحوي

(١) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث: د. عبد الفتاح البركاوي: ص ٢٢٤، دار المنار،

القاهرة، ط ١، ١٩٩١ م.

دلالي مجازي . فالإسناد هنا ليس على وجه الحقيقة بل على جهة المجاز؛ لذا يخفف الشاعر من حدة المجاز بقوله بعد ذلك : (كأنها منارة ممسى راهب) فأتى بكأن الدالة على التشبيه ليجعل الإسناد بين (اسمها وخبرها) ليس على حقيقته بل على جهة التشبيه؛ ولعل ذلك يقودنا إلى القول بأن التشبيه أقل انحرافا من الاستعارة .

وأما السياق فالمقصود به هنا السياق المقالي؛ لأننا من زمرة المتلقين الذين ليس أمامهم سوى لغة النص ، أما السياق المقامي فيعتبره المنتج أو المبدع عند إنتاج النص ، وإنما يتوصل المتلقي إلى ذلك السياق المقامي من خلال السياق المقالي (لغة النص)؛ فإذا لم تنبئ لغة النص عن ذلك السياق المقامي فلا يحق للمتلقي أن يفترض سياقاً غائباً لا دليل عليه ، خاصة إذا كان النص المتناول نصاً مكتوباً كالمعلقات لأن الكتابة «تفتقد التعاون وحالات الإلزام في سياق المحيط؛ فالارتباط الكتابي يقود إلى نزاع الصبغة المكانية ... نزاع الإحساس الزمني ... والابتعاد عن الشخصانية (هكذا) ... في الوقت نفسه تُسقط هذه الصبغة من التواصل الإمكانات الاتصالية في لغة الجسم (الوقوفات والحركات المصاحبة وتعبيرات الوجه) ، وإمكانات الملاحظة المباشرة للمواقف - المحدثات بأي صبغة - ومشاعر الشركاء»^(١) . أما في النص المنطوق فالأمر يختلف؛ فزمان الإبداع والتلقي واحد ، وكذلك مكانها ، وكل الظروف المحيطة أيضاً واحدة ، بخلاف النص المكتوب الذي يتم به الاتصال بين المبدع والمتلقي عن بُعد ، وعندئذ ينجز المبدع والمتلقي «نشاطاتهما الاتصالية في سياقات جزئية مختلفة؛ فالسياق الشامل لم يعد يصنع إلا من خلال النص»^(٢)؛ ولذلك «لا بد من تفسير القصيدة كلها

(١) مدخل إلى علم اللغة النصي: فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: ص ٣٠٧ .

(٢) السابق: ص ٣٠٦ .

بوصفها نصاً واحداً من خلال السياق الذي تصنعه القصيدة نفسها»^(١) ، وليس من خلال السياق المفروض عليها من الخارج .

فلغة النص (سياقه المقالي) هي التي تحتضن الأحداث الاتصالية والاجتماعية، وتدلنا عليها وتحددها؛ فمدخلنا إلى النص هو لغته ، ولا يجوز أن ننطلق إلى النص بافتراضات خارجية مسبقة كالروايات التي تُصَدَّرُ بها النصوص والدواوين الشعرية؛ لأننا بذلك نسلك طريقاً عكسية ، ونقفز إلى النتائج؛ ربما لكيلا نتحمل عناء التناول اللغوي للنصوص .

والدور الأساسي للسياق المقالي هو تحديد معنى الكلمة المفردة داخل التركيب؛ ذلك لأن معنى الكلمة خارج التركيب متعدد ، فإذا أُدخِلَت المفردة داخل تركيب في سياق نصي تحدد لها معنى واحد من بين تلك المعاني عن طريق السياق المقالي (الجُملي والنصي) .

فكلمة (الهم) تعني خارج التركيب (الحزن) وتعني (الهمة) ، فإذا أدخلناها داخل تركيب معين انتفى أحد هذين المعنيين وأريد الآخر ، ولننظر إلى قول طرفة :

وَإِنِّي لَأَمْضِي أَلْهَمَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ * * * بِعَوَجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

فالمعنى لا شك هنا (الحزن) لا (الهمة) ، وإنما تُحدد هذا المعنى لوقوع كلمة (الهم) مفعولاً للفعل (أَمْضِي) ، ولن يمضي طرفة همتة بل حزنه ، ويتأكد ذلك من خلال السياق النصي للقصيدة كلها؛ إذ يدلنا النص قبل هذا البيت أن (خولة) قد رحلت ولم تبق سوى الأطلال (ببرقة ثمهد) ، فكان رحيلها سبباً في هذا الهم الذي

(١) ظواهر نحوية في الشعر الحر: د. محمد حاسة: ص ١٣٢ .

سيطر على الشاعر ، وبقي إما أن يستسلم أو أن يمضيه بوسيلة قادرة على ذلك ، ولا يجد طرفة سوى ناقته وسيلة ليمضي بها هذا المهم .

ولا يقف دور السياق عند تحديد معنى المفردة ، بل يقوم بتحديد المعنى النحوي الدلالي لجزء من أجزاء النص ، وذلك إنما يكون عن طريق التوازي الدلالي بين الموضوعات المختلفة المستفادة من السياقات المتعددة داخل النص ؛ فقد يتحدث الشاعر - خاصة الجاهلي - عن المحبوبة ورحيلها ، ثم يتحدث عن همومه وأحزانه ، ثم عن الليل وطوله ، ثم يستعين بفرسه في الصباح الباكر . فهل حديث الشاعر هنا عن ليل حقيقي وبكور حقيقي ؟ إن النص وحده هو الذي يجيب عن مثل هذا التساؤل بما يحمله من سياقات مختلفة تتفق في نهاياتها بانتهاء كل جزء من القصيدة ، وسوف نبين ذلك في موضعه من الفصل الثالث.

يمكننا إذن أن نُعرِّف (المعنى النحوي الدلالي) تعريفا مُفَصِّلاً لتعريف أستاذنا الدكتور محمد حماسة ؛ لكيلا يُساء فهمه ، لما فيه من إجمال .

فالمعنى النحوي الدلالي هو: «المعنى الحقيقي أو المجازي الناتج عن تفاعل المعنى النحوي الأولي مع المعنى الأولي (المعجمي) للمفردات ، داخل السياق المقالي» . والسياق المقالي يشمل (سياق الجملة وسياق النص) ؛ حيث يقوم سياق الجملة بتحديد المعنى المعجمي للمفردة ، ويقوم السياق النصي بتحديد المعنى المعجمي للمفردة أيضا ، ثم تحديد المعنى النحوي الدلالي للتركيب أو لجزء من أجزاء النص .

جانبا المعنى النحوي الدلالي :

يتبين لنا من التعريفات السابقة للمعنى النحوي الدلالي أن له جانبين اثنين هما :

الجانب الأول : المعنى النحوي الأولي ؛ وله ثلاثة روافد أساسية هي :

(أ) معاني الصيغ الصرفية: كمعاني صيغ الثلاثي والرباعي المجردين والمزيدين ، ومعاني صيغ اسم الفاعل والصفة المشبهة وصيغ المبالغة ، ومعاني أبنية المصادر واسم المرة واسم الهيئة والمصدر الميمي والصناعي ، ومعاني أبنية التصغير والنسب وجموع التكسير .

(ب) معاني الصيغ النحوية : كمعاني صيغ الجملة الاسمية المطلقة ، والمقيدة بالنفي أو التوكيد أو التمني أو الترجي أو بقيد يفيد توقيت الإسناد . وكذلك معاني صيغ الجملة الفعلية المطلقة ، والمقيدة بقيد يفيد النفي أو التوكيد أو الاستفهام أو الشرط أو الترجي أو توقيت الإسناد أو توقيته ونفيه . وكذلك تقييد أحد عناصر الجملة ؛ كالفعل بالمنصوبات أو الجار والمجرور أو العطف ... وكالاسم بالتعريف أو الإضافة أو الإتياع ... إلخ.

(ج) معاني حروف المعاني : سواء أكانت داخلة على المفردات أم الجمل ؛ كحروف العطف والجر والتوكيد والنفي والشرط والإضافة والاستعلاء ، والحروف الدالة على الطلب (الأمر - النهي - الدعاء - التمني - الرجاء - الاستفهام) ، وإنابة بعض الحروف عن بعض في أداء المعنى للجمع بين المعنى الأصلي ومعنى الحرف المتضمن ... إلخ .

الجانب الثاني : المعنى الأولي للمفردات ؛ التي تشغل الوظائف النحوية السابقة وتتفاعل معها تبعا لقوانين علم النحو ، ويتم تحديد معاني هذه المفردات داخل السياق .

وعلى الرغم من أن تعريف (المعنى النحوي الدلالي) ينص على وجود (السياق المقالي) إلا أن هذا السياق ليس جانبا من جوانب المعنى النحوي الدلالي ؛ لأنه

ليس في حقيقته إلا نتاج التفاعل المستمر بين المفردات بدلالاتها المعجمية مع المعنى النحوي الأولي .

وهذان الجانبان لا يمكن الفصل بينهما إلا لأغراض الوصف والتحليل والتفسير اللغوي ، وكذلك لا يمكن الفصل بين الروافد الثلاثة للمعنى النحوي الأولي إلا لذلك ؛ لذا لا تعني دراستنا لأي جزء منفصل عن الأجزاء الأخرى أنه جزء مستقل بذاته ؛ بل نحن في ذلك كمن يدرس وظائف الجهاز الهضمي لجسم الإنسان ، فهو إنما يدرسه وهو يعلم جيدا أنه لا يمكن أن تتحقق له هذه الوظائف إلا من خلال تفاعله مع الأجهزة الأخرى داخل الجسم . ولعل هذا ما يفسر تداخل هذه الأجزاء عند دراستنا لها فيما يلي من صفحات ، وذلك تفصيل ما أجمّل :

• الجانب الأول : المعنى النحوي الأولي :

وهذا المعنى له ثلاثة روافد هي :

١- الرافد الأول : معاني الصيغ الصرفية :

لا شك أنه إذا اختلفت الصيغة لا بد أن يختلف معها المعنى المراد ، فصيغة (فَعَّال) غير (فَعُول) حتى وإن ملئت هاتان الصيغتان بمادة معجمية واحدة فقلنا (صَبَّار) و(صَبُور) ، أو (غَفَّار) و(غَفَّور) ، «ولو لم يختلف المعنى لم تختلف الصيغة» إذ كل عدول عن صيغة إلى أخرى لا بد أن يصحبه عدول عن معنى إلى آخر ، إلا إذا كان ذلك لغة^(١) أي لهجة من اللهجات .

(١) معاني الأبنية في العربية: فاضل السامرائي: ص ٧ ، منشورات جامعة الكويت - كلية الآداب - قسم اللغة العربية: ط ١ ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .

وإذا كنا الآن «نستعمل الأبنية مجردة من معناها الدقيق المتميز فنقول : (هو نشيط ونشط) كما يحلو لذوقنا لا كما يقتضي المعنى ، ولا نقصد باستعمال كل منهما معنى خاصا به وكذلك (عسير وعسير) وقُلْ مثل ذلك عن أكثر الأبنية في الجموع والمبالغة وغيرها»^(١) - فإن المبدعين الحقيقيين يدركون تمام الإدراك معنى ما يقولون ، فهم يختارون البنية - كما يختارون المادة المعجمية التي ستملؤها - عن وعي تام بمعناها ، ثم يختارون بعد ذلك الصيغة النحوية التي تلائم ذلك المعنى ؛ فيعدلون عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية أو العكس تبعا للمعنى ، ويلجأون إلى التقديم والتأخير ، والتقييد أو الإطلاق تبعا للمعنى كذلك ، فالمعنى هو الذي يحرك البناء السطحي للجملة . وعلى المتلقي أن يقف أمام كل بنية صرفية ونحوية ، وأمام كل حرف يؤتى به للربط بين المفردات أو بين الجمل ، وأمام المادة المعجمية المختارة - ليصل إلى المعنى النحوي الدلالي المراد من التركيب أو من النص كاملا .

إن الشاعر عند صياغته لجملة يكون مختارا بين أن يعبر بالفعل أو الاسم لشغل وظيفة من الوظائف داخل الجملة؛ فإذا أراد أن يثبت المعنى للشيء على جهة التجدد والحدوث عبّر بصيغة الفعل ، «وسر ذلك أن الفعل مقيد بالزمن ، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي ، والمضارع مقيد بزمن الحال أو الاستقبال في الغالب ، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة فهو أشمل وأعم»^(٢) ، فإذا ما اختار بناء من أبنية الأسماء فإنما يريد أن «يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد شيئا بعد

(١) السابق: ص ٧ .

(٢) معاني الأبنية: السامرائي: ص ٩ ، وانظر: خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى: ص ٢٣٦ .

شيء»^(١)، وأكثر ما يكون ذلك - في الشعر - في الأوصاف والحقائق الثابتة، أو فيما أراد الشاعر أن يسوقه مساق الحقيقة.

غير أن الثبات المستفاد من بنية الاسم ليس على درجة واحدة في جميع أبنية الأسماء؛ فأعلى درجات الحدوث والتجدد تتحقق في العنصر الفعلي الخالص حيث يدل على الحدث والزمن، ثم تقل درجة الحدوث قليلا تدريجيا كلما خفت صوت العنصر الفعلي. فيلي الفعل اسمُ الفاعل حيث يدل على الحدوث أيضا لكنه أقل في درجته من حدوث الفعل؛ لأن العنصر الفعلي في اسم الفاعل غير صريح، فهو رغم دلالته على «الحدث والحدوث وفاعله»^(٢) إلا أن هذه الدلالة على الحدث دلالة ضمنية غير مباشرة. ثم تقل درجة الحدوث في صيغ المبالغة المحولة عن اسم الفاعل لتقترب من الدوام والثبوت. ثم الدلالة على الثبوت والدوام في الصفة المشبهة باسم الفاعل حيث يغيب العنصر الفعلي تماما أو يكاد.

فكلما خفت صوت العنصر الفعلي (الحدث) اقتربنا من الثبات والدوام حيث الاسمية الخالصة.

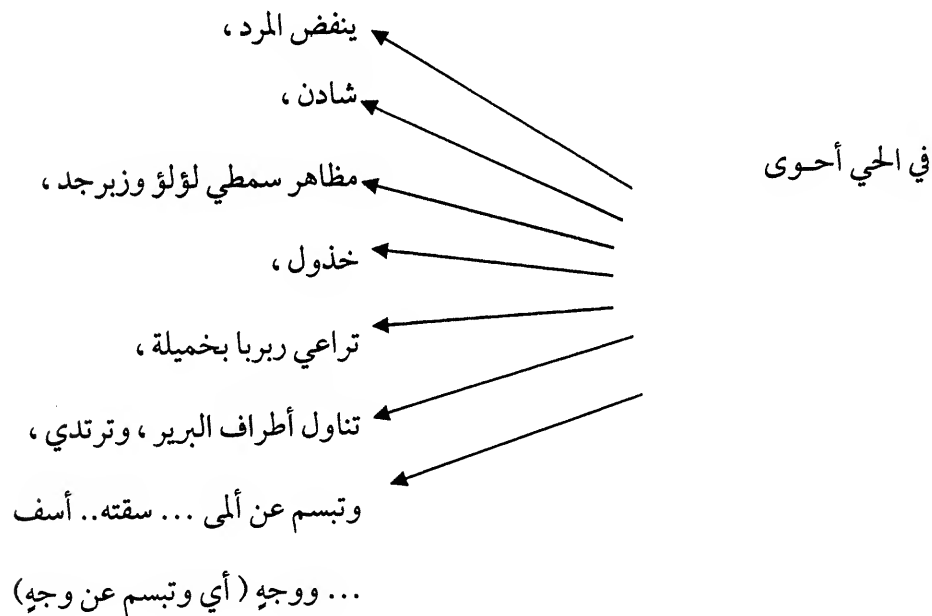
وبجانب الدلالة على الحدوث والتجدد، أو الثبوت والدوام، هناك دلالات أخرى تختلف باختلاف الصيغة وتتحكم في اختيار الشاعر؛ منها الدلالة على من قام بالفعل، أو من وقع عليه الفعل، أو وقوع الحدث على جهة المبالغة، أو وصف الحدث بصفة من الصفات الباطنة أو الظاهرة... إلخ.

وتتضح الدقة في اختيار (أبنية الأفعال والأسماء) في حديث طرفه عن المرأة البديل التي استقرت في الحي بعد رحيل (خولة). يقول طرفه:

(١) الدلائل: ص ١٧٤، وانظر: خصائص التراكيب: ص ٢٣٤، وانظر: معاني الأبنية: ص ٩، وانظر: الإيضاح للقزويني، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، ج ٢ ص ١١٢، ١٣٣ (دار الجليل، بيروت: ط ٣، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م).
(٢) التصريح: ج ٢ ص ٦٥.

وفي الحيّ أحوى يَنْفُضُ المَرْدَ شَادِنٌ * * * مُظَاهِرُ سَمْطِي لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجِدٍ
خَذُولُ تَرَاعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ * * * تَنَاوُلُ أَطْرَافِ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي
وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوَّرًا * * * تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٍ لَهُ نَدٍ
سَقَنَتْهُ إِيَاءُ الشَّمْسِ إِلَّا لِسَاتِهِ * * * أَسْفَافٌ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِأَمِيدٍ
وَوَجْهِ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِدَاءَهَا * * * عَلَيْهِ نَقِيّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

هذا الجزء من معلقة طرفه جملة واحدة تمت إطالتها بوسيلتين من وسائل الإطالة هما الوصف والعطف، ويمكن تمثيلها كما يلي:



إذا نظرنا إلى الجملة الرئيسة وجدناها جملة اسمية تخلو تماما من العنصر الفعلي (وفي الحي أحوى)؛ لأن السياق النصي للقصيدة يرجح تعلق الجار والمجرور (شبه

(*) الأحوى: الذي في شفتيه سمرة، الشادن: الغزال الذي قوي واستغنى عن أمه، المظاهر: الذي لبس ثوبا فوق ثوبه، السمط: الخيط تنظم فيه الجواهر، خذول: أي خذلت أولادها، تراعي ربربا: ترعى مع قطيع من الظباء وبقرا الوحش، البرير: ثمر الأراك، الألى: الذي يضرب لون شفتيه إلى السواد، الدعص: الكثيب من الرمل، إياة الشمس: شعاعها، الكدم: العض، الإثمند: الكحل، أسف: دُرٌّ، التخدد: التشنج والتغضن.

الجملة المقدم) باسم محذوف وجوبا هو الخبر وتقديره (مستقر)، ولا يرجح كون المحذوف فعلا؛ فالقصيدة في الأبيات السابقة (١ - ٥) تتحدث عن رحيل خولة :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٍ بِسُرْقَةٍ تَهْمِدُ * * * تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

فهناك رحيل في مقابل إقامة ، وقطع يقابله وصل .

كما أن جميع الصفات التي خلعتها الشاعر على تلك المرأة المقيمة (في هذا الجزء الذي بين أيدينا) يرجح تقدير الخبر اسما ، كما سنرى .

ثم إن الجزء التالي ومطلعه :

وإِنِّي لَأَمْضِي أَلْهَمَ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ * * * بِعَوَجَاءِ مِرْقَالٍ تَرَوْحُ وَتَعْتَدِي

يقطع - في سياقه النصي - بأن المراد أن تكون تلك الجملة اسمية؛ فبرغم كل ما خلعه الشاعر على تلك المرأة البديل المقيمة من صفات إلا أنها لا تستطيع أن تحتويه كما كانت تحتويه محبوبته الراحلة؛ لذا لجأ إلى ناقته فوصفها في ثلاثين بيتا ، ليعين للمتلقى إلى أي حد تستطيع تلك الناقة - التي بكل هذه الصفات - أن تمضي همه في حين لم تستطع ذلك المرأة البديل المستقرة في الحي .

فالجملة الأساسية إذن جملة اسمية ، والجملة الاسمية «موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار ، إذا كان خبرها اسما»^(١)، فهذه المرأة مقيمة بالحي مستقرة به على وجه الثبوت .

فالشاعر هنا يريد أن يبين مدى المفارقة بين محبوبه راحلة وامرأة مقيمة مستقرة؛ كما أن هذه المرأة المقيمة امرأة مثال يتطلع إليها كل من كان مثل حاله؛ لذا

(١) الكليات لأبي البقاء: ص ١٤٠، دار الطباعة العامة، القاهرة، ١٨٣٧ هـ .

يتعجل الوصف في الجملة الرئيسية فيقيم الصفة مكان الموصوف (أحوى) ، وهنا تتجلى البراعة في اختيار صيغة (أفعل) لأنها تختص بالصفات الظاهرة مما كان خِلْقَةً أو بمنزلتها وذلك على جهة البقاء والثبوت^(١) .

أما الجمل الفرعية التي ترابطت بهذه الجملة الرئيسية وأطالتها فكلها جمل فعلية فعلها مضارع (ينفض - تراعي - تناول ... وترتدي ... وتبسم عن ألى ... ووجه) ، وفي ذلك دلالة واضحة على أن هذه الأفعال مقصودة من هذه المرأة على جهة التجدد والحدوث في الزمن الحاضر ، وخلو هذه الجمل من أبنية الفعل الماضي يؤكد أن تلك الأفعال مقصودة في الزمن الحاضر بعد رحيل خولة (محبوبة الشاعر) ، وأنها لم تكن لتفعل ذلك من قبل وخولة في الحي ، فكل أفعالها مقصودة الآن لاستمالة قلب الشاعر الذي ولّت عنه محبوبته .

لقد حملت كل جملة فرعية صورة جزئية تضافرت جميعها في بناء صورة كلية متكاملة لهذه المرأة البديل ، ذلك مع الصفات الأخرى التي أطالت الجملة الرئيسية والتي اختار الشاعر لها أبنية الأسماء (شادن ، مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد ، خذول) وذلك لما تحمله هذه الأبنية من دلالات لا يمكن التعبير عنها بغيرها من الأبنية .

أما سبب اختياره لبنية اسم الفاعل فيتمثل في أنها أديم وأثبت من الفعل وإن لم ترق إلى درجة ثبوت الصفة المشبهة ، وذلك يتناسب مع دلالة المادة المعجمية التي شغلت هذه الصيغة ، حيث تدل هذه المادة على (شدة سواد الأجنان والمقلتين) ، وتلك صفة ثابتة ، فتوافقت بذلك البنية مع المادة المعجمية ليتأكد بذلك ثبات هذه

(١) انظر: معاني الأبنية . السامرائي: ص ٨٤ وما بعدها .

الصفة ولزومها للموصوف ، والمتكلم إذا «تحدث عن هيئة ثابتة وعن شيء قد استقر ... ولم يكن ثم تزايد وتجدد ، فلا يصلح فيه إلا الاسم»^(١) .

كما اختار الشاعر للتعبير عن الصفة الثانية بنية اسم الفاعل أيضا (مُظَاهِر) ليدل بذلك على أن ترف هذه المرأة ليس ترفا حادثا ، بل هو ترف ملازم لها لا يفارقها .

أما الصيغة الثالثة (خذول) فقد اختار لها بنية (فعول) ذلك لأن هذه البنية - كما يقرر أبو هلال - «لمن كان قويا على الفعل»^(٢) ، وفي ذلك إيحاء بداليتين ضمنتين؛ الأولى : أن ذلك الخذلان عن عمد منها فهي تضحى بأولادها؛ لكي تكسب ودَّ الشاعر وتستولي على قلبه ، والثانية : بيان مدى المفارقة بينها وبين خولة الراحلة مع أهلها ، فهناك تضحية منها بالأهل والولد ، يقابله نزول من خولة على رغبة الأهل وإرادتهم؛ فهي التي تستحق ذلك الحب لا خولة التي ولَّت ، ولم تقدم له تضحية واحدة .

لقد اختار طرفة هنا - عن وعي تام - لكل صفة ما يناسبها من أبنية الأسماء أو الأفعال؛ فاستطاع بذلك أن يصف تلك المرأة وصفا ينم عن مدى محاسنها واستعدادها للتضحية من أجله ، ومع ذلك يظل باقيا على عهده فيلجأ إلى ناقتة في الجزء التالي مباشرة لأنها وحدها - بما أوتيت من صفات - تستطيع أن تحتوي همومه وأحزانه .

وليس اختيار الشاعر للفعل أو الاسم اختيارا له حسبا جاء واتفق على أي بناء ، فهو يختار بناءً واحداً من بين مجموعة الأبنية التي يتيحها له النظام اللغوي ، واختيار الشاعر لبناء ما إنما يكون لما يحمله من معاني لا تؤدي بغيره من الأبنية .

يتضح ذلك جليا في هذا الجزء من معلقة ليبيد :

فَاقْطَعْ لُبَانَةً مَنْ تَعَرَّضَ وَضْلُهُ * * * وَلَشَرُّ وَاصِلٍ خُلَّةٍ صَرَّامُهَا

وَاحِبُ الْمُجَامِلِ بِالْجَزِيلِ، وَصَرْمُهُ * * * بَاقٍ إِذَا ظَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا

بَطْلِيحٍ أَصْفَارٍ * * *^(٣)

هذا الجزء - في سياقه النصي من المعلقة - يحتاج إلى أناة ودقة في اختيار الأبنية وتوزيعها من حيث إسنادها أو الإسناد إليها .

والشاعر هنا على مستوى اختياره أبنية الأفعال ، نجده قد اختار فعلي أمر (اقطع - احب) ، وثلاثة أفعال ماضية (تعرض - ظلمت - زاغ) ، ولم يستخدم فعلا مضارعا واحدا .

أما بناء (افعل) - وهو أمر بما لم يقع^(١) - فقد أسند في كلتا الحالتين إلى الضمير المستتر (أنت) المنصرف إلى ذات الشاعر ، لكنه ملئ في المرة الأولى ببادة معجمية تدل على القطع ، وفي المرة الثانية ببادة معجمية تدل على الاختصاص بالعطاء؛ وذلك لاختلاف معمول الفعلين .

(*) اللبنة: الحاجة، الخلّة: المودة المتناهية، الصرام: القطاع، حيوته بكذا: أعطيته إياه، المجامل: المصانع، الصرم: القطيعة، الطلع: غمز في الدواب ، زاغ: مال ، قوام الشيء: ما يقوم به ، الطليح: المعبي .

(١) انظر: الكتاب: ج ١ ص ١٢

(١) الدلائل: ص ١٧٥ .

(٢) الفروق اللغوية: لأبي هلال: ص ١٢ ، مكتبة القدسي، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

وتتجلى براعة الشاعر في اختياره الدقيق معمول كل فعل؛ حيث اختار معمول الفعل الأول (اقطع) اسماً نكرة (لبانة) ثم قيده بالإضافة، لكنه لم يضيفه إلى اسم المحبوبة (لبانة نوار)، أو إلى ضميرها (لبانتها)^(١)، بل أضافه إلى اسم موصول (من)؛ لأن الموصول يقتضي جملة هي جملة الصلة التي تحمل من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه لو عدل عنها إلى وسيلة أخرى، فالصلة «مفرد متضمن جملة». ولذلك يتسع لكثير من أحوال المعرف... وذلك بخلاف الضمير والعلمية والكنى، فإنها محددة جامدة في دلالة واحدة^(٢) وجملة الصلة هنا (تعرض وصله) صُدِّرت بفعل بنيته (تَفَعَّل) التي تحمل دلالتين: الأولى أنه بناء لما مضى، والثانية دلالة تكرير العين على وقوع الفعل على جهة المبالغة والتكرار.

وبذلك يكون معمول قد احتوى - بمقيداته - التسويغ الكافي لأمر الشاعر نفسه بقطع الصلة، كما أن هذا معمول بما اشتمل عليه من الموصول وصلته بنسجم مع السياق النصي السابق له؛ حيث تتحدث القصيدة في ذلك الجزء (١ - ١٩) عن رحيل نوار وتحول ديارها إلى أطلال بالية، وكأن التقيد للمعمول (من تعرض وصله) إجمال لذلك الجزء مما يعمل على الانسجام النصي لنقصيدة.

(١) لعل بعضنا يعلل اختيار الشاعر بالحفاظ على الوزن، ولم يعلم هؤلاء أن الشاعر الحق يستطيع أن يقلب القصيدة رأساً على عقب من أجل الوفاء بالمعنى؛ فالشاعر يحرك المعنى لا الوزن، بل إن الشاعر من أجل المعنى قد يلجأ إلى مخالفة في النحو أو الصرف، وذلك جائز للشاعر المقتدر دون غيره ممن يلجئهم الوزن إلى ذلك، ما دام الانحراف لمعنى فلا بأس به وإلا فلا.

(٢) خصائص التراكيب: د. محمد أبو موسى: ١٥٢.

أما معمول الفعل الثاني (احب) فقد جاء على بنية اسم الفاعل (المجامل)، واسم الفاعل «يدل على الحدث والحدوث وفاعله»^(١)؛ أما الحدث هنا (وهو المجاملة) فمستفاد من المادة المعجمية التي شغلت هذه البيعة، والمجامل هو المصانع «الذي لا ينطلق في وده من موقف واحد أو مشاعر ثابتة، فهو أقرب إلى من يصل حيناً ويقطع حيناً على المستوى العميق غير أنه - على المستوى الظاهري - يستر فترات الوقعة، ويعتمد إلى شيء من المجاملة الدالة على مراعاته مشاعر الطرف الآخر»^(٢)، وأما الحدوث فهو ما يقابل الثبوت^(٣).

لقد اتحدت بنية فعلي الأمر، واتحد فاعلهما (المسند إليه)، لكن اختلفا في الدلالة؛ ذلك الاختلاف إنما استفيد من اختلاف معمول كل منهما في البنية والمادة المعجمية، فبنية معمول الفعل الأول تدل على تكرار الحدث - الذي هو التعرض المستفاد من المادة المعجمية - في الماضي، أما بنية معمول الفعل الثاني فتدل على الحدوث المتجدد غير المقيّد بزمن، لذا كان الأمر بالقطع مع معمول الأول، وبالمحابة والاختصاص مع معمول الثاني مع أنه يدل على المصانعة، وكأن الشاعر يريد المتلقي أن يتساءل: إذا كان (المصانع) سيُخصَّصُ بالجزيل فما بال المواصل؟ أما الأبنية الدالة على المضي فقد جاء أول بناء منها على (تَفَعَّل)، ومُلئَ بمادة معجمية تدل على القطع، وأسند إلى كلمة (وصله)، وقد علمنا الدلالات وراء ذلك كله.

أما الفعلان الثاني والثالث (ظلمت - زاغ) فقد جاءا على بناء واحد وهو (فَعَّل)، وذلك لاشتراكهما فيما يلي:

(١) التصريح: ج ٢ ص ٦٥.

(٢) رؤى ونجارب: د. صلاح رزق: ص ٦٠، مكتبة النصر - جامعة القاهرة، ٢٠٠١ م.

(٣) انظر: التصريح: ج ٢ ص ٦٥.

١. أنها ملأ بهادتين معجميتين تدلان على الميلان والانحراف عن الوصل .

٢. أن الأول أسند إلى (ضمير الخلة) ، والثاني إلى (مضاف إلى ضمير الخلة) على سبيل المجاز ، هو (قوامها) .

٣. عطف الثاني على الأول ، والعطف كما يقول النحاة: «إشراك في الحكم»^(١) ، فالثاني يدخل في حيز الشرط الذي وقع فيه الأول ، ومن ثم فجواب الشرط ، وهو (بقاء الصرم) يقع بمجرد أن تميل (الخلة) أو يميل (عمادها) الذي تقوم به .

كما أننا نلاحظ أن الشاعر استخدم هذه البنية (فَعَلَّ) دون تضعيف للعين بخلاف بنية الفعل السابق (تَعَرَّضَ) ، وذلك مقصود من الشاعر وليس هباءً؛ إذ يتوازي مع مراد الشاعر من حيث :

١. المعنى : ففي الأول كرر العين ليدلنا على أنه لا يقطع وصل محبوبته إلا بعد أن يتأكد من تكرار قطعها له ، ووقوع ذلك القطع على جهة المبالغة . أما في الفعلين الآخرين فهو يقطع بمجرد أن يميل المجامل ، ولم لا فليس هو بالمواصل ، إنما هو مجامل ومصانع . فلم يختار هنا البنية التي تكررت بها العين لذلك السبب .

٢. سياق القطعة (الجزء) : في الأول هناك أمر بالقطع ، والأمر كما يقول سيبويه : «بناء لما يكون ولم يقع»^(٢) ، فهو يأمر نفسه أن تقطع ، فكان لابد من تبرير ذلك ، فجاء بالفعل (تَعَرَّضَ) بتكرار العين . أما الفعلان الآخران فقد جاءا في سياق الشرط؛ مما يوحي بتوازي القطع أو الوصل مع انحراف المجامل بقاءً وعدمًا ، ووقوعها (القطع أو الوصل) في نفس الزمن ، فلا حاجة إذن لتكرار العين .

(١) انظر: ارتشاف الضرب ، لأبي حيان: ج ٤ ص ١٩٨١ .

(٢) الكتاب : ج ١ ص ١٢ .

فمع الفعل الأول هناك قطع حدث من المواصل ثم أمر بقطع لم يحدث لكنه سيقع ، فالأمر هنا بعد وقوع القطع يقينا . أما مع الفعلين الآخرين فهناك اتحاد في الزمن ، ولم لا وقد حاباه وخصه بالجزيل - وهو المجامل - لكنه لم يحفظه .

أما على مستوى اختيار الشاعر لأبنية الأسماء - في هذا الجزء - فنختار منها صيغتي المبالغة (فَعَّال) و(فَعِيل) :

١. صيغة (فَعَّال) في قوله (صَرَّامها) :

لقد كان أمام الشاعر مجموعة من البدائل منها التعبير بصيغة الفعل ماضيه أو مضارعه (من صرمها - من يصرمها) لكنه يريد هنا التعميم في مطلق الزمن؛ لأن الجملة التي وقعت فيها هذه البنية بمثابة الحكمة ، والحكمة تقتضي التعميم دون التقيد بزمن دون آخر .

لكن على مستوى الأسماء كان أمام الشاعر مجموعة من الأبنية منها مثلاً بناء اسم الفاعل (صارمها) لكنه عدل عنه إلى (فَعَّال) لما تختص به من دلالات لا توجد في بنية اسم الفاعل ولا غيره ، وهي الدلالة على المبالغة . يقول أبو هلال العسكري : «إذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل فَعَّال مثل عَلَّام وصَبَّار»^(١) ، وهذا ما دفع الشاعر إلى اختيار هذه البنية دون غيرها للدلالة على أن من يقع منه القطع على جهة المبالغة أو وقتاً بعد وقت - على حد تعبير أبي هلال - حَقَّ بأن يوصف بأنه (شَرُّ واصل) .

ولكن لماذا لم يعبر الشاعر ببنية (فعول) ، فيقول (صرومها) ؟

ذلك لأن (فعول) « لمن كان قويا على الفعل »^(٢) . «أنشد ابن الأعرابي:

(١) الفروق اللغوية: ص ١٢ .

(٢) الفروق اللغوية: ص ١٢-١٣ .

صَرَمْتُ وَلَمْ تَصْرِمْ وَأَنْتَ صَرَوْمٌ * * * وَكَيْفَ تَصَابِي مَنْ يُقَالُ حَلِيمٌ
أي : وأنت قوي على الصرم^(١).

والشاعر - هنا - لا يريد ذلك المعنى؛ فما كان الشاعر ليصف من هو (قوي على الصرم) بأنه (شر واصل) إلا بعد أن يقع منه ذلك الصرم وقتا بعد وقت، وهذا لا يتحقق إلا ببنية (فَعَال) لا ببنية (فَعُول).

٢. صيغة (فعليل) في قوله (الجزيل) :

عبر الشاعر بصيغة (فعليل) ولم يعبر بـ (فَعِل)، ذلك لأن بناء (فَعِل) - كما يقول ابن طلحة - «هو لمن صار له كالعادة»^(٢)، والعادة أمر متغير غير ثابت؛ يؤيد ذلك أنه من أبنية الصفة المشبهة واستعير للمبالغة، والعرب - كما يقول سيبويه - «ما يبنون الأشياء إذا تقاربت على بناء واحد»^(٣)، وهو في الصفة المشبهة «يكون للأعراض من الوجع وما يجري مجراه... ومن الهيج كبطر وفريح»^(٤)، والمراد بالعرض هنا المعنى العارض للذات غير الراسخ أو المستقر فيها، والشاعر لا يريد - هنا - الكثير العارض، بل يريد الجزيل الثابت.

(١) اللسان، ابن منظور، صححه: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، مادة (صرم): ج ٤ ص ٣٣٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٣ م.
(٢) همع الهوامع، للسيوطي، تحقيق أحمد شمس الدين: ج ٣ ص ٥٩، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).
(٣) الكتاب: ج ٤ ص ١٢.
(٤) شرح الرضي على الشافعية: تصحيح وتعليق الشيخ عبد الرحمن خليفة: ص ٣٨، (مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م).

لذا عبر ببناء (فعليل) الذي يقول عنه ابن طلحة: «هو لمن صار له كالطبيعة»^(١)، والطبيعة أمر ثابت في النفس، ويؤيد ذلك أنه من أبنية الصفة المشبهة، واستعير للمبالغة أيضا، وهو في الصفة المشبهة - كما جاء في الصاحبي - «وتكون الصفات اللازمة للنفس على (فعليل) نحو: شريف وخفيف، وعلى أضدادها نحو: وضعيف وكبير وصغير»^(٢)، لذا فهو في المبالغة «يدل على معاناة الأمر وتكراره حتى أصبح كأنه خلقة في صاحبه وطبيعة فيه»^(٣).

فالشاعر - هنا - يدرك ما يقول جيدا، فهو :

أولا : يريدنا أن نتساءل : إذا كان هذا هو جزاء المصانع فما بال المواصل ؟!

ثانيا : يؤكد لنا باختياره هذه البنية بما شغلها من مادة معجمية - على موقفه من رحيل محبوبته المصر على قطعها؛ حيث إن عطاءه الجزيل للمجامل يجعلنا نتصور كيف كان عطاؤه لها حين وصلها، فحق أن يقطعها إذ قطعت ولم تحفظ عهده.

لقد تبين لنا مدى دقة الشاعر في اختيار أبنيته على مستوى جزء من أجزاء النص، فإذا ما تناولنا نصا كاملا غدا الأمر أكثر جلاءً وتأكد ما نرمي إليه، ولناخذ معلقة امرئ القيس مثالا يتبين لنا فيها مدى دقة امرئ القيس في اختيار أبنية المبالغة والصفة المشبهة.

(١) همع الهوامع للسيوطي: ج ٣ ص ٥٩.
(٢) الصاحبي لابن فارس: ص ١٩١-١٩٢.
(٣) معاني الأبنية: السامرائي: ص ١١٧.

(أ) والجدول التالي يبين توزيع أبنية المبالغة على أجزاء المعلقة :

السياق / البنية	فعليل	مفعّل	فَعُول	فَعَال
الجزء الأول (٦-١) مطلع النص	—	—	—	—
الجزء الثاني (٩-٧) استدعاء التجارب السابقة	—	—	—	—
الجزء الثالث (٤٣-١٠) الحديث عن المرأة	جِرَاص (جمع حريص) أثيث الحليم نصيح	-	نؤوم	-
الجزء الرابع (٤٨-٤٤) الحديث عن الليل	الطويل	-	-	-
الجزء الخامس (٦٦-٤٩) الحديث عن الفرس	درير ضليع	مَكْرَر مَقَرَر مِسَحَّ	—	جِيَّاش
الجزء السادس (٧٨-٦٧) الحديث عن البرق	—	—	—	—

(ب) والجدول التالي يبين توزيع أبنية الصفة المشبهة على أجزاء المعلقة :

السياق / البنية	فعلان - فعلى	أفعل - فعلاء	فَعَل	فَعِيل
الجزء الأول (٦-١) المطلع	—	—	—	—
الجزء الثاني (٩-٧) استدعاء التجارب السابقة	—	—	—	—
الجزء الثالث (٤٣-١٠) الحديث عن المرأة	رَيًّا (مؤنث رِيَّان)	بيضاء أسود ألوى	رخص غير شن	أسيل هضم لطيف
الجزء الرابع (٤٨-٤٤) الحديث عن الليل	—	صُمَّ (جمع أصم)	—	—
الجزء الخامس (٦٦-٤٩) الحديث عن الفرس	—	ليس بأعزل	قيد الأوابد	الخِفَّ = الخفيف العنيف
الجزء السادس (٧٨-٦٧) الحديث عن البرق	—	—	—	—

إذا نظرنا إلى الجدولين السابقين تبين لنا أن الجزء الأول والجزء الثاني خلا كل منهما تماما من أبنية المبالغة والصفة المشبهة ، كما أن الجزء السادس خلا منهما أيضا ، في حين تركزت أبنيتهما في الأجزاء التي تتحدث عن المرأة والليل والفرس في سياق وصف كل منهما .

وهذا يقودنا إلى القول بأن أبنية المبالغة والصفة المشبهة - غالبا - تستخدم في سياق الوصف لما تحمله هذه الأبنية من معان تناسب وصف أدق الأشياء الظاهرة والباطنة .

أما أكثر أبنية المبالغة ورودا في المعلقة فهو بناء (فعيل) حيث ورد سبع مرات ، وقد مرّ بنا أن بناء (فعيل) في المبالغة يدل على تكرار الأمر حتى كأنه طبيعة وخلق في صاحبه^(١) ، وذلك ما دفع الشاعر إلى استخدام هذا البناء في الحديث عن قوم محبوبته في قوله (حراسا)؛ ليبين إلى أي حد بلغ حرصهم على قتله ، ومدى معاناتهم من أجل ذلك ، غير أنه لا يُنتفى أن يجمع هذا البناء - في هذا السياق من المعلقة - بين المبالغة والصفة المشبهة ، ويكون المراد بيان مدى كثرة حرصهم على قتله ودوام هذا الحرص ، وقد قرر مثل هذا الشيخ يس العلمي من قبل فقال : «إن الفقير يحتمل أن يكون صيغة مبالغة أي كثير الفقر ، وأن يكون صفة مشبهة أي دائم الفقر»^(٢) .

أما في قوله (أثيث) فقد وفق الشاعر في اختيار هذا البناء الدال على كثرة الشعر ليتوافق مع السياق الذي ورد به؛ إذ ذكر الشاعر أن شعرها (يزين المتن ، أسود فاحم) والمتن هو الظاهر ، ولن يتحقق له أن يزين المتن إلا إذا كان كثيفا كثيرا ، ولن

(١) انظر: هـم الهوامع للسيوطي: ج ٣ ص ٥٩ ، والصاحبي لابن فارس: ص ١٩١ - ١٩٢ ، ومعاني الأبنية للسامرائي: ص ١١٧ .

(٢) حاشية الشيخ يس على التصريح: ج ١ ص ٣ .

يتحقق كونه فاحما إلا بذلك أيضا ، وبذلك تضافر هذا البناء مع السياق فاكتملت الصورة دون أدنى خلل فني في بنائها .

وأما اختياره هذا البناء في قوله (الحليم) ، فقد يراد به المبالغة أي كثير الحلم ، أو الصفة المشبهة أي دائم الحلم ، أو هما معا وهو الأفضل ، وهذا يتناسب مع السياق النصي ، فمن كانت بكل هذه الصفات حَقَّ أن يرنو إلى مثلها كل عاقل دائم الفطنة .

وأما في قوله (نصيح) فقد اختار هذا البناء ليثبت لمحبوبته إلى أي حد لم يرتدع ولم يثتن عن هواها ، برغم كثرة عدل الخصوم ولومهم إياه ، واختيار هذا البناء يتوافق مع سياقه أيضا؛ حيث استخدم الشاعر (رُبَّ) في قوله (رُبَّ خصم) الدالة على الكثرة ، ثم الإتيان بالصفة المشبهة (أفعل) في قوله (ألوى) والتي تدل على ثبات الصفة في الموصوف ، فشدة الخصومة ثابتة فيه ثم هو (غير مؤتلي) أي غير مقصر في عدله ، كل هذا ناسبه أن يأتي بصيغة (فعيل) دون غيرها من صيغ المبالغة .

ونجد أمراً القيس يستخدم هذا البناء مرة أخرى عندما يصف الليل بالطول ، وهذا يتوافق مع السياق النصي الذي ورد به ذلك البناء ، فهذا الليل كأن نجومه قد شدت إلى جنادل صماء بحبال قوية ، فهي لا تتحرك ، كما أنه أرخى ستور الهموم على الشاعر ، وهو ليل خرافي جائم بصدده على الشاعر ، إنه لا يكاد يتحرك . إن كل العناصر في هذا الجزء ترشح معنى (الطول) ، وقد خلا هذا الجزء من صيغ المبالغة إلا صيغة (فعيل) عند وصفه بالطول ، وكأن الشاعر بذلك يريد أن يثبت أن الشيء الوحيد الذي سيطر على هذا الليل هو (المبالغة في الطول)؛ وبذلك يتوافق البناء مع المادة المعجمية التي شغلته مع السياق النصي لهذا الجزء من القصيدة ، وعملت كل هذه العناصر على بناء صورة مخيفة لهذا الليل مؤكدة مدى طوله .

وفي سياق حديثه عن الفرس يستخدم الشاعر هذا البناء مرتين في قوله (درير - ضليع)، ولا يمتنع أن يجمع في الكلمة الأولى بين المبالغة والصفة المشبهة، فهو (درير) أي: كثير العدو والجري، ثم هو «يديمها ويواصلها ويتابعها»^(١)، أما في الكلمة الثانية (ضليع) فالمراد هو المبالغة، فالضليع هو «العظيم الأضلاع المنتفخ الجنين»^(٢)، وهذا توافق بين البنية الصرفية والدلالة المعجمية.

يلي بناء (فعليل) في كثرة ورود في المعلقة بناء (مفعّل) للمبالغة، حيث ورد ثلاث مرات كلها في سياق حديثه عن الفرس، وبالتحديد عند وصف سرعته فهو (مكر - مفر - مسح).

والأصل في (مفعّل) أنه للآلة ثم استعير للمبالغة عند إرادة المبالغة، بجعل الموصوف كأنه آلة في صفة معينة، والعرب - كما يقول سيبويه - «ما يبنون الأشياء إذا تقاربت على بناء واحد»^(٣)، ويقول الزوزني: «والمكر (مفعّل) من كر يكر، و(مفعّل) يتضمن مبالغة، كقولهم: فلان مسعر حرب وفلان مِقُول ومِصْقَع، وإنما جعلوه متضمنًا لمبالغة لأن (مفعلاً) قد يكون من أسماء الأدوات نحو المعول والمكتل والمخرز، فجعل كأنه أداة للكر وآلة لسعر الحرب وغير ذلك»^(٤)؛ فهذا الفرس كأنه آلة في الكر والفر والعدو المتتابع، وهذا يؤكد مدى قوة تلازم تلك الصفات لهذا الفرس حتى أصبحت كالعادة، ويؤكد ذلك السياق النصي الذي وردت به تلك الأبنية حيث يصفه

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني: ص ٣٣، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.

(٢) السابق، ص ٣٤.

(٣) الكتاب: ج ٤ ص ١٢.

(٤) شرح المعلقات السبع للزوزني: ص ٣٠، والمِصْقَع: البليغ يتفنن في مذاهب الكلام. والمِقُول: الكثير القول اللّسن.

في نهاية حديثه عنه بأنه: (لم ينضح بهاء فيُغسل) فقد أدرك صيده دون أدنى معاناة أو مشقة، وهذا يتوافق مع بناء (مفعّل) وعاء تلك الصفات.

ثم يلي هذين البنائين ورودا بناء (فَعُول) و (فَعَّال) حيث ورد كل منهما مرة واحدة في المعلقة.

أما بناء (فَعُول) فقد ورد في سياق حديثه عن المرأة عندما وصفها بأنها (نُؤُوم الضحى)، وهنا تحدث المفارقة حيث إن «نُؤُوم الغداة مَبْخَرَةٌ»^(١) - كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه - أي تؤدي إلى تغير رائحة الفم، وفي هذا ذم لها، لكن الشاعر أدرك ذلك جيدا فقرر في صدر البيت أنها:

وَتُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا * نُؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضُلٍ

وفي ذلك مبالغة واضحة، فإذا كان هذا هو شأنها عند انتظار النقيض تماما، فما بالنابها إذا كانت في موضع لا ينتظر فيه إلا أن تكون معطرة بالمسك؟! وبناء (فعول) - كما يقول أبو هلال - «لمن كان قويا على الفعل»^(٢)، وهذا يوحي بأنها قادرة على نوم الغداة ولا يستطيع أحد أن يحملها على الاستيقاظ مبكرا؛ فهي مترفة مُنْعَمَةٌ مخدومة (لم تنتطق عن تفضل).

لقد تضافر بناء (فعول) مع السياق الذي ورد به في بناء صورة مكتملة، فيها قدر كبير من المبالغة اللطيفة.

وأما صيغة (فَعَّال) فقد وردت في سياق حديثه عن الفرس بوصفه بأنه

(١) اللسان: لابن منظور، مادة (بخر): ج ١ ص ٣٣٠.

(*) تضحى: تصادف الضحى، لم تنتطق عن تفضل: أي لا تشد وسطها بنطاق بعد لبسها ثوب المهنة.

(٢) الفروق اللغوية: ص ١٢.

(على الذئب جياش)، و(فعّال) - كما قررنا من قبل - إنما يدل على فعل الفعل وقتا بعد وقت^(١)، وهذا المعنى المستفاد من البنية يتوافق مع المعنى المعجمي للمفردة التي شغلته، فالجيشان هو الغليان والهيجان، وهما يقتضيان فعل الفعل وقتا بعد وقت، كما أن السياق الذي وردت به هذه البنية يقتضي ذلك؛ فقد وصفه بذيول خَلْقِهِ وضمور بطنه مما قد يفهم معه الضعف، فكان لابد من هذا البناء لينتفي هذا الاحتمال، وليؤكد بذلك أنه لا تعارض بين هذه الصفات وبين القوة والنشاط، وأن هذه الصفات هي الباعث على ذلك الشئ ط، وتلك القوة في العدو.

أما أبنية الصفة المشبهة فقد احتل الصدارة بناء (أفعل فعلاء) وجمعها (فُعَل) حيث ورد خمس مرات في الكلمات التالية (بيضاء - أسود - ألوى - أمثل - صُم - ليس بأعزل) وهذا البناء يقول عنه الرضي: «وما كان من العيوب الظاهرة كالعَوَر والعَمَى ومن الحَيِّ كالسواد والبياض... أن يكون على (أفعل) ومؤنثه (فعلاء) وجمعها (فُعَل). فمن ثم قيل في عمى القلب عم لكونه باطنا، وفي عمى العين أعمى»^(٢)، كما أنه يكون في الأمور الثابتة^(٣).

أما (بيضاء وأسود) فهما من الألوان الظاهرة فجاء على (أفعل) لذلك، كما أن هذين الوصفين لما جاء على هذا البناء دلا على ثبوتها في الموصوف؛ فهي بيضاء، وشعرها أسود فاحم، وواضح ما بين اللفظين من تضاد، وإنما بضدها تتميز الأشياء،

(١) السابق: ص ١٢.

(٢) شرح الرضي على الشافية: ص ٣٨.

(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية: السامرائي: ص ٨١.

فشدة سواد شعرها يظهر مدى نقاء بياضها، كما أن بياضها يظهر مدى سواد شعرها، ويصدق عليه وصف الشاعر له بأنه (أسود فاحم). فلا يخفى إذن ما بين اللفظين من مناسبة على الرغم من أنه فُصِّلَ بينهما بثلاثة أبيات، إلا أن كل لفظ منهما يستدعي الآخر ويعمل على تماسك أجزاء القطعة أو الجزء الذي وردا فيه.

أما قوله (ألوى) فقد جاء في سياق حديثه عن العاذلين الذين يلومونه في حبها، عندما قال:

أَلَا رَبِّ خَصْمٍ فِيكَ أَلْوَى رَدَدْتُهُ * نَصِيحٍ عَلَى تَعْدَالِهِ غَيْرِ مُؤْتَلٍ^(*)

و(الألوى) هو الشديد الخصومة، وقد جاء على بناء (أفعل) ليدل على دلالتين: الأولى: ثبات تلك الصفة في هذا الخصم، فهو شديد الخصومة دائم اللوم، والثانية: أن خصومته الباطنة ترجحها إلى أفعال ظاهرة يكاد يلمسها الشاعر بيديه ويبصرها بعينه، وإنما استفيدت تلك الدلالة من دلالة (أفعل) على الثبات في العيوب الظاهرة، وفي هذا ما فيه من شدة المبالغة، وقد تضافر هذا البناء مع بناء (فعليل) في قوله (نصيح) - كما أسلفنا - فعَمِلًا على بناء صورة متكاملة تبين مدى إصرار هذا الخصم، وحرصه على عدل الشاعر ولومه.

أما قوله (صُم) فقد جاء بصيغة الجمع، فليست هي صخرة واحدة صماء، بل هي صخور صم، صلابتها ظاهرة تبصرها العين ثابتة ثبات الليل، فالشاعر اختار هذا البناء - هنا - ليعمق دلالاتي (الظهور والثبات) المسيطرتين على ذلك الجزء من القصيدة الذي يصف فيه طول الليل، فظلمة الليل ظاهرة أحاطت بكل شيء، وهو

(*) (الألوى: الشديد الخصومة، النصيح: الناصح، التعذال: اللوم، مؤتل: مقصر.

ثابت لا يتحرك؛ فالشاعر لا يرى حوله سوى أنواع من الهموم الثابتة الجاثمة على صدره .

كما أن الإتيان بهذا البناء على صيغة الجمع تتناسب مع جموع الهم المختلفة المتمثلة في (سدول الظلام ، أنواع الهموم ، أردف أعجازا، كأن نجومه، بأمراس كتان ، صم جندل) والتي يقابلها ذات الشاعر المفردة (علي) وسط تلك الجموع الجاثمة .

ففي الإتيان بهذا البناء دون غيره - بدلالته على الثبات في الأمور الظاهرة - جمعا، كل أولئك عمل على تماسك أجزاء القطعة أو الجزء الذي ورد فيه تماسكا محكمًا، وأدى دوره في بناء صورة فنية مكتملة لذلك الليل الطويل الجاثم على صدر الشاعر .

أما الإتيان ببناء (أفعل) في قوله (ليس بأعزل) فواضح أنه يناسب هذه الصفة الظاهرة ، وهي استواء عظم ذنبه؛ فالدلالة المعجمية مع بنائها عملت على تعميق ذلك المعنى ، غير أن هذه الصفة الظاهرة ليست مقصورة لذاتها بل لما توحى به من صفة باطنة هي العتق والكرم^(١) .

أما البناء الثاني من أبنية الصفة المشبهة فهو بناء (فعليل) وقد ورد خمس مرات: (أسيل - هضيم - لطيف) في سياق وصفه محبوبته ، ثم (الخف: أي : الخفيف - العنيف) في سياق حديثه عن قوة اندفاع فرسه .

وبناء (فعليل) يدل على الصفات اللازمة للنفوس - كما قررنا ذلك من قبل^(٢) - وهذا يتناسب مع وصف الخلد بأنه (أسيل) حيث الأسئلة تعني الامتداد والطول ،

(١) قال الزوزني: «واستواء عسيب ذنبه من دلائل العتق والكرم» ، انظر: شرح المعلقات السبع: ص ٣٤ .

(٢) انظر: الصاحبي ، لابن فارس : ص ١٩١-١٩٢ .

وهي من الصفات اللازمة للموصوف . أما في قوله : (وكشح لطيف) ففي هذا الاختيار دلالة على أن دقة الكشف من الصفات اللازمة لها ، فليست صفة حادثة فيها بل هي لازمة لها على جهة الثبوت، وفي ذلك إيحاء بدوام الجمال مهما تقدمت في السن . ولتأكيد هذا المعنى كرر الشاعر البنية الصرفية في قوله (هضيم الكشف) وصفا للكشح مرة أخرى بالصفة نفسها .

أما في سياق حديثه عن الفرس ، فقد وصفه في قوة اندفاعه بأنه :

يُزِلُّ الْغُلَامَ الْخَفَّ عَنْ صَهْوَاتِهِ ** وَيُلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ^(١)

فالخف جاء على (فعل) وهو يحمل معنى بناء (فعليل) ، يؤيد ذلك الإتيان بالعنيف على (فعليل) لتكتمل بذلك عناصر الصورة ، وتتناسق أجزاء البيت؛ لأن السياق يعمق هذا المعنى (أعني قوة الاندفاع وسرعة العدو) فهذا الفرس :

مَكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعًا ** كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عُلٍ

ثم هو :

عَلَى الذَّبَلِ جَيَّاشٌ كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ ** إِذَا جَاشَ فِيهِ خَيْئُهُ غُلِي مَرْجَلٍ

مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى ** أَكْثَرْنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ^(٢)

فكان لابد إذن أن يزل الغلام الخفيف عن صهواته ، وأن يلوي بأثواب العنيف المثلث .

(*) الخف : الخفيف ، الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس ، يلوي : يرمي ويذهب به .
(**) الجلمود : الحجر العظيم الصلب ، حطه : ألقاه من أعلى إلى أسفل . الذبل : الضمور ، جياش : مبالغته من جاشت القدر إذا غلت ، الاهتزام : التكرس ، الحنفي : حرارة القيظ وغيره ، المرجل : القدر ، مسح : يصب الجري والعدو صبا بعد صب ، السابح : الذي يمد يديه في عدوه ، الونى : الفتور ، الكديد : الأرض الصلبة ، المركل : المدفوع بالأرجل المضروب بها .

ولا يخفى مدى التوفيق في اختيار هذا البناء (فعل) صراحة عند الحديث عن العنيف؛ للدلالة على أن قوته وفروسيته ظاهرة للعين في عضلات مفتولة، وغيرها من الصفات الظاهرة للفارس القوي الماهر، وعلى الرغم من ذلك يلوي بأثوابه.

وإنما لم يُنصَّ على هذا البناء صراحة عند الحديث عن صفة الخفة، ولجأ الشاعر إلى تضمين بناء آخر معناه؛ لأن الخفيف قد يُطير الجواد السريع وغيره لأن خفته هي السبب، فقد لا يكون الفرس قويا سريعا ويطيره لذلك، ودفعنا لهذا الاحتمال جمع الشاعر بين الخفيف والثقيل في صورة واحدة وجاء بالثقيل - صراحة - على بناء (فعل)، ليؤكد سرعة ذلك الفرس وقوته.

أما البناء الثالث من أبنية الصفة المشبهة فهو بناء (فعل)، وهو بناء من الأبنية السماعية التي تدل على ثبات الصفة للموصوف، وقد ورد ثلاث مرات؛ مرتين منها في سياق وصفه للمرأة (رخص - غير شثن)، ومرة في حديثه عن فرسه (قيد الأوابد). والصفتان اللتان وصف بهما محبوبته وردتا في وصفه بنائها بأنه (رخص) أي لين ناعم، (غير شثن) أي ليس غليظا كزأ، ولا يخفى ما في تأكيد الصفة الأولى بسلب الصفة الثانية، والإتيان بهذا البناء في هذا الموضع دون غيره من مواضع وصف محبوبته، إنما هو لتأكيد ثبات تلك الصفة فيها.

وفي حديثه عن فرسه وصفه بأنه (قيد الأوابد) ليدل على ثبات هذه الصفة لفرسه، وأنها صفة ملازمة له وليست عارضة؛ فهو دائم التقيد للوحوش بسرعة لحاقه بها.

أما الصفة الأخيرة من الصفات المشبهة فقد جاءت على بناء (فعل مؤنث فعلا) وذلك مرة واحدة في وصفه محبوبته بقوله:

..... ** هَضِيمَ الكَشْحِ رَيًّا الْمُحْلَخِلِ

وعن هذا البناء يقول الرضي: «ما كان من الامتلاء... والشبع ومن حرارة الباطن... أن يكون على (فعلان)»^(١)، وهذه الدلالة على الامتلاء تتوافق مع المعنى المعجمي للمفردة التي شغلته؛ فالمراد امتلاء ساقها، وهو ما تحمده العرب في المرأة، وقد عبّر عن ذلك بـ (الرّي) لما في الرّي من الامتلاء.

لقد تبين مما سبق أن الشاعر يلجأ كثيرا إلى أبنية المبالغة والصفة المشبهة عندما يتتبع شيئا ما بالوصف الدقيق؛ ذلك لما تحمله هذه الأبنية من دلالات دقيقة لا تتحقق في غيرها من الأبنية.

واتضح أيضا أن الشاعر يختار من الأبنية ما يتوافق مع السياق الذي ترد فيه سواء أكان سياقاً مجالياً أم سياقاً نصياً، ثم تتضافر كل هذه الوسائل لبناء صورة فنية محكمة.

غير أن هذه المعاني التي تحملها الصيغ الصرفية ليست إلا جرثومة من معنى الجملة الذي تتضافر عدة معانٍ تعمل على الوصول إليه؛ منها - إلى جانب معنى البنية الصرفية - معاني الصيغ النحوية ومعاني الحروف الرابطة ثم المعنى الأولي (المعجمي) للمفردات.

ثم إن معاني الجمل المترابطة داخل السياق النصي تعمل على بناء المعنى الأكبر للنص (المعنى النصي) الذي يختلف من متلقٍ لآخر حسب إمكانياته الثقافية ووسائله

(١) شرح الرضي على الشافية: ص ٣٨، وانظر: التصريح: ج ٢ ص ٧٨.

التي يتناول بها النص ، وكلما كان الدخول إلى عالم النص معتمدا على لغته كانت النتائج أقرب إلى الدقة والصدق .

٢. الرافد الثاني : معاني الصيغ النحوية :

المقصود بالصيغ النحوية طرق بناء الجملة (اسمية كانت أم فعلية) ، والجملة في أبسط صورها تتكون من اسمين أو اسم وفعل ، و«اختيار التعبير بالفعل مطلقا ، واختيار الأفعال الماضية أو المضارعة أو المبنية للمعلوم أو المبنية للمجهول ، أو اختيار التعبير بالجملة الاسمية واختيار الضمائر أو غيرها من الوظائف النحوية داخل كل جملة - عند الكشف والتحليل - كل هذا يعمل على تشكيل العمل الفني ، وإن بدا كل ذلك عفويا غير مقصود إليه»^(١) .

والشاعر قد يطلق عنصرى الإسناد فتأتي الجملة بسيطة قصيرة ، وقد يقيد أحدهما ، أو كليهما فتطول الجملة وتتعدد ، وعندئذ تدور العناصر غير الإسنادية في فلك أحد عنصرى الإسناد «ولا بد - لذلك - أن تترابط مع ما تدور في فلكه ، وتكون علاقتها بأجزاء الجملة الأخرى من خلال علاقاتها النحوية بما ترتبط به ، إذ إن العنصر غير الإسنادي قيد لما يرتبط به»^(٢) ، ويكثر ذلك في شعر المعلقات ، فتطول الجملة طولا عظيما عن طريق تقييد أحد عنصرى الإسناد حتى لتبلغ - في بعض الأحيان - أكثر من عشرين بيتا .

(١) اللغة وبناء الشعر: د. محمد حماسة: ص ١٠٢ .

(٢) بناء الجملة العربية: د. محمد حماسة: ص ١١١ .

إن العنصر الفعلي في الجملة قد يقيد بالجار والمجرور ، أو بالمفعول به ، أو المفعول المطلق ، أو الظرف (المفعول فيه) ، أو المفعول معه ، أو المفعول له ، أو بما هو منزل من الفعل منزلة المفعول؛ وذلك في الحال وتمييز النسبة والمستثنى المنصوب^(١) .

ولننظر إلى هذا الجزء من معلقة امرئ القيس :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا * * * بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
مَكْرٌ مَفَرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا * * * كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ * * * كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُنْتَزِلِ
عَلَى الذَّبْلِ جَيَّاشٌ كَأَنَّ أَهْتِرَامَهُ * * * إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَّةٌ غَلِيٌّ مَرَجَلِ
مَسَحَّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى * * * أَثَرْنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ
يُزِلُّ الْغُلَامَ الْخَفَّ عَنْ صَهَوَاتِهِ * * * وَيُلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ
دَرِيرٌ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ * * * تَتَابَعُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ
لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ * * * وَإِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْفُلِ
ضَلِيلٍ إِذَا اسْتَدْبَرَتْهُ سَدَّ فَرْجَهُ * * * بِضَافٍ فَوَيْقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعَزَلِ
كَأَنَّ عَلَى الْمُتَنِينَ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى * * * مَدَاكَ عُرُوسٍ أَوْ صَلَاةٍ حَنْظَلِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ * * * عُصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ (*)

(١) انظر: الدلائل: ص ١٣ ، وبناء الجملة العربية: ص ٥٠-٥٣ ، وخصائص التراكيب: لمحمد أبو موسى: ص ٢٥٣ .

إن الجملة الرئيسة هي قوله (وقد أغتدي)، لكن هذه الجملة قد طالت عن طريق تقييد العنصر الفعلي بجملة الحال (والطير في وكناتها)، والحال - كما يقال - «لا بد من تجديد فائدة عند ذكرها، كقيلهم: عبد الله عندك قائما، لأنه ليس في (عندك) ما يدل على القيام»^(١)، وكذلك ليس في (أغتدي) ما يدل على أن الغدو كان في الصباح الباكر (والطير في وكناتها)؛ فالغدو ليس على إطلاقه بل هو غدو في الصباح الباكر والطير على تلك الحال، فالتقييد هو المقصود بالحكم نفيا وإثباتا. إنه إصرار على تجاوز الهموم يفوق نشاط الطير، وانطلاق يفوق انطلاقها.

والتقييد بجملة الحال - هنا - يتفق مع السياق النصي للقصيدة؛ إذ إن الجزء السابق على هذا الجزء يتحدث عن الليل الذي خاطبه الشاعر بقوله:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي * * * بَصُحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلٍ

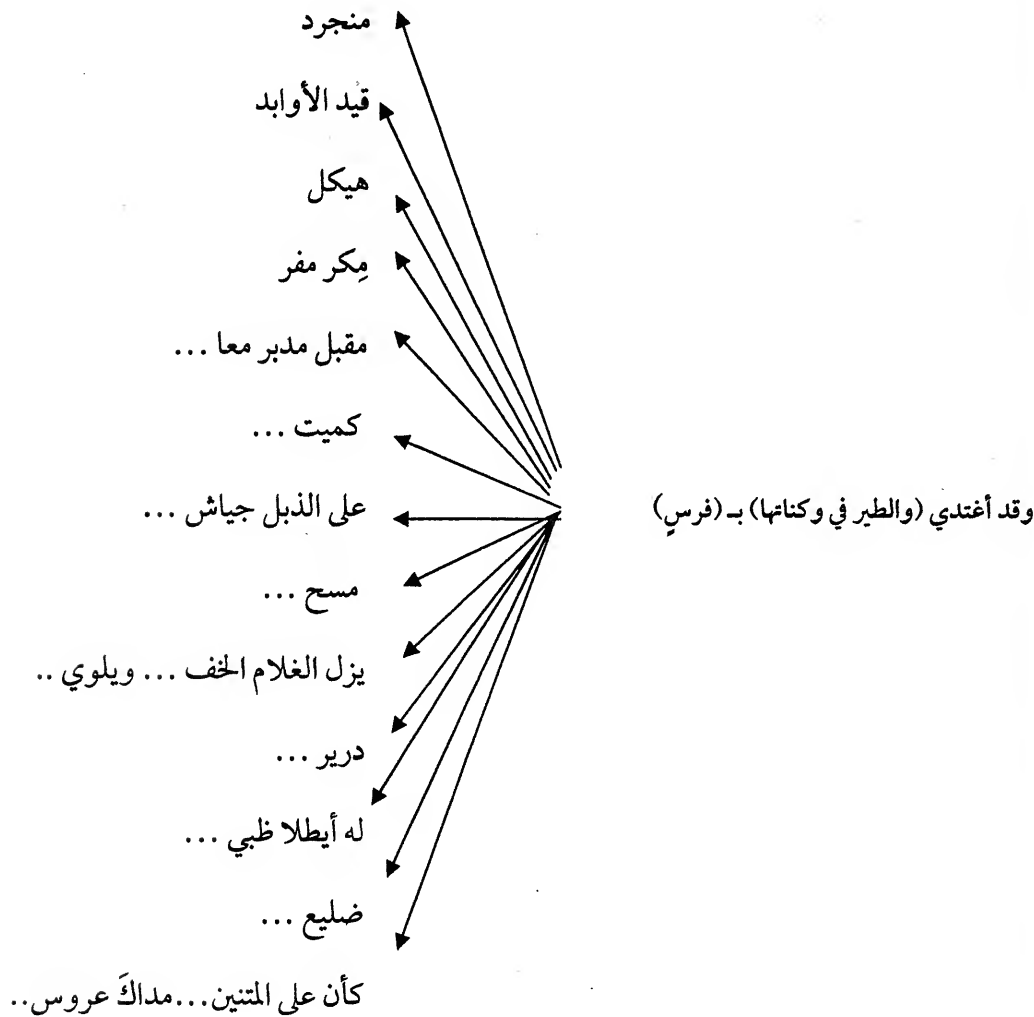
فناسب ذلك أن يبدأ الجزء الذي معنا وقد تغلب الشاعر على همومه في ذلك الصباح الباكر (والطير في وكناتها)، وفي ذلك دلالة واضحة على الانسجام النصي لأجزاء معلقة امرئ القيس.

لكن الطول الحقيقي كان عن طريق تقييد العنصر الفعلي بالقييد الثاني (الجار والمجرور) ثم عن طريق تعدد النعوت لدخول حرف الجر المحذوف للعلم به، وهو

(١) ارتشاف الضرب: لأبي حيان: ج ٣ ص ١٦٠٠.

(الفرس)، «ويجوز بكثرة حذف المنعوت إن علم... وحيث حذف الموصوف أقيمت الصفة مقامه لكونها صالحة لمباشرة ما كان المنعوت مباشره»^(١).

ويمكن تمثيل هذه الجملة كما يلي:



(١) التصريح: ج ٢ ص ١١٨

فكل هذه الصفات التي شغلت أحد عشر بيتا ترتبط بالجار والمجرور المحذوف - كما يتضح من التمثيل السابق - وهما يرتبطان بدورهما بالعنصر الفعلي من عنصري الإسناد ، وتمضي الجمل على هذه الطريقة مترابطة متتالية في جملة كبرى عن طريق هذا التقييد .

وهذه الجملة الطويلة بمقيداتها تعطي معنى نحويا دلاليا واحدا مترابطا متماسكا ، وليس عدة معان ، أو - على حد تعبير عبد القاهر الجرجاني - «إنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم ، هو معنى واحد لا عدة معان ، كما يتوهمه الناس . وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها ، وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل ... وبين ما عمل فيه ، والأحكام التي هي محمول التعلق»^(١) .

والملاحظ أن الجملة تطول عن طريق هذا التقييد عندما ينتقل الشاعر الجاهلي إلى وصف فرسه أو ناقته ، وتلك الإطالة في الوصف مناسبة - في ذلك الموضع - إذ الفرس أو الناقة وسيلة الشاعر الوحيدة التي يستعين بها للخلاص من همومه وأحزانه ، بعدما تفشل كل الوسائل الأخرى ، مهما أوتيت من صفات . فالإطالة تعطي أكبر مساحة لاستقصاء وصف هذه الوسيلة بكل الصفات التي تؤهلها للقيام بهذا الدور الجليل .

وقد يقيد العنصر الفعلي بالمستثنى المنصوب ، والمستثنى هو «المُخْرَجُ تحقيقاً أو تقديراً من مذكور أو متروك أو ما في معناه بشرط الفائدة»^(٢) ، لكن الشاعر المقتدر لا

(١) الدلائل: ص ٤١٣ .

(٢) التصريح: ج ١ ص ٣٤٦ .

يقف عند حدود تحقق الفائدة ، بل يتعدى ذلك إلى ما وراءها من دلالات بلاغية كامنة . وقد وفق طرفة في استخدام الاستثناء استخداما ملائماً في قوله :

وَتَبَسُّمُ عَنْ أَلْمَى كَانَ مُنَوَّرًا ** تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دَغَصٌ لَهُ نَدِ
سَقَتُهُ إِيَّاءُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتِهِ ** أَسِفٌ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِأَمِيدِ

حيث استثنى اللثات من أن يؤثر فيها شعاع الشمس ، وذلك لما في هذا الاستثناء من دلالات منها :

١. أن اللثات لا يستحب بريقتها^(١) .

٢. العرب تمدح سمرة اللثة لأنها تبين بياض الأسنان^(٢) ، وفي ذلك «تأكيد على المغايرة بين المتجاورين مغايرة تزيد كلا منهما جمالا في بابه»^(٣) .

والشاعر يلجأ إلى تقييد العنصر الفعلي في الجملة بما يدل على التعليل ، عندما يريد بيان السبب الدافع إلى الحدث الذي يتضمنه ذلك الفعل أو التعليل لهذا الحدث . والتعليل قد يكون بالمصدر المنصوب مفعولا لأجله ، أو بالفعل المضارع المسبوق بحرف من الحروف الدالة على التعليل ، غير أن «التعبير باللام يختلف دلاليا عن التعبير بالمصدر المنصوب ... فالتعبير بالمصدر منصوبا لا يكون إلا حيث يراد التعبير عن معنى العلة مجردا من أية ظلال دلالية أخرى ، سوى التأكيد على جانب

(١) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ص ٤٨

(٢) انظر: شرح القصائد العشر ، للتبريزي ، تحقيق: د. فخر الدين قباوة: ص ١٠٠ (دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .

(٣) في الشعر الجاهلي - دراسات نصية في المعلقات: د. صلاح رزق: ص ١٣٨ ، (مكتبة النصر ، حرم جامعة القاهرة ١٩٩٩ م) .

الحدث المفاد من المصدر مجرداً^(١)، أما اللام فتوفر «لمدخولها نوعاً من التوكيد والتخصيص»^(٢)، ولعل ذلك ما دفع عنتره إلى اختيارها مع الفعل المضارع (لأقضي) في قوله:

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا ** فَدَنْ لَأَقْضِيَ حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ

فالوقوف هنا لغاية مخصوصة، وليس وقوفاً لمجرد الوقوف.

وإذا ما قارنا بين قول عنتره السابق وبين قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْلِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى يَنْزِلُ الدَّخُولِ فَخَوْمَلٍ

لوجدنا أن الأمر يختلف مع أن كلا الشاعرين قيد العنصر الفعلي في الجملة بما يدل على التعليل، إلا أنه لما اختلف الحرف اختلفت الدلالة؛ فامرؤ القيس استخدم (من) في قوله (من ذكرى حبيب ومنزل)، فذكرى الحبيب وما عطف عليها (منزل) هما سبب البكاء، و(من) معناها الأساسي ابتداء الغاية في المكان^(٣)، وإذا وقفنا على السياق الذي ترد فيه دالة على التعليل تبين لنا أنها لا تستعمل إلا في سياق التعبير عن التعليل بالسبب، وهو ما اقترن فيه العنصر التعليلي بمعطيات لغوية سابقة زمنياً على الفعل المعلل، وفي ذلك اتساق منطقي مع المعنى الذي تؤديه (من)، إذ لا يتحقق تصور التعليل بالسبب مع معنى الابتداء إلا بتوفر هذا المعنى الدلالي، فابتداء الغاية لا تتحقق إلا بتوفر معطى لغوي موجود بالفعل، لا مترقب حدوثه^(٤)، فذكرى الحبيب والمنزل موجودان قبلاً، وإنما كان الوقوف والبكاء بسببها.

(١) المكونات التركيبية والدلالية لظاهرة التعليل في العربية، د. طه الجندي: ص ١٨ (مجلة دار العلوم ع ٢٧).

(٢) السابق: ص ٣٢.

(*) الفدن: القصر، المتلوم: المتمكث الجازع من فراق المحبوبة.

(٣) انظر: الارتشاف: ج ٤ ص ١٧١٨.

(٤) المكونات التركيبية والدلالية لظاهرة التعليل: ص ٣٨.

أما في بيت عنتره فالأمر يختلف إذ إن قضاء حاجة المتلوم (الشاعر) تابع للوقوف، ولا حق له، ومرتّب عليه؛ فهو غاية. وذلك إنما استفيد من (اللام) لأن مدخولها - في غالب الأحوال - «لاحق للفعل المعلل قبلها زمنياً، أي أن سياقها يظهر أن الفاعل للفعل المعلل كان ينوي العلة في ذهنه، ويفكر فيها قبل الإقدام على الفعل، ولذا سموه تعليلًا بالغاية»^(١)، في حين أن التعليل بـ (من) «تعليل للحدث بمعطيات سابقة له زمنياً، ويمكن تسميته تعليلًا بالسبب أو ما سموه بالعلة الفاعلة»^(٢).

وكما يقيد الشاعر العنصر الفعلي في الجملة يقيد أيضاً العنصر الاسمي بالإضافة أو الإتياع أو تمييز المفرد. أو يأتي به مطلقاً أي نكرة غير متبعة، ولا مميزة. وعندما تكون الكلمة وحدها «تصلح للدخول في علاقات نحوية ودلالية معينة؛ لأنها تكون - والحالة هذه - من مجال معين، ولكنها عندما تقيد أي ضرب من التقييد تدخل بتقييدها في مجال أو حقل مختلف عن الأول، وبذلك تكون صالحة للدخول في علاقات نحوية ودلالية جديدة، ولا يصدق عليها كل ما يصدق عليها وهي مفردة»^(٣)، فقد ينقلها التقييد من مستوى الحقيقة اللغوية إلى مستوى المجاز - كما في المثال الذي قدمه سيبويه: (شربت ماء البحر) إذ كان تقييد كلمة (ماء) بالإضافة إلى كلمة (البحر) سبباً في انتقالها من مستوى الحقيقة (المستقيم الحسن) إلى مستوى المجاز (المستقيم الكذب).

(١) السابق: ص ١٤.

(٢) المكونات التركيبية والدلالية لظاهرة التعليل: ص ١٤.

(٣) النحو والدلالة: ص ٧٩.

وقد عقد ابن فارس باباً أسماه (باب الخطاب المطلق والمقيد) قال فيه : «أما الإطلاق : فإن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة ولا شرط ولا زمان ولا عدد ولا شيء يشبه ذلك . والتقيد : أن يذكر بقرين من بعض ما ذكرناه ، فيكون ذلك القرين زائداً في المعنى . من ذلك أن يقول القائل : (زيد ليث) فهذا إنما شبهه بليث في شجاعته ، فإذا قال : (هو كالليث الحرب) فقد زاد (الحرب) وهو الغضبان الذي حُرِبَ فريسته ، أي : سُلِبَها ، فإذا كان كذلك كان أدهى له . ومن المطلق قوله :

تَرَاثَبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنَجَلِ

فشبه صدرها بالمرآة ، لم يزد على هذا ... » (١) .

فأي قيد إنما يؤتى به لمعنى زائد يراد ببيانه ، فـ (ليث) مطلقة ، أما (ليث حرب) فمقيدة بالنعته ، فزاد المعنى فكان - كما يقول ابن فارس - (أدهى له) ، وقد مر بنا كيف أن النعت كان سبباً في إطالة الجملة حتى بلغت أحد عشر بيتاً في معلقة امرئ القيس . ولا تكاد تخلو معلقة من جملة طويلة طالبت بسبب النعوت المتعددة للموصوف ، «فَرُبَّ اسْمٍ لَا يَحْسُنُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمُ السُّكُوتُ حَتَّى يَصِفُوهُ ، وَحَتَّى يَصِيرَ وَصْفُهُ عِنْدَهُمْ كَأَنَّهُ بِهِ يَتِمُّ الْاسْمُ» (٢) ، والنعت - في القصيدة القديمة - عندما يتنوع ويتعدد ويتداخل ، يؤدي إلى أمرين : طول الجملة وتعقيدها ، وتركيب صورة متماسكة من صور القصيدة (٣)

(١) الصاحبي : ص ٣١٦ .

(٢) الكتاب : ج ٢ ص ١٠٦ .

(٣) انظر : الجملة في الشعر العربي ، د. محمد حماسة : ص ٨٢ .

يتأكد ذلك الكلام بما قاله ابن فارس في (باب الاستطراد) (١) ، حيث ذكر أن الشاعر يشبه شيئاً بشيء ثم يمر في وصف المشبه ؛ كأن يشبه ناقته بثور ثم يمضي في وصف الثور ، ثم ينقل الشبه إلى حمار فيمضي في وصف العير .
والناظر في الجزء الذي وصف فيه لبيد ناقته يجده يبدأ وصفها مبيناً سرعتها وخلقتها :

فَأَقْطَعَ لُبَانَةً مِّنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ * *

بِطَلِيحٍ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةً * * مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَائِمُهَا * *

ثم يصورها في صورة أتان هاربة من فحل يطاردها ، فيمضي في وصف الأتان والفحل :

أَوْ مُلْمَعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ لَاحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا * *

ثم يريد أن يزيد السامع بيانا عن سرعتها فيورد لها صورة أخرى ، فيصورها في صورة بقرة وحشية مذعورة ، ثم يمضي في وصف البقرة :

أَفْتَلَكَ أُمٌّ وَخَشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَّةٌ الصَّوَارِ قِوَامُهَا * *

ثم يعود بعد ثلاثين بيتاً ليدكرنا أن حديثه كان عن ناقته ، وأن الأتان والبقرة الوحشية ما هما إلا صورتان لهذه الناقة في سرعتها ، إذ يقول في النهاية :

فَتَيْلَكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ فِي الضُّحَى * * وَاجْتَابَ أُرْدِيَّةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا

أَقْضَى اللَّبَانَةَ * * (٢) * * (٣) * * (٤) * *

(١) انظر : الصاحبي : ص ٤٥٧ .

(*) أحنق : ضَمَّرَ .

(**) ملمع : الأتان أشرقت أطباؤها باللبن ، وسقت : حملت ، الأحقب : العير الذي في وركيه بياض ، لاحه : غيَّره مطاردة الفحول وضربها وعضها .

(***) مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ، الهادية : المتقدمة ، الصوار : القطيع من بقر الوحش ، قوامها : ما يقوم به الشيء ، وفي ذلك ما يعمل على زيادة سرعتها .

(****) اللوامع : لوامع السراب ، اجتتاب : لبس ، واجتَابَ أُرْدِيَّةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا : كناية عن احتدام الهواجر .

فباسم الإشارة (تلك) تجتمع كل هذه الصور في بناء الصورة الكبرى (صورة الناقة) التي يعتمد عليها في قطع اللبنة ، فليس الحديث عن فعل حقيقي أو بقرة وحشية حقيقية ، ولكنها صور جزئية تعمل على بناء الصورة الكلية ، ثم يأتي اسم الإشارة في النهاية ليحيل المتلقي إلى الناقة قبل ثلاثين بيتا ، وليشير من طرف خفي إلى أن كل هذه الصور ليست متنافرة متدابرة ، بل منسجمة متسقة عملت على تماسك أجزاء القطعة تماسكا محكما ، عن طريق النعوت المتعددة لذلك النعوت المحذوف (الناقة) المفهوم من السياق .

والشاعر قد يأتي بالاسم مطلقا دون تقييد ، وذلك بأن يأتي نكرة كما في قول الحارث بن حلزة :

فَجَبَّهْنَاهُمْ بِضَرْبٍ كَمَا يَنْحُ ** رُجٌّ مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءِ^(*)

فجاء بكلمة (ضرب) نكرة مطلقة لإفادة الإبهام والإطلاق دون تحديد . والتنكير قد يفيد بجانب ذلك معنى التعظيم أو التحقير أو التنكير أو التعليل أو التهويل ... وعندئذ يأتي دور السياق إذ يرجح أحد تلك المعاني ، وينفي ما عداها .

والسياق هنا يرجح الدلالة على التهويل وكثرة الضرب؛ إذ شبه خروج الدم من الجرح بخروج الماء من فم المزادة (القرية) ، ويقوي ذلك قوله بعد هذا البيت :

وَقَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ ** لَهُ وَمَا إِنَّ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءَ

وقد يقيد الاسم بالتعريف ، وعندما يُعرَّف المسند فقد يفيد « قصر المسند على المسند إليه بقصد المبالغة »^(١) ، مثال ذلك قول عمرو بن كلثوم :

(*) خُرْبَةُ الْمَزَادِ : فم القرية .

(١) خصائص التراكيب: د. محمد أبو موسى : ص ٢٤٠ .

وَنَحْنُ الْحَاسُونَ بِذِي أَرَاطَى ** تَسْفُ الْحِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا
وَنَحْنُ الْحَاكِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ** وَنَحْنُ الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَنَحْنُ النَّارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا ** وَنَحْنُ الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا (**)

ثم يقول :

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدَّ ** إِذَا قُبِّ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا
بِأَنَا الْمُطْعُمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ** وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتَلِينَا
وَأَنَا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا ** وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وَأَنَا النَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا ** وَأَنَا الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا
وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ** وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

فعمر بن كلثوم - هنا - يصر على تعريف المسند ، كما يأتي به على وزن اسم الفاعل ، ويكرر المسند إليه بصيغة الجمع (نحن - أنا) مستأنفا كل هذا ليؤكد قصر المسند على المسند إليه ، أي قصر الحبس والترك والإهلاك والإطعام والمنع - إلى غير ذلك - عليهم وحدهم دون غيرهم ، كل هذا على جهة المبالغة والتهويل . وذلك يتناسب مع موقف الفخر الذي يقفه الشاعر ، وكأنه يريد باختصاصهم بذلك كله أن يسلبه من خصومه (بني بكر) ، إن لم يكن من الناس طرأ .

وهكذا تضافرت الصيغة الصرفية المتكررة ، مع الدلالة المعجمية للمفردات التي شغلتها ، مع تعريف المسند - في أداء المعنى النحوي الدلالي المراد من هذا الجزء ، وهو قصر المسند على المسند إليه لقصد المبالغة .

أما على مستوى الجملة فقد يأتي الشاعر بجملة مطلقة أو مُقيّدة ، كل ذلك تبعاً للمعنى الذي يريده؛ ذلك لأنه «إذا تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى»^(١).

فالشاعر قد يأتي بالجملة الاسمية خالية تماماً من العنصر الفعلي مطلقة خالية من أي قيد - عندما يريد التعبير عن حقيقة ثابتة لا خلاف عليها بين المتلقين مهما اختلفوا؛ لأن الجملة الاسمية المطلقة «موضوعة للإخبار بثبوت المسند للمسند إليه بلا دلالة على تجدد أو استمرار إذا كان خبرها اسماً»^(٢) ، وذلك مثل قولنا : (عبد الله أخوك) ، (المؤمنون إخوة)؛ والمعنى يختلف إذا قيدت مثل هذه الجمل بأي قيد من القيود ، يقول سيوبه : «تقول : كان عبد الله أخاك ، فإنما أردت أن تخبر عن الأخوة ، وأدخلت (كان) لتجعل ذلك فيما مضى»^(٣) ، فالفعل الناقص هنا إنما تعلق بمجموع الجملة بعد تمام الإسناد ، وإنما جيء به لإفادة اقتران هذه الجملة بالزمن الماضي ، معنى ذلك : «أنك إذا قلت : ما خرج زيد ، وما زيد خارج ، لم يكن النفي الواقع بها متناولاً الخروج على الإطلاق بل الخروج واقعا من زيد ومسنداً إليه»^(٤).

فالتقييد الذي نتحدث عنه - هنا - إنما هو تقييد للجملة بعد تحقق الإسناد ، وليس تقييداً لعنصر من عناصر الجملة دون الآخر (كالذي عرضنا له في الصفحات السابقة) . ومقيدات الجملة - بنوعيتها اسمية وفعلية - إنما يؤتى بها لتوكيد الإسناد أو نفيه أو توقيته أو الاستفهام عنه أو إدخاله في دائرة التمني أو الترجي ، حسب المعنى الذي يريده الشاعر .

(١) الدلائل : ص ٢٦٥ .

(٢) الكليات لأبي البقاء : ص ١٤٠ .

(٣) الكتاب : ج ١ ص ٤٥ .

(٤) المدخل في دلائل الإعجاز (ضمن : دلائل الإعجاز) : ص ٧ .

فاللغة العربية في مجال الدلالة على الزمان تطرح أمام المبدع مجموعة من البدائل؛ لإفادة تحقق الإسناد في زمن معين ، عند الدخول على الجملة الاسمية الخالصة الاسمية؛ أو لإفادة تقييد زمن الإسناد الذي تنص عليه الجملة الاسمية التي تحتوي على عنصر فعلي ظاهر أو مقدر . وهذه البدائل بعضها يفيد التقييد بالزمن المطلق مثل (كان) ، وبعضها يفيد التقييد بزمن محدد من اليوم واليلة كما في (أصبح - أضحى - أمسى - ظل - بات) ، والبعض يفيد التقييد بمدة دوام قيام الإسناد كما في (مادام)؛ لأن «(دام) صلة لـ (ما) الظرفية المراد بها وبصلتها التوقيت نحو : لا أكلمك ما دامت الشمس طالعة؛ أي زمان دوام الشمس طالعة»^(١) ، وبعضها يفيد الدلالة على زمان الوجود (أي الزمان الحالي) دون الزمن الماضي^(٢) ، كما في (صار) ، وبعضها الآخر يدل على استمرار زمن الإسناد كما في (ما زال - ما فتى - ما برح - ما انفك)^(٣).

وتحتوي اللغة على مجموعة أخرى من البدائل لا تقف عند حدود تقييد زمن الجملة ، بل تجمع مع ذلك الدلالة على جهة معينة من جهات الفهم^(٤) ، فيفيد بعضها مقارنة حدوث المسند إلى المسند إليه ، ويفيد البعض الآخر توقع ذلك الحدوث وترجييه ، وبعضها يفيد الشروع في هذا الحدوث وابتدائه .

وتطرح اللغة مجموعة من البدائل لنقل الجملة من دائرة الإثبات إلى دائرة النفي؛ من هذه البدائل (ليس) التي تنفي «الحال في الجملة غير المقيدة بزمان ، والمقيدة

(١) الارتشاف : ج ٣ ص ١١٤٦-١١٤٧ .

(٢) انظر : السابق : ج ٣ ص ١١٥٦ .

(٣) أجمع النحاة على أن معاني هذه الأفعال الأربعة متفقة ، ولم يخالفهم في ذلك إلا أبو علي . (انظر : الارتشاف : ج ٣ ص ١١٦٢) .

(٤) انظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ص ١٣٠ ، ونظام الجملة في شعر المعلقات ، د. نحلة : ص ١١٧ ، ١١٨ .

بزمان تنفيها حسب القيد»^(١)، ومنها المشبهات بليس (ما الحجازية - لا النافية للوحدة - إن النافية - لات)، ومنها (لا) النافية للجنس العاملة عمل (إن).

وتقيد الجملة بأسماء الاستفهام وحروفه، وأقوى معنى للتقيد بحرف الاستفهام هو «نقل الجملة من دائرة المعنى الخبري إلى المعنى الاستفهامي الذي هو إنشائي، وتغيير مضمونها من معنى محصل إلى معنى يستفسر عن حصوله من عدمه... ويتحول المتكلم من مُصدِر للمعلومة إلى باحث عنها متلق لها؛ لأن سؤاله يريد من ورائه إخباره بحصول هذا المعنى من عدمه»^(٢).

أما المعنى الذي يفيد التقيد باسم الاستفهام فيختلف من اسم لآخر، فقد يتم التقيد بالاستفهام عن المكان (مكان تحقق الإسناد) أو زمانه أو كيفية حدوثه أو الاستفهام عن سبب حدوثه... إلخ، على ما هو معروف في دلالات أسماء الاستفهام وعندما يريد المبدع أن يقيد الجملة الاسمية بالتوكيد فإن اللغة تطرح أمامه مجموعة من البدائل المختلفة في درجة التوكيد؛ ليتقي منها ما يناسب غرضه، ويأتي على رأس هذه البدائل (إن) المكسورة المشددة، حيث تدل على التوكيد القوي، ثم تليها (أن) المفتوحة المشددة في درجة التوكيد؛ يؤيد ذلك أن أبا حيان^(٣) عندما نسب التوكيد إلى (إن) المكسورة نسبة لها دون تردد فقال: (إن للتوكيد)، لكنه عندما نسبه

(١) الارتشاف: ج ٣ ص ١٥٧، والمجم: ج ١ ص ٣٦١-٣٦٢.

(٢) دور الحرف في أداء معنى الجملة، الصادق خليفة راشد، ص ١٧٨، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي ١٩٩٦ م.

(٣) انظر: الارتشاف: ج ٣ ص ١٢٣٧.

إلى (أن) المفتوحة لم ينسبه إليها مباشرة، بل قال: (قالوا: معناها التوكيد)، وكأنه يسلم بما نود تقريره من أن (إن) المكسورة أقوى توكيدا من (أن) المفتوحة.

يلي (إن وأن) في درجة التوكيد (لكن). يقول أبو حيان: «ولكن للاستدراك، قيل: وللتوكيد، والاستدراك هو لخبر توهم أنه موافق لما قبله في الحكم، فأتي به لرفع التوهم، ولتوكيد الأول وتحقيقه»^(١)، ولعل القول بأنها مركبة يناسب هذه الدلالة؛ إذ إن كل من قالوا بأنها مركبة قالوا بوجود (إن) مع (لكن) أو مع (لا) والكاف زائدة، أو مع (لا) والكاف للتشبيه^(٢).

ف (لكن) تحمل معنى الاستدراك والتوكيد جنبا إلى جنب، «ولذلك وقعت بين كلامين لما فيها من نفي لشيء وإثبات لغيره»^(٣)، لكن هذا التوكيد الذي تحمله يلي في درجته (أن) المفتوحة.

ثم تأتي (كأن) في مؤخرة الحروف الدالة على التوكيد، ولعل في القول بتركيبها - وهو قول أكثر النحاة^(٤) - إشارة إلى وجود معنى التوكيد (الذي تفيدته أن) بجانب معنى التشبيه (الذي تفيدته الكاف) جنبا إلى جنب، ف (كأن) تفيد تشبيها فيه كثير من التوكيد، أو تشبيها يكاد يقترب من الحقيقة، وهذا ما أكده عبد القاهر من قبل إذ قرر أن (كأن) يؤتى بها في أول الجملة اهتماما بالتشبيه وكأنه حقيقة^(٥)، بخلاف (الكاف) التي يؤتى بها في وسط الجملة، بعد أن ينصرف ذهن المخاطب إلى المسند إليه

(١) الارتشاف: ج ٣ ص ١٢٣٧.

(٢) انظر: السابق: ج ٣، ١٢٣٨.

(٣) السابق: ج ٣، ١٢٣٨.

(٤) قال بتركيبها الخليل وسيبويه وجمهور البصريين والفراء. (انظر: الارتشاف: ج ٣ ص ١٢٣٨).

(٥) انظر: الدلائل: ص ٢٥٨.

قبلها وينتظر المسند ، فإذا به يتحول تحولا مفاجئا إلى أن الإسناد ليس على حقيقته بل على جهة التشبيه ، وذلك عندما يصطدم بالكاف وسط الجملة .

فـ (كأنَّ) أشد تشبيها وأكد من (الكاف) ، ولعل في وجهة نظر الكوفيين والزجاجي ما يؤكد ما انتهينا إليه إذ يرون أن (كأنَّ) للتحقيق^(١) .

وهكذا يختار المبدع بين الجمل المطلقة والمقيدة ، ويختار نوع التقييد ، كل ذلك تبعا للمعنى النحوي الدلالي الذي تنتجه تلك الصيغ النحوية المتضمنة للصيغ الصرفية بما تشغلها من مفردات معجمية مترابطة فيما بينها بواسطة الحروف المختارة بدقة كذلك . ثم هو بعد ذلك يتصرف في جملة فيقدم ويؤخر ، ويذكر ويحذف ... كل ذلك حسبما يقتضيه المعنى .

وستتناول فيما يلي من صفحات تقييد الجملة بالتوكيد مثالا للتوضيح والتمثيل :

والناظر في المعلقات يجد أن (إنَّ) المكسورة المشددة قد وردت فيها جميعا ، فلم تخل منها معلقة واحدة ، كما أنها احتلت في كمِّ الورد أكثر قدر من الأبيات بالقياس إلى حروف التوكيد الأخرى ، وأن أقلهن ورودا كانت (لكنَّ)^(٢) إذ وردت مرة في بيت لعنترة بن شداد في قوله :

إذ يَتَّقُونَ بِي الْأَسِنَّةَ لَمْ أَحِمْ * * * عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَائِقُ مُقَدِّمِي *
ومرة في بيت لزهير بن أبي سلمى :

(١) انظر: الارتشاف : ج ٣ ص ١٢٣٨ .

(٢) زعم أحد الباحثين أن (لكنَّ) لم ترد إلا مرة واحدة في المعلقات في حين أنها وردت مرتين كما رأينا . انظر : الأدوات ووظائفها في شروح المعلقات - محمد محيي الدين أحمد ص ١٢٧ ، (رسالة دكتوراه ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م) ..
(*) أخم : أجبن ، المقدم : موضع الإقدام .

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ * * * وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٍ

ولا يخفى ما في استخدام (لكنَّ) هنا من دلالة على تأكيد ما بعدها ، ورفع توهم دخوله في حيز ما قبلها .

ولنأخذ معلقة عمرو بن كلثوم نموذجاً؛ إذ يتضح فيها التنويع في استخدام تلك الحروف التي تقيّد الجملة بالتوكيد .

أما الأبيات التي وردت فيها الجملة الاسمية مقيدة بـ (إنَّ) المكسورة فهي :

- وَإِنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا الْمَنَآيَا * * * مُقَدَّرَةٌ لَنَا وَمُقَدَّرِينَآ
- وَإِنَّ غَدًا وَإِنَّ الْيَوْمَ رَهْنٌ * * * وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لَا تَعْلَمِينَا
- وَإِنَّ الضُّغْنَ بَعْدَ الضُّغْنِ يَبْدُو * * * عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدِّفِينَا
- فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ * * * عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا^(*)

لو نظرنا إلى كل بيت مما سبق - في سياق الجزء الذي ورد به - لوجدنا أنه يفتقر إلى التوكيد القوي؛ فالبيت الأول لو لم يقيد بـ (إنَّ) لتم المعنى (نحن سوف تدركننا المنايا) . لكنه دون تقييد غير مقصود في ذلك الموضع؛ إذ وقع هذا البيت في نهاية حديثه عن الخمر وطلبه الاستزادة من شربها ، وكأنه هنا يعلل لهذا الطلب ، فهو يريد الاستزادة قبل أن ينتهي الأجل؛ فناسبه الإتيان بإن المؤكدة ، وناسب ذلك التوكيد التقييد بجملة الحال (مقدرة لنا ومقدرينا) فليس هناك مفر من المنايا .

(*) أعيت : أبت أن تلين .

وقد أدرك التبريزي مناسبة ذلك البيت لسياقه الذي ورد به إذ يقول :
«ومعنى هذا البيت في اتصاله بما قبله ، أنه لما قال (هبي بصحنك) حضها على ذلك .
فالمعنى : فاصبحينا من قبل حضور الأجل ، فإن الموت مقدر لنا ونحن مقدرون له»^(١).
أما البيت الثاني فقد ورد في روايتي (ابن الأنباري والتبريزي) في نهاية حديثه
عن محبوبته ورحيلها ، فناسب ذلك أن يؤكد على تغير الأيام وأنها مرتهنة بالأقدار ،
فكرر (إن) المكسورة مرتين وأظهر خبر إحداهما وأضمر الآخر ف (إن غدا وبعد غد
رهن بما لا تعلمين ، وإن اليوم رهن بما لا تعلمين). إن البنية العميقة للجمل الثلاث
واحدة :

إن + اسمها (دال على الزمان) + خبر

كما أن الخبر في الجمل الثلاث واحد (رهن بما لا تعلمين) برغم تغير نوع الظرف الواقع
اسما في كل جملة ، لكنه تغير غرضه الاستقصاء الذي يوحي بدلالة أخرى هي أن (كل
الأيام) رهن بما لا تعلم المحبوبة من الأقدار ، وهذا التعميم يناسبه الإتيان بـ (إن)
المؤكد المكررة .

إن في ذلك إرهاصا بحركة القصيدة بعد هذا البيت ، وأن الأحداث ستسير
مضطربة غير مستقرة على حال ، وهذا ما تؤكد كل الأجزاء التالية لهذا البيت ؛ إذ يتغير
كل شيء ، ولا يبقى ثابتا سوى شيء واحد هو عزهم ومجدهم .

ولو تتبعنا السياق النصي للقصيدة لتأكد لنا ذلك ، فالملك يصير من عز إلى ذل

وَسَيِّدٌ مَعَشِيرٍ قَدْ تَوَجَّوْهُ * * * بَتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَزِينَ

(١) شرح المعلقات العشر : للتبريزي : ص ٣٢٤ .

تَرَكْنَا الْحَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ * * * مُقْلَدَةً أَعْنَتْهَا صُفُونًا * *

والأيام لا تستقر على حال لأن قوم الشاعر يغيرون كل شيء :

مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانًا * * * يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينًا

إن هذا السياق النصي يتوافق مع استخدام (إن) المكسورة المكررة في ذلك
البيت ؛ مما يعمل على التماسك النحوي الدلالي لأجزاء القصيدة .

أما البيت الثالث فقيدت فيه جملة (الضغن يبدو عليك) بإن المكسورة
المشددة ، وسيق البيت يناسبه ذاك التقيد ، فليس هو ضغنا واحدا بل هو تراكمات
من الأضغان (الضغن بعد الضغن) ، ثم إن هذا الضغن لا يقف عند حدود خروجه
من الأفتدة ، بل (يُخرج «معه» الداء الدفين) .

إن الإتيان بكلمة (الدفين) على صيغة (فعليل) الدالة على المبالغة - يوحي
بتراكم ذلك الحقد مستترا في أعماق النفس ، فناسبه أن يخرج ضغن متراكما أيضا ، وأن
يقيد ذلك كله بالتوكيد القوي المستفاد من (إن) المكسورة .

لكن الضغن شيء معنوي فكيف يتم إخراجه ؟!

إن إخراج الضغن قد جسده الأبيات السابقة في طعن بالرمح وضرب بالسيوف :

نُطَاعِنُ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَّا * * * وَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ إِذَا غَشِينَا

بِسُمْرٍ مِّنْ قَنَا الْخَطِيّ لُدُنْ * * * ذَوَابِلُ أَوْ بَيْضٍ يَحْتَلِينَا

كَأَنَّ جَهَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا * * * وَسُوقٌ بِالْأَمَاعِزِ يَرْمَعِينَا

نَشْقُ بِهَا رُؤُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا * * * وَنَخْتَلِبُ الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا

وَإِنَّ الضُّغْنَ بَعْدَ الضُّغْنِ يَبْدُو * * * عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا * *

إن سياق البيت وسيق القطعة (الأبيات السابقة) ، وتكرار بعض المفردات (الضغن
بعد الضغن) ، (نشق شقا) ، واستخدام البنية الصرفية (الفعليل) في آخر البيت ؛ كل هذا

يؤكد ضرورة الإتيان بـ (إنَّ) المكسورة المشددة ليعمق بذلك معنى التوكيد والمبالغة المستفادة من السياق النصي .

أما البيت الأخير فناسبه أيضا أن يقيد تلك الجملة : (قناتنا أعيت على الأعداء قبلك أن تلين) بـ (إنَّ) المكسورة المشددة؛ لأن السياق الذي ورد به البيت سياق فخر وتحذ صريح ، وهجاء لعمر بن هند :

بأيّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ ** تُطِيعُ بَنَا الْوُشَاةِ وَتَزْدَرِينَا
تَهْدِدُنَا وَتُوَعِدُنَا رُوَيْدَا ** مَتَى كُنَّا لَأَمِّكَ مَقْتُونَا
فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعَيْتْ ** عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا (*)

إن المخاطب هنا (يطيع الوشاة - يزدرى - يهدد - يوعد) ، أليست كل هذه الأفعال داعية إلى استخدام الشاعر (إنَّ) المؤكدة كي يبطل كل هذه الأحداث الصادرة من المخاطب .

إنه بإضافة ذلك القيد للجملة «نجد المعنى قد تأكد وأصبح غير قابل للشك من قبل المستمع»^(١) الذي هو هنا (عمر بن هند) .

ثم إن الشاعر يفصل هذا الإجمال في ستة وأربعين بيتا تالية لهذه الأبيات ، موضحا وسائل عزهم ومنعتهم؛ فناسب ذلك الإتيان بـ (إنَّ) المؤكدة في صدر هذا الإجمال .

(١) دور الحرف في أداء معنى الجملة. الصادق خليفة راشد: ص ١٨٣ .

أما (أَنَّ) المفتوحة المشددة فهي أقل تأكيدا من المكسورة؛ ذلك لأنها تتطلب «إيجاد عنصر لغوي قبلها ، غالبا ما يكون فعلا أو ما هو من خصوصياته نحو: (لو)، وتتحول الجملة من جملة قائمة بذاتها ذات معنى إلى جملة مؤولة بمفرد معمول لما سبقه»^(١) .

والأبيات التي وردت مقيدةً جُمْلُهَا بـ (أَنَّ) المفتوحة في معلقة عمرو بن كلثوم نجدها لا تحتاج إلى ذلك التوكيد القوي في (إنَّ) المكسورة؛ لوقوعها (أعني أَنَّ المفتوحة) في سياق الإخبار بشيء واضح غير منكر يعلمه المتلقي لكنه يتغافل عنه ، وذلك كما في قول الشاعر :

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا ** وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّاياتِ بِيضًا ** وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا

ولعل في الإتيان بصيغة المضارع (نورد) خبرا لـ (أَنَّ) ، ثم العطف عليه بصيغة المضارع (نصدر) - ما يؤكد اختيار (أَنَّ) المفتوحة؛ إذ صيغة المضارع تدل على (التجدد والاستمرار) ، فذلك الورود والإصدار للرايات متجدد مستمر لا ينكره أحد ، ولا يحتاج إلى توكيد قوي لظهوره وعدم خفائه .

أما الموضع الثاني الذي ورد فيه التقييد بـ (أَنَّ) المفتوحة ، فهو قوله (في رواية الزوزني) :

(١) انظر: السابق، ص ١٨٣ (بتصرف يسير) .

أَلَا لَا يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ أَنَّا ** تَضَعُضَعُنَا وَأَنَا قَدْ وَنِينَا

فالناظر في هذا البيت بعيدا عن السياق النصي للقصيدة لا يدرك السر وراء اختيار (أَنْ) المفتوحة دون المكسورة في هذا الموضع؛ فالشاعر هنا ينفي صفة الانكسار والتذلل، فليسوا هم كذلك فتعلمهم الأقوام بهذه الصفات، بل إن القبائل قد علمت مكانتهم واختصاصهم دون غيرهم بصفات المنعة والقوة، وهذا ما تؤكد القصيدة في آخرها بعد واحد وأربعين بيتا من هذا البيت إذ يقول:

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدَّ ** إِذَا قُبِّبَ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا

بِأَنَا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ** وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا

وَأَنَا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا ** وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

وَأَنَا النَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا ** وَأَنَا الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا

وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ** وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

ولعلنا نلاحظ أن الشاعر استخدم نفس المادة المعجمية بعد مرور واحد وأربعين بيتا (لا يعلم - وقد علم)، إلا أن الصيغة الصرفية اختلفت فعند نفيه لصفات الضعف أتى بصيغة المضارع لينفي بذلك أن يعلموا هذا الأمر الآن أو مستقبلا؛ ذلك لأن الأقوام قد (علمت) بصيغة الماضي. فكل صفات العز والمنعة معروفة لقوم الشاعر منذ زمن بعيد وقد علم ذلك الجميع، بل علموا اختصاص قوم الشاعر بتلك الصفات دون غيرهم، وهذا المعنى مستفاد من تعريف المسند - كما بينا من قبل^(١).

(١) انظر: خصائص التراكيب، د. محمد أبو موسى: ص ٢٤٠.

وذلك العلم المسبق بمكانتهم وعزهم كان سببا في استخدام (أَنْ) المفتوحة في سياق الأبيات السابقة؛ فهذا معلوم لا ينكره منكر، لكن البعض قد يتغافل عنه مع علمه به في أعماق نفسه، فلا بأس من توكيده توكيدا خفيفا.

أما الحرف الثالث الذي قيد الشاعر به جملة فهو (كَأَنَّ) «الذي يفيد التشبيه المؤكد القوي نتيجة لتضام الحرفين (الكاف) و (أَنَّ) ويدخل على الجملة من أولها ليكون المعنى على التشبيه من أول الأمر»^(١)، ولدلالة هذا الحرف على التشبيه فإن الشاعر يلجأ إليه كثيرا، ليربط به بين العوالم المختلفة؛ فتتج الصور الفنية في سياق الوصف.

والأبيات التي وردت فيها (كَأَنَّ) في معلقة عمرو بن كلثوم تؤكد ذلك. ففي سياق وصف الخمر يقول:

مُسْعَشَّةٌ كَأَنَّ الْحَصَّ فِيهَا ** إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

استخدم (كَأَنَّ) مقيدة للجملة، لأنها لشدة حرمتها بعد امتزاجها بالماء أشبهت في لونها هذا النبت الأحمر، فما الإتيان بـ (كَأَنَّ) إلا لدلالاتها على التشبيه المؤكد القوي الذي يتناسب مع شدة حمرة الخمر في تلك الحال.

وفي سياق الحديث عن ساحة القتال يقول:

كَأَنَّ سَيُوفَنَا فِيْنَا وَفِيهِمْ ** مَخَارِيْقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ ** خُضْبُنَ بِأَرْجَوَانٍ أَوْ طَلِينَا

والتقيد بـ (كَأَنَّ) في الصورة الأولى إنما كان لبيان مدى الشبه القوي بين حركة السيوف في أيديهم وحركة المخاريق (وهي سيوف من خشب) في أيدي

(٢) دور الحرف في أداء معنى الجملة. الصادق خليفة راشد: ص ١٨٤ - ١٨٥،

وانظر: الدلائل: ص ٢٥٨.

(*) الحص: نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران، سخين: حار.

الأطفال ، وليبين أيضا أنهم «لا يحفلون بالضرب بالسيوف ، كما لا يحفل اللاعبون بالضرب بالمخاريق»^(١) ، ولا يتحقق ذلك إلا باستخدام (كأن) الدالة على التشبيه المؤكد القوي .

أما في الصورة الثانية فالسياق السابق يحتم الإتيان بـ (كأن)؛ فذلك الضرب الذي لا يحفلون به قد أدى إلى أن ثيابهم قد خضب بعضها وطي بعضها الآخر ، ولا يخفى ما في المادة المعجمية (مادة الطلاء) في قوله: (طلينا) من دلالة على كثرة الدماء وتدقيقها؛ فناسب هذا السياق الإتيان بـ (كأن) الدالة على التشبيه القوي .

وفي سياق وصفه للدروع يقول :

كَأَنَّ غُضُوءَهُنَّ مَتُونٌ غُدِيرٌ * * * تُصَفِّقُهَا الرِّيحُ إِذَا جَرَيْنَا^(٢)

فقيد بـ (كأن) أيضا ليؤكد على قوة الشبه بين هذه الدروع في صفائها وحسن نسيجها ، وبين صفاء الماء في صفحة الغدير إذا هبت عليه الريح . والسياق الذي ورد فيه هذا البيت يؤكد تلك الصورة ، إذ قال قبله :

عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ * * * تَرَى فَوْقَ النَّطَاقِ لَهَا غُضُوءَنَا

فاستخدم كلمتي (دلاص) وتعني البراقة ، (وغضونا) ، ثم أتت الصورة لتستكمل هذين العنصرين وتؤكداهما؛ فشبهت الدروع بصفحات الغدير ، وصفحة الغدير من سماتها الصفاء ، ثم قيد الصورة بحالة هبوب الرياح على صفحة الغدير ، وهذا يعمل على تدرج متونه .

(١) شرح المعلقات السبع: الزوزني: ص ١٢٦ .

(**) الغدر: ج غدير، تصفقه: تضربه .

فهاتان الصفتان ثابتان لتلك الدروع ، ثم أتت الصورة مؤكدة ذلك ، وناسب ذلك كله الإتيان بـ (كأن) الدالة على التشبيه المؤكد .

أما التقييد بـ (كأن) في قوله :

كَأَنَّا وَالسُّيُوفُ مُسَلَّلَاتٌ * * * وَلَدْنَا النَّاسَ طُرًّا أَجْمَعِينَ

فيتناسب مع السياق الذي ورد فيه البيت؛ إذ احتوى على بيت آخر يحمل المعنى نفسه ، هو قوله :

مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا * * * وَمَاءُ الْبَحْرِ نَمَلُؤُهُ سَفِينَا

إنه تأكيد تلك الكثرة التي يتفاخر بها العرب؛ فناسبه الإتيان بـ (كأن) التي تحمل معنى التشبيه القوي المؤكد .

وهذا التشبيه ، وإن كان يحمل من المبالغة الكثير ، إلا أن هذه المبالغة تقل حدتها إذا علمنا أن المعنى المقصود ليس الدلالة الحرفية للألفاظ ، بل الكناية عن الكثرة .

عند هذا الحد يتضح لنا إلى أي مدى تشارك الصيغ النحوية بقية روافد المعنى النحوي الأوّل الذي يتعاقب مع الدلالة الأولية للمفردات؛ لينتج المعنى النحوي الدلالي .

واتضح أيضا إلى أي حد يوجّه السياق النصي المعنى النحوي الدلالي المراد .

لقد أدرك النحاة أن الحرف لا يتضح معناه إلا داخل التركيب؛ لذا جاءت تعريفاتهم للحرف مبنية على هذه الفكرة :
فيعرفه أبو حيان بأنه : «رسم كلمة تدل على معنى في غيرها فقط»^(١) .

ويعرفه أبو القاسم السهيلي بأنه : «ما دل على معنى في غيره»^(٢) .

ومعنى هذا أن معنى الحرف « يتوقف على تضامه مع كلمة أو كلمات أخرى ،
بعكس الأسماء والأفعال التي تدل على معانٍ في نفسها»^(٣) .

وقد أدرك النحاة أيضا ما للحرف من دور في الربط بين أجزاء التركيب ،
ودور في أداء المعنى؛ فميزوا الاسم وفق العلاقات التي يقيمها الحرف داخل التركيب .
يقول ابن مالك :

بِالْجَرِّ وَالتَّنْوِينِ وَالنَّدَا وَأَلْ
وَمُسْنَدٌ لِلْأَسْمِ تَمَيِّزٌ حَصَلَ

فالاسم يتميز بمضامة حروف الجر ، أو حروف النداء ، أو (أل) التي تفيد
التعريف ، وكل هذه الحروف وغيرها لا يتحقق لها معناها إلا بمثل هذا التضام ، ولا
معنى للحرف خارج التركيب .

(*) تنقسم الحروف إلى :

١. حروف المباني: وهي المكونة لبناء الكلمة .
 ٢. حروف الإطلاق .
 ٣. حروف الزيادة : وهي التي تزداد على بنية الكلمة لغرض لفظي أو معنوي .
 ٤. حروف المعاني: وهي التي تفيد معنى فيما اتصلت به أو دخلت عليه ، وهي المقصودة في هذا
الموضع .
- (١) الارتشاف: ج ٥ ص ٢٣٦٣ .
(٢) نتائج الفكر في النحو: أبو القاسم السهيلي، تحقيق عادل عبدالرحمن ، والشيخ علي محمد
معوذ: ص ٥٩ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) .
(٣) دور الحرف في أداء معنى الجملة. الصادق خليفة راشد : ص ٣٥ .

إن كل جملة من جمل اللغة العربية - إذا استثنينا الجملة البسيطة - لا تكاد
تخلو من حرف لأداء معنى من المعاني المرادة من نفي أو استفهام أو نهي أو تأكيد أو
شرط ... إلخ^(١) ، كما أن للحرف وجودا ظاهرا فلا يكاد يحذف أو يضم إلا في
مواضع اشتهر فيها ذلك ، كما في الجرب (رُبَّ) المضمرة^(٢) بعد الواو والفاء وبـل ،
وكذلك حذف حرف القسم ، وجـر ميمز (كم) بحرف الجر المحذوف^(٣) ، فإذا ما
حذف الحرف في غير تلك المواضع كان الحذف لمعنى مراد لا يظهر إلا به .

وقد يقوم المبدع بحذف الحرف في غير مواضع الحذف المشهورة لإفساح
المجال لتقدير أكثر من حرف؛ فيتعدد المعنى النحوي الدلالي ، وفي ذلك دلالة على
قدرة المبدع وتمكنه من امتلاك ناصية اللغة .

(١) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ١٢٣ ، ودور الحرف في أداء معنى الجملة: ص ٤٢ ، ٤٣
(*) أشار ابن مالك إلى أن الجر برب محذوفة يكون بعد الفاء كثيرا ، وبعد الواو أكثر وبعد بل قليلا،
ومع التجرد أقل. (انظر: شرح التسهيل، ابن مالك، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ، ود. محمد
المختون: ج ٣ ص ١٨٦ ، دار هجر، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م) .
- فبعد الفاء كما في قول امرئ القيس :

فمئلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي ثمام محول
- وبعد الواو كما في قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من هو بها غير معجل

وقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

ولا يخفى أن في تكرار الجر برب المحذوفة في هذه المعلقة ما يعمل على تماسك أجزاء النص. أما
معنى رب فهو التكثر ذلك لأنها تكون « للتكثر في موضع المباهاة والافتخار » - كما قال
أبو حيان - والسياق النصي للقصيدة يرجح ذلك المعنى ، إذ نصت القصيدة على كثرة تجاربه مع
المرأة ، كما أنه يباهي بأنه تمتع ممن كان في مثل حالها من المنعة وبعدها المنال ، ففي سياق حديثه عن
الليل يباهي بأنه استطاع أن يتنصر على هذا الليل رغم طوله وكثرة همومه ، فاغتنى في الصباح
الباكر . (انظر رأي أبي حيان في الارتشاف ج ٤ ص ١٧٣٧) .

(٢) انظر: دور الحرف في أداء معنى الجملة: ص ١٠٠ .

وهذا ما فعله طرفة في قوله (برواية النصب) :

أَلَا أَيُّهَا اللَّائِمِيُّ أَحْضَرَ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُحْلِدِي؟!

والبيت «لا يؤدي معناه المساق من أجله إلا بتقدير حرف من حروف الجر مع الحرف المصدرى المقدر ، وهذا التقدير يفسح المجال لأكثر من حرف في مضامة الجملة وتنويع المعنى»^(١).

فيمكن أن يقدر الحرف (في) ، وهو ظاهر كلام التبريزي^(٢)؛ وعندئذ سيصبح المعنى أنه يلومه لأنه يلقي نفسه في الهلاك ، وذلك المعنى مستفاد من الظرفية التي هي دلالة الحرف (في)؛ وهذا يوحي بأن اللائم يخشى على الملووم الهلاك .

ويمكن أن يقدر الحرف (اللام) التي «تجيء مبنية علة إيقاع الفعل»^(٣) ، أي أن مجرد حضور الوعى هو سبب اللوم ، وفي ذلك إيجاء بمدى حب اللائم الملووم وخوفه عليه .

ويمكن أن يقدر الحرف (على) ، وهو ظاهر كلام الزوزني^(٤) ، وفي ذلك دلالة خفية على كثرة اللوم وشدة اللائم ومبالغته في لومه ظنا منه أنه أعلى من الملووم ، فاتخذ من نفسه وصيا عليه ، وهذا هو معنى الاستعلاء المستفاد من (على) .

(١) دور الحرف في أداء معنى الجملة: ص ١٧٦ .

(٢) انظر: شرح القصائد العشر: ص ١٣٣ .

(٣) اللامات : لأبي القاسم الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك : ص ١٥ (المطبعة الهاشمية ، دمشق ،

١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) .

(٤) انظر: شرح المعلقات السبع : ص ٦٠ .

ويمكن أن يقدر الحرف (عن) الذي يوحي - بدلالته على المجاوزة - أن اللائم قد تجاوز حدود اللوم الهادئ إلى الزجر والنهي والمنع ، يؤيد ذلك رواية (ألا أيهذا الزاجري) .

والسياق النصي للقصيدة يرجح معنى الاستعلاء والمجاوزة؛ إذ يقول قبل هذا البيت :

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذَّتِي وَيَبْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمَعْبَدِ

ففي ذلك إيجاء بالاستعلاء على الشاعر ، والمجاوزة التي بلغت حد الإفراط والتجنب . ولو تتبعنا القصيدة من أولها إلى آخرها لوجدنا أن (طرفه) له موقف مختلف تماما عن عشيرته ، وسنجد أنه دائما يدافع عن استقلال ذاته ، ولا يرضى لها أن تذوب في رأي الجماعة^(١) .

كل هذا يؤكد مدى أهمية دور الحرف في أداء المعنى النحوي الدلالي للجملة ، بما يحمله الحرف من معان لا تتضح إلا داخل التركيب . هذا بجانب القيام بدور أساسي آخر هو العمل على ربط أركان الجملة ، وتماسك أجزاء النص . وتلك الوظيفة المزدوجة تتجلى واضحة في (حروف الجر) إذ إنها :

(*) الطريف : المال الحديث ، المتلد : المال القديم الموروث ، تحامتي : تجنبتي واعتزلتني ، المعبد : المطلي بالقطران .

(١) فهم الدكتور صلاح رزق ذلك المعنى حق الفهم عندما تناول هذه المعلقة؛ ويتضح ذلك جليا بمجرد النظر إلى عناوين المباحث التي ارتضاها عند تناوله هذا النص .

(في الشعر الجاهلي، ص ١٦٣ - ٢٢٧) .

أولا : تربط بين أركان الجملة؛ لذا سماها الكوفيون (حروف الإضافة) ، ويعلل ابن هشام هذه التسمية بقوله : «لأنها تضيف الفعل إلى الاسم ، أي تربط بينهما»^(١) ، وتلك هي الوظيفة الرئيسة لحرف الجر؛ إذ «يؤدي وظيفة الربط بين الفعل القاصر عن الوصول إلى المفعول المحتاج إليه - ومفعوله ، غالبا ، ولربط القسم بالقسم به»^(٢)

ثانيا : كل حرف يحمل معنى يتجلى في سياق التركيب ، وذلك أن حروف الجر تضيف معاني الأفعال إلى الأسماء ، وتنسبها إليها^(٣) ، ومن راعى هذا الجانب سماها (حروف الصفات) لأنها - على حد تعبير ابن هشام - «تحدث صفة في الاسم من ظرفية وغيرها»^(٤) .

وأقوى حروف الجر عملا على تماسك أجزاء النص (الكاف التشبيهية) التي تربط بين العوالم المختلفة التي ليست بينها أية روابط حقيقية ، ويتضح التماسك النحوي الدلالي أكثر لو اقترب الجزء ان - اللذان ربطت بينهما الكاف - في الدلالة ، ولننظر إلى هذين الجزأين من معلقة امرئ القيس :

الجزء الأول (١ - ٦) :

- (١) التصريح: ج ٢ ص ٢ .
(٢) دور الحرف في أداء معنى الجملة: ص ١٢٨ .
(٣) انظر: الكتاب: ج ١ ص ٤٢١ .
(٤) التصريح: ج ٢ ص ٢ .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ** يسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يغف رسمها ** لما نسجتها من جنوب وشمأل
تري بعز الأزام في عرصاتها ** وقيعانها كأنه حب فلفل
كأنني غداة البين يوم تحملوا ** لدى سمرات الحي ناقف حنظل
وقوفا بها صخي علي مطيهم ** يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة ** وهل عند رسم دارس من معول (*)

الجزء الثاني (٧ - ٩) ويبدأ بالكاف التشبيهية الجارة :

كدأبك من أم الحويرث قبلها ** وجارتها أم الرباب بمأسل
إذا قامتا تَصَوَّعَ المسك منهما ** نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ففاصت دموع العين مني صباة ** على النحر حتى بل دمي مجمل

لقد انتهى امرؤ القيس بنهاية الجزء الأول من المعلقة من (المنزل) الذي لا يهمه كثيرا ، وما كان ليبيكي على أطلاله إلا لأنه موطن تلك الذكرى (ذكرى الحبيب)؛ لذا لم يقف عنده كثيرا ، ولتفرغ إذن إلى (ذكرى الحبيب) التي من أجلها وقف باكيا .
وأول ما تثيره هذه الذكرى هو استدعاء المواقف الماثلة لها؛ لذا يربط بين هذه الذكريات المولية بالكاف الجارة التي تفيد التشبيه (كدأبك) .

كما أن خلو البيت الأول (من الجزء الثاني) من العنصر الفعلي ، ليدل دلالة واضحة على الثبات المطلق لهذه العادة المضافة إلى ضمير المخاطب العائد على نفس الشاعر (كدأبك)؛ فهذه عادته و دأبه (من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل) . إنه هنا يحدد المكان والزمان ، فالزمان (قبلها) والضمير عائد على (الحبيب)

في البيت الأول من الجزء الأول ، والمكان (مأسل) . فالحياة في حقيقتها لا تختلف من مكان لمكان ولا من زمان إلى زمان ، فهذه عاداتها معه على الإطلاق رغم اختلاف الأمكنة والأزمنة ، فما تفعله معه (الآن) بـ (سقط اللوى) قد أصابته بمثله في مكان آخر (مأسل) في زمان مضى (قبلها) ، إنه لا مفر منها إذن .

إن التشابه بين التجارب في الحاضر والماضي سوَّغ الربط بالكاف التشبيهية التي عملت على تماسك الجزأين تماسكا حميما لا يمكننا الفصل بين أجزائه . كل هذا يعمق المعنى النحوي الدلالي المقصود من الجزأين معا ، وتلك هي وظيفة الحرف في أبهى صورها عند مراعاة الاختيار الدقيق ، ووضع الحرف في حاقٍّ موضعه من التركيب .

ودقة الاختيار تتجلى أكثر بين (حروف العطف)^(١) ، وحروف العطف نوعان^(٢) : أحدهما ما يقتضي التشريك في اللفظ بوجوه الإعراب وفي المعنى بلا شروط وهو الواو والفاء وثم وحتى ، فنقول : جاء القوم وزيد أو فزيد أو ثم زيد أو حتى زيد ، فزيد شارك القوم في اللفظ بالضمّة ، وفي المعنى وهو المجيء . أو يقتضي التشريك بشرط ألا يقتضي إضرابا وهو (أو) و (أم) .

أما النوع الثاني من حروف العطف فهو ما يقتضي التشريك في اللفظ دون المعنى ، وذلك إما لأنه يثبت لما بعده ما انتفي عما قبله وهو (بل) و (لكن) ، أو لأنه ينفي عما بعده ما ثبت لما قبله وهو (لا) و (ليس) .

(١) المتفق عليه أن حروف العطف: الواو والفاء وثم وأو وبل ولا، والمختلف فيه: لكن وإما وإلا وليس وحتى وأم ولولا وهلا. (انظر: الارتشاف: ج ٤ ص ١٩٧٥ - ١٩٨٠).
(٢) انظر: التصريح: ج ٢ ص ١٣٤ - ١٣٥.

والنوع الأول يكثر بالشعر ، والناظر في المعلقة يتأكد له ذلك ، لذا سنخصص هذا النوع بشيء من التفصيل دون النوع الثاني لقلته في المعلقة أولا ثم لضيق المقام ثانيا ، فإذا ما أطلقنا اصطلاح (حروف العطف) فإنما نريد به - هنا - النوع الأول .

وحروف العطف لا تفيد اشتراكا واحدا في المعنى ، بل يختلف الاشتراك المعنوي من حرف لآخر ومن سياق لآخر؛ فالواو «لطلق الجمع بين المتعاطفين من غير دلالة على ترتيب»^(١) ، والفاء تدل على أن «الثاني عقب الأول بلا مهلة»^(٢) ، وذهب الجرمي^(٣) إلى أنها لا تفيد هذا الترتيب في البقاع ولا في الأمطار ، واستدل بقول امرئ القيس :

بِسَقَطِ اللَّوَى يَبْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ^(٤)

تحمل الفاء العاطفة معنى السببية إذا كان المعطوف بها جملة أو صفة^(٥) نحو: «وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»^(٦) ، فإنزال الماء من السماء كان سببا

(١) السابق: ج ٢ ص ١٣٥.

(٢) الارتشاف: ج ٤ ص ١٩٨٥ ، والتصريح: ج ٢ ص ١٣٨.

(٣) انظر: رأي الجرمي في: الارتشاف: ج ٤ ص ١٩٨٥ ، والتصريح: ج ٢ ص ١٣٩ ، والمغني: ج ١ ص ١٨٣.

(٤) خرج يعقوب بن السكيت قول امرئ القيس على حذف مضاف ، والتقدير: (بين أهل الدخول فحومل) ، ووجهه البعض على اعتبار التعدد حكما؛ لأن الدخول مكان يجوز أن يشتمل على أمكنة متعددة، والتقدير: (بين أماكن الدخول فأماكن حومل). انظر: التصريح: ج ٢ ص ١٣٦.

ويمكننا الخروج من الخلاف النحوي إذا أخذنا برواية الأصمعي: (بين الدخول وحومل). انظر: شرح القصائد السبع ، ابن الأنباري: ص ١٩.

(٥) انظر: الارتشاف: ج ٤ ص ١٩٨٦ ، والتصريح: ج ٢ ص ١٣٨ ، والجنى الداني ، للمراي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل: ص ٦٤ ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م).

(٦) ٢٢ / البقرة.

في إخراج الرزق، وإنما استفيد ذلك المعنى من عطف الجملتين بالفاء، ونحو قوله تعالى: «لاكلون من شجر من زقوم. فمالثون منها البطون. فشاريون عليه من الحميم»^(١)، فالأكل من شجر الزقوم كان سببا في ملء البطون، كما أنهم لما ملئت بطونهم أرادوا أن يشربوا فكان شراهم الحميم، وذلك معنى السببية في (الفاء). أما (ثم) فيؤتى بها للدلالة على «الترتيب والإيذان بأن الثاني بعد الأول بمهلة»^(٢). يقول سيبويه: «ومن ذلك: مررت برجل ثم امرأة، فالمرور ههنا مروران، وجعلت (ثم) الأول مبدوءا به (وذلك هو التشريك في المعنى)^(٣)، وأشركت بينهما في الجر (وذلك هو التشريك في اللفظ)^(٤)»^(٥). أما (حتى) «فلا تقتضي في العطف ترتيبا فهي كالواو»^(٦)، إلا أنها تخالف (الواو) في أن ما بعدها «لا بد أن يكون عظيما، أو صغيرا، أو قويا، أو ضعيفا»^(٧)، حسب السياق.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني - وتابعه السكاكي - إلى أن العطف بالواو - دون الحروف الأخرى - يحدث إشكالا^(٨)؛ ذلك لأن حروف العطف خلا الواو تفيد مع الإشراف معنى، أما الواو فلا تفيد سوى مطلق الجمع بين المتعاطفين، «فإذا قلت:

(١) 52-54 / الواقعة.

(٢) الارتشاف: ج ٤ ص ١٩٨٩، والتصريح: ج ٢ ص ١٤٠.

(*) زيادة مني للتوضيح.

(**) زيادة مني للتوضيح.

(٣) الكتاب: ج ١ ص ٤٣٨.

(٤) الارتشاف: ج ٤ ص ٢٠٠٢.

(٥) السابق: ج ٤ ص ١٩٩٩.

(٦) انظر: دلائل الإعجاز: ص ٢٢٤، ومفتاح العلوم، ص ٢٤٨-٢٧٢.

جاءني زيد وعمرو. لم تفد شيئا أكثر من إشراف عمرو في المجيء الذي أثبتته لزيد والجمع بينه وبينه، ولا يتصور إشراف بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراف فيه. وإذا كان ذلك كذلك ولم يكن معنا في قولنا: زيد قائم وعمرو قاعد - معنى تزعم أن الواو أشركت بين هاتين الجملتين فيه، ثبت إشكال المسألة»^(١).

لقد لاحظ عبد القاهر أن هذا الإشكال يزول إذا علمنا أنه في العطف بالواو لابد من وجود (جهة جامعة) بين الجملتين المتعاطفتين هي:

أولا: لابد أن يكون المحدث عنه (المسند إليه) في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى، كأن يكونا كالنظيرين أو الشريكين.

ثانيا: لابد أن يكون الخبر (المسند) في إحدى الجملتين بسبب من الخبر في الأخرى، كأن يجري منه مجرى الشبيه والنظير أو النقيض.

وقد تحققت تلك الجهة في قولنا: (جاءني زيد وعمرو) وهي الاشتراك في المجيء أما في قولنا: (زيد قائم وعمرو قاعد) فالجهة الجامعة بين المسند في الجملتين هي أنها متناقضان (قائم وقاعد)، ولابد في المثالين السابقين من وجود جهة جامعة بين (المسند إليه) في كل جملتين، وهما (زيد وعمرو) فقد تكون هذه الجهة أنهما صديقان أو كاتبان أو... إلخ. المهم أن هذه الجهة معلومة في نفس المتكلم والسامع. أما إذا قلنا: زيد طويل القامة وعمرو شاعر «كان خَلْفًا؛ لأنه لا مشكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر»^(٢).

لقد أقام عبد القاهر على هذا الكلام عن الواو مسائل (الفصل والوصل) التي «هي من أهم المسائل النصية، إذ يقوم جزء كبير من ترابط النص عليها»^(٣).

(١) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٤.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٥.

والذي يعيننا - هنا - هو بيان ما تحمله هذه الحروف من معان بينها فروق دقيقة تختلف من حرف لآخر . وتظهر براعة المبدع في مدى توفيقه في اختيار الحرف المناسب الذي يتفاعل مع بقية جوانب المعنى النحوي الدلالي فيعمقه ويزيده حسنا .

وتتجلى الدقة في التنويع بين (حروف العطف) في هذا الجزء من معلقة زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ ** وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ
مَتَى تَبْعُثُوهَا تَبْعُثُوهَا ذَمِيمَةً ** وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضَرَّ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا ** وَتَلْفَحُ كَيْشَافًا ثُمَّ تُنْتِجُ فَتُنْتِجُ
فَتُنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانًا أَشَامَ كُلُّهُمْ ** كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْظُمُ
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَمْ تُغْلِلْ لِأَهْلِهَا ** قَرَى بِالْعِرَاقِ مَنْ قَفِيزٍ وَدِزَهَمِ (*)

لقد عطف الشاعر جملتي (علمتم وذاقتم) بالواو ، وقد حسن اختيار الواو في هذا الموضع لسببين :

أولاً : أن الواو لمطلق الجمع؛ فالشاعر هنا يجمع بين الطائفتين من ذاق الحرب وويلاتها ، ومن لم يذق لكنه علم من أنبائها ما دلت عليه الشواهد الصادقة ، فليس الأمر محض ظنون ، فالشاعر بهذا الجمع يستوفي جميع الأطراف كي ينتبه مجموعة المتلقين لما سيأتي من كلامه ، وليقر الجميع بما سيقول . إنه ينتزع من صدورهم جميعاً موافقته في أحكامه عن الحرب قبل أن يتفوه بها .

ثانياً : المخبر عنه في الجملتين واحد هو ضمير الجمع المتصل (تم) ، وهذا مما يعمل على ازدياد معنى الجمع قوة وظهوراً ، وزيادة الاشتباك والاقتران بين الجملتين؛

«وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد»^(١) ، وجعل المخاطبين - على اختلافهم - متساوين أمامه في تلقي الحكم كأنهم شخص واحد .

وبراعة الشاعر تتجلى أكثر في عطفه الجمل التالية بالفاء : (وتضر فتضرم فتعرككم ... فتنتج لكم غلمان ... فتغلل لكم) . وقد سبقت إشارة النحاة إلى أن الفاء إذا عطفت الجمل حملت معنى السببية ، وهذا ما استطاع الشاعر أن يوظفه ببراعة في هذه الأبيات؛ فشدة الحرب واستعار نارها نتيجة حتمية لسبب واضح هو العمل على تضريتها وحملها على ذلك . لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، إنه سيؤدي ضرورة إلى أن تهلك من أضررها؛ كما تعرك الرحى الحب في حال طحنها (بثفالها) .

وداخل تلك الصورة المخيفة للحرب يعطف جملة (تنتج) الأولى بـ (ثم) التي تدل على الترتيب والتراخي ، مما يتناسب مع طول فترة الحمل (ما بين اللقاح والإنتاج) ثم تبرز (الفاء) فجأة في قوله (فتنتم) التي تتناسب في هذا الموضع مع دهشة المتلقي الذي يقف حائراً أمام تلك الحرب التي تنتج توءماً .

إن اختيار مادة (التوءم) بدلالاتها المعجمية يوحي باستمرار دائرة الحرب إلى أجل غير مسمى؛ لأن معنى أنها (تنتم) أنها تنتج أفراداً متشابهين في القيلتين؛ فتتساوى القوتان وتستمر دائرة الحرب دون أن تحسم لأي من الفريقين ، وهذا كله يتوافق مع اختيار (الفاء) الدالة على السرعة .

إن (الفاء) والدلالة المعجمية يعملان على زيادة دهشة المتلقي أمام تلك الحرب التي لا تكاد تتوقف ، وكأنني بالشاعر قد أتى بـ (ثم) التي تحمل معنى التراخي

(١) ظواهر نحوية في الشعر الحر: د. محمد حماسة: ص ١١٩ .

(١) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٦ .

- وهو كاره ، وود لو استبدل بها الفاء تعميقا للحركة اللاهثة للحرب ، لكن الحمل يتطلب (ثم) .

ثم يعطف الشاعر الجملة التالية (فتنتج لكم غلمان) بالفاء على هذه الجملة السابقة؛ لأن الهلاك سبب في إنتاج أولئك الغلمان الشؤم . إن الهلاك لا ينتج غلمانا ، لكن تقييد الغلمان بالإضافة إلى (أشأم) الذي جاء على (أفعل) وحمل معنى المصدر^(١) - سوغ العطف بالفاء الدالة على السببية؛ ذلك لأن هلاك الآباء والأهل في الحروب هو السبب الرئيسي في إنتاج أولئك الغلمان الشؤم الذين لن يصبح لهم هم سوى الأخذ بالثأر .

واستكمالا لصورة احتضان الحرب لأولئك الغلمان يعطف جملة (ترضع) بـ (ثم) الدالة على الترتيب مع التراخي ، وهذا يوحي بأن الحرب لن تتوقف وإن توقفت فإنما تتوقف لترضع من لبنها (أهوالها وسعيرها) نشأً جديداً ، فتدفع به دفعا واحداً إلى الجحيم في سرعة مذهلة ، وذلك ما أفاده العطف بالفاء (فتفطم) ، إنها لا تكاد تتوقف حتى تنتفض مسرعة في دورانها مرة أخرى ، فما توقفها إلا استعداد للحركة !!

أما الجملة الأخيرة (فتغلل لكم) فمعطوفة أيضا على (فتنتج لكم)^(٢) بالفاء الدالة على السببية؛ وذلك يوحي بأن هذا النتاج الذي هو غلمان الشؤم سيكون سببا في استمرار الدائرة بأن يقتلوا وتحمل إليهم ديات قومهم في حركة لا نهاية لها .

(١) انظر: شرح القصائد السبع ، ابن الأنباري: ص ٢٦٩ ، وشرح القصائد العشر، التبريزي: ص ١٨٤ .

(٢) انظر: شرح القصائد السبع ، ابن الأنباري: ص ٢٧٢ .

إن الفاء تحمل دلالة أساسية أخرى هي أن الثاني يعقب الأول بلا مهلة، أو أنها بعبارة أخرى تدل على الترتيب من غير تراخ ، وهذه الدلالة توحى بالحركة اللاهثة لدائرة الحرب المتصلة التي لا تكاد تنقطع .

إن اختيار الفاء بدلالتها على السرعة - متتابعة في هذا الجزء (تضر فتضرم فتعركم فتنتج فتغلل) تجعل المتلقي يقرأ هذا الجزء في حركة سريعة لاهثة ، فلا يكاد يلتقط أنفاسه عند (ثم) حتى تدفعه (الفاء) دفعا عنيفا حتى نهاية الأبيات التي تنتهي معها حركة الحرب المضطربة؛ شعورا منه بمدى السرعة في توالي الأحداث وتكرارها في حركة متراكبة لا تكاد تنتهي .

إننا إذا تتبعنا المكونات الدلالية للفاء وجدنا أن أبرزها دلالتها على السببية عندما تعطف الجمل - كما سبق بيانه - وتحمل هذه الدلالة كذلك عندما تربط الخبر بالمبتدأ كما في قولنا : الذي يأتيني فله درهم ، فالفاء هنا نصّت على أن استحقاق الدرهم مسبب عن الإتيان ، وأصبح الخبر والمبتدأ كالجاء والشرط ، ولو لم نذكر الفاء لاحتمل التركيب معنى السببية أو معنى الإقرار^(١) ، لكنه لما ذكرت الفاء انصرف المعنى إلى السببية دون الإقرار .

لكن الدلالة على السببية ألصق بالفاء التي تربط الجزاء بالشرط؛ لأن جملة الشرط تكون سببا لجملة الجزاء ، فناسبت الفاء الجزاء معنى ، «وذلك من حيث إن معناها التعقيب بلا فصل ، كما أن الجزاء يتعقب على الشرط كذلك»^(٢) . وأقوى أدوات الشرط دلالة على الجزاء (إن) المكسورة المخففة ، وهو ظاهر كلام الخليل بن أحمد عندما سأل سيبويه عن سبب جعلها أم الباب فقال : «من قبل أني أرى حروف

(١) انظر: شرح التصريح: ج ١ ص ٧٤ .

(٢) شرح التصريح: ج ٢ ص ٢٥٠ ، وانظر: الارتشاف: ج ٣ ص ١١٤٠ ، وج ٤ ص ١٨٦٢ .

الجزء قد يتصرفن فيكُنَّ استفهاما ، ومنها ما يفارقه فلا يكون فيه الجزء ، وهذه على حال واحدة أبدا لا تفارق المجازاة^(١).

وقد جمع امرؤ القيس بين (إن) الشرطية وفاء الجزء مرتين في قوله:

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ ** وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْلِي
أَعْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبَّكَ قَاتِلِي ** وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ ** فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ^(٢)

وفي هذا الجمع بين (إن) و(الفاء) الجزائية في سياقهما النصي الذي وردا به - تأكيد معنى المجازاة في الجملتين وتعميقه .

لكن (إن) تنفرد بدلالة أخرى وهي تقييد جملة الشرط بإدخالها في حيز المشكوك فيه^(٣)؛ فهو يشك في تحقق هذين الأمرين (أزمنت صرمي - ساءت مني خليقة) ، وقد عمل على تأكيد تلك الدلالة مجيء الصيغ النحوية متفقة في البنية العميقة للجملتين كما يلي :

و + إن + فعل الشرط (كنت / تك + قد + فعل ماض) + الفاء + جواب الشرط (فعل أمر)

وأكد ذلك اختيار المفردات المعجمية التالية (مهلا - التدلل - قد)؛ إذ تحتوي هذه الوحدات المعجمية - في سياقها - على سخرية وتهكم خفي من هذه الأفعال المتعمدة من تلك المرأة .

(١) الكتاب: ج ٣ ص ٦٣ .

(*) أزمع: وطن نفسه عليه، سلى: استخرجي حبي من قلبك .

(٢) انظر: الارتشاف: ج ٤ ص ١٨٦٦ .

ففي تعليق الجزء على الشرط ، ووقوع الشرط في حيز الشك ، والتأكيد على ذلك بتكرار الوظائف النحوية والحروف الرابطة بينها ، والاختيار الدقيق بين المفردات المعجمية ، وإحالة ضمائر الخطاب كلها إلى شخص واحد (فاطمة) الواقعة في سياق النداء الترخيمي - كل هذا يعمل على بناء معنى نحوي دلالي واحد هو التهكم من أفعال تلك المرأة التي تلف أفعالها بثوب من الدلال ، يشف عما تحته من خفايا نفسها ودوافعها الحقيقية .

هكذا يتبين لنا أن لذكر حرف معين دورا رئيسا في أداء المعنى النحوي الدلالي، لكن الحرف قد يمتنع ذكره في بعض المواضع ، وإنما يكون هذا الامتناع لدلالات بليغة، والشاعر المقتدر إنما يستغل تلك الإمكانيات اللغوية فيحسن اختيارها ويضعها في مواضعها التي تقتضيها .

فالواو الحالية يمتنع ذكرها في مواضع أحدها إذا كانت جملة الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مسبوق بـ (قد)^(١) ، وقد أشار عبد القاهر إلى أن الدلالات وراء ذلك الامتناع هي أن تجعل الجملتين (الجملة الأساسية وجملة الحال) كالجملة الواحدة ، وفسر ذلك بأنك «إذا قلت : جاءني زيد يسرع، كان بمنزلة قولك : جاءني زيد مسرعا ، في أنك تثبت مجيئا فيه إسراع ، وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خبرا واحدا ، وتريد أن تقول : جاءني كذلك ، وجاءني بهذه الهيئة»^(٢) .

(١) انظر: بناء الجملة العربية: ص ١٣٢-١٣٣ .

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢١٣ .

وامرؤ القيس مبدع يدرك أسرار اللغة؛ فيختار من الوجوه ما يتناسب مع المعنى النصي، ولننظر إلى قوله :

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجْرُورًا ۖ ** عَلَى أَثَرِنَا ذَيْلٌ مِرْطٌ مَرَحَلٍ (*)

لقد جاء بجملتي حال؛ الأولى (أمشي) تبين هيئته عند خروجه، والثانية (تجر) تبين هيئتها، وقد امتنعت الواو الحالية في الجملتين، والسياق النصي يدلنا على أن موقفه كان موقفا يثير في نفسيهما كثيرا من الخوف؛ لقوله قبل هذا البيت :

وَيَبْضُ خَنْدَرٍ لَا يُرَامُ خَبَاؤُهَا ** تَمْتَعْتُ مِنْ هُوٍهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ
تَجَاوَزْتُ أَخْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعَشَرًا ** عَلَى حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

إنها ممتنعة محجوبة لا يرام خباؤها، وقفت دونها الأحراس، وقوم يحرسون على قتله، وتجاوز هذا كله. وما خروجه بأسهل من دخوله إليها، خاصة وقد خرجت معه.

إن هذا كله دافع إلى أن يخرج مهرولا، وأن تخرج هي وقد اضطربت أفكارها، لكن دفعا لهذا كله قيد بالحالين (أمشي - تجر)، وحسن امتناع الواو هنا ليؤكد أن خروجه كان على هذه الهيئة (خروج فيه مشي) لا خوف ولا اضطراب، وليثبت لها أنها لم تخرج خائفة مضطربة بل خرجت جازة ذيلها لتمحو به آثار أقدامها.

إنه يريد أن يقول : إننا خرجنا هكذا بهذه الهيئة، خرجنا على هذه الصورة؛ ليثبت بذلك ما قد يستبعده السياق النصي لهذا الجزء من القصيدة.

إن امرأ القيس عندما خرج لم يخرج وحده لكنه (خرج بها) في حين أنه عندما جاء إليها كان وحده، وعندما أراد أن يبين حالها عند مجيئه أتى بالواو الحالية فقال :

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضْتُ لِنَوْمِ ثِيَابِهَا ** لَدَى السَّيْرِ إِلَّا لَيْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ (*)

لقد بدأ فأثبت مجيئه، ثم استأنف فيبين أنه عند مجيئه صادفها وهي على هذه الحال، ولما اختلف زمن المجيء عن زمن النضو - إذ إن نضوها ثيابها سبق مجيئه للتمويه على أهلها - حسن الإتيان بالواو الحالية التي تشعر بوجود مساحة زمنية بين الحدثين.

إن هذه المساحة الزمنية ليست موجودة في قوله : (خرجت بها أمشي تجر)، فخروجها على هاتين الهيئتين حادث في زمن واحد؛ فحسن امتناع الواو، وجاء الكلام خبرا واحدا (على حد تعبير عبد القاهر).

إن الأمر لا يقف عند حدود ذكر الحرف أو حذفه أو امتناعه بل إن المبدع قد يأتي بالحرف زائدا، وليست الزيادة غفلا من أي معنى؛ فقد قرر كثير من النحاة أن الحرف إنما يؤتى به زائدا لأداء معنى التوكيد. يقول سيبويه عن (من) : «وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه، كان الكلام مستقيما، ولكنها توكيد بمنزلة (ما)، إلا أنها تجر لأنها حرف جر، وذلك قولك : ما أتاني من رجل، وما رأيت من أحد، ولو أخرجت (من) كان الكلام حسنا»^(١).

وإنما يظل الكلام مستقيما حسنا بعد حذف الحرف الزائد - كما نص سيبويه - لأنه فضلة نحوية، إذا حذفت لا يختل بناء الجملة، فلا تنتقل إلى مجال (المستقيم القبيح) الذي ينتقض فيه شرط الورود النحوي، ولا إلى (المستقيم المحال) الذي

(*) نضت: خلعت، المتفضل: اللابس ثوبا واحدا إذا أراد الخفة في العمل.

(١) الكتاب: ج ٤ ص ٢٢٥.

ينقض آخر الكلام فيه أوله ، ويظل المعنى الأصلي كما هو لا ينحرف انحرافاً بيّناً . لكن وجود الحرف الزائد في موضعه داخل السياق النصي يكون أقوى في الدلالة على المعنى منه إذا حذف واستغني عنه .

ففي قول طرفة :

وَلَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَهَابَةً ** وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدُ

لو حذفنا (الباء الزائدة) في خبر ليس^(١) لأصبحت الجملة : (لست حلال التلاع) وهي جملة مستقيمة حسنة لم تختل فيها شروط الورد النحوي ، ولم ينقض آخرها أولها ، وأدت المعنى الأصلي وهو نفي أن يكون حلول الشاعر الأراضي المنخفضة مخافة حلول الأضياف أو غزو الأعداء . لكن سياق الجملة يؤيد بقوة الإتيان بالباء الزائدة ، لورود خبر ليس على صيغة فعّال التي تدل على أداء الحدث على جهة المبالغة أو وقتاً بعد وقت - على حد تعبير أبي هلال^(٢) - ، وتقيد هذه الصيغة ، وما شغلها من مفردة معجمية تدل على الحلول والاستقرار - بالإضافة إلى كلمة (التلاع) ، ثم التقيد بالمفعول لأجله (مهابة) الذي يبين سبب الحلول ، ووقوع ذلك كله في سياق النفي بـ (ليس) ، كل هذا يناسبه الإتيان بالباء الزائدة التي تؤكد ذلك النفي .

(١) اختلف البصريون والكوفيون حول فائدة المجيء بالباء الزائدة في خبر ليس والمشبّهات بها ، فهي عند البصريين لرفع توهم الإثبات لأن السامع قد لا يسمع (ليس) في أول الكلام ، وهي عند الكوفيين لتأكيد النفي ، كقولنا: (ليس زيد بقائم) رد لـ (إن زيدا لقائم) ، فالباء بمنزلة اللام . وأرى أنه ليس هناك تعارض بين وجهتي النظر البصرية والكوفية ، فكلاهما مؤداه أن الباء زائدة لتأكيد النفي ، فالإتيان بها إنما يكون للتأكيد على النفي في أول الكلام (وهذا ما يراه البصريون) ، وهو عينه ما يراه الكوفيون إذ إنه لما كانت اللام في (إن زيدا لمنطلق) لتقوية التأكيد المتقدم كانت (الباء الزائدة) تأكيداً للنفي المتقدم بـ (ليس وما يشبهها) . انظر رأي البصريين والكوفيين في : الارتشاف ج ٣ ص ١٢٢١ ، والتصريح ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) الفروق اللغوية: ص ١٢ .

ثم إن سياق الجزء الذي وردت به يؤيد الإتيان بهذه الباء ؛ إذ يفخر بنفسه قبل ذلك البيت وبعده ، ويستدرك بيان السبب الحقيقي وراء حلوله التلاع بعد أن نفى السبب المتوهم ، فيقول :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي ** عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ

وعدم تكاسله أو تأخره في إجابة النداء يؤكد أنه لا يحل التلاع خوفاً ، ولكنه كما يقول :

..... ** وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدُ

فإن تبغني في حلقة القوم تلقتني ** وإن تلتمسيني في الحوانيت تصطدني

وإن يلتق الحَيُّ الجميعُ ثلاقيني ** إلى ذروة البيت الشريف المصمّد^(*)

ذلك هو السبب الحقيقي في حلوله : إنه يعين القوم في قرى الأضياف ، ويحضر مجالس كبرائهم ونواديهم ، فكيف يُتهم بحلوله مخافة قرى الأضياف وهو الذي يهلك ماله في شرب الخمر ؟! كما أنه لا يخشى حلول الأعداء ، وكيف يخشاهم وهو صاحب النسب الشريف ؟!

إن سياق هذا الجزء يؤكد بأكثر من وسيلة (من نفي وإثبات واستدراك) أنه لا يحل التلاع خوفاً ، فناسب كل هذه الوسائل أن تنضم إليها (الزيادة) لتأكيد ذلك المعنى .

كما أن سياق القصيدة كاملة يؤكد ذلك ؛ فالمعلقة تؤكد دائماً على أنه في خُلف دائم مع قومه ، يدافع عن استقلال ذاته ، ويأبى الانسلاخ في عقول الآخرين ، حتى لو كانوا قومه الذين يدافع عنهم ، ولا يتبلد أو يتكاسل في نصرتهم وإجابة داعيهم ، ويعينهم في قرى أضيافهم .

(*) تبغني : تطلبني ، الحوانيت : ج حانوت وهو بيت الخمار ، المصمّد : الذي يقصده الناس .

وهكذا يتبين لنا أن ذكر الحرف يستحسن في موضع ، في حين يستحسن حذفه أو امتناعه في موضع ، وتستحسن زيادته في موضع آخر . وإنما العبرة بمدى توفيق الشاعر في اختيار الوجه الذي ينسجم مع الصيغ النحوية والصرفية والوحدات المعجمية التي تشغلها داخل السياق النصي ؛ ليعمل ذلك كله - في توافر حميم - على إنتاج معنى نحوي دلالي واحد متماسك .

* الجانب الثاني : المعنى الأولي (المعجمي) للمفردات :

المعنى النحوي الأولي تعمل على إنتاجه مجموعة محدودة متناهية من الصيغ الصرفية والصيغ النحوية وحروف المعاني - كما رأينا - ، لكن اللغة لا متناهية وغير محدودة ، وإنما كانت اللغة كذلك لوجود جانب آخر يمثل الوجه الثاني لها وهو جانب المفردات بما تحمله من معاني معجمية ، وعن طريق التفاعل بين هذين الجانبين حسبا تقتضيه قواعد علم النحو ينتج عدد غير محدود من الجمل المفيدة .

فاللغة تحتوي على جانبين ؛ جانب يتميز بالثبات والمحدودية وهو جانب المعنى النحوي الأولي ، وقد تكفلت كتب النحو على مر العصور باستقصائه ودراسته لكنها دراسة منعزلة عن الوجه الآخر للغة ، وجانب ثان يتميز بالتغير ، وهو جانب المفردات ، وقد تكفل المعجميون بوضعه في نظام معروف هو نظام المعجم . ولم يراع المعجميون الجانب الأول ، كما لم يراع أكثر النحاة الجانب الثاني ، وأصبح من الضروري إذن الجمع بين هذين الجانبين المتكاملين وبيان مدى التفاعل بينهما ، وهذا ما فطن إليه بعض القدماء وثلة من المحدثين (كما عرضنا لذلك في الفصل الأول) .

ومن ثم فالنظام النحوي بكل ما يحويه من صيغ صرفية وصيغ نحوية وحروف لا يعد إلا جانباً تجريبياً للغة يعمل على إنتاج معنى نحوي أولي ، ولو عوّلنا على هذا الجانب وحده لما كان هناك فرق بين قول امرئ القيس .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي **

وقول الحارث بن حلزة :

أيها الناطق المرقش عفا **

لأن المكونات التركيبية في البنية العميقة لكل من الجملتين واحدة ، وهي :

أي + ها + منادى معرف بأل + صفة

لكن الجملتين مختلفتان ، وإنما جاء ذلك الاختلاف من المعنى المعجمي للمفردة التي شغلت وظيفة المنادى في كل من الجملتين . ففي قول امرئ القيس ملئت هذه الوظيفة بمادة معجمية من سماتها الانتقائية الدلالية أنها (- حي) أي لا تسمع النداء على جهة الحقيقة ، وهنا خرج النداء إلى المجاز لكسر قواعد الاختيار بدخول المفردة في علاقات نحوية مع مفردات أخرى لا تقبل ذلك في الواقع .

أما في بيت الحارث بن حلزة فقد ملئت وظيفة المنادى بمادة معجمية من سماتها الدلالية (+ حي) أي أنها تسمع النداء على جهة الحقيقة ، فلم يحدث كسر في قواعد الانتقاء .

فالمعنى في بيت امرئ القيس معنى نحوي دلالي مجازي ، في حين أنه في بيت الحارث معنى نحوي دلالي حقيقي ، وإنما كان هذا الاختلاف بسبب المادة المعجمية التي شغلت الوظيفة النحوية في كل بيت .

ولكن ، كيف تعمل المفردات المعجمية كي تؤدي نصيبها في إنتاج المعنى النحوي الدلالي ؟

يمكننا أن نجيب عن هذا التساؤل بما يقرره تشومسكي عن المعجم بقوله : « يقدم المعجم لكل عنصر معجمي صورته الفونولوجية (المجردة) وما يمكن أن يرتبط بها من خصائص دلالية . وسوف يكون ضمن هذه الخصائص (الخصائص الانتقائية) Selectional properties لصدور التراكيب ، وهي الأسماء ، والأفعال ، والصفات ، والأدوات »^(١).

وبجانب هذه الخصائص أو السمات الانتقائية هناك السمات الذاتية أو المقولية ، وهذه الأخيرة لا تتحدد في المعجم « فإذا ما كان الفعل (أو أي صدر آخر) يختار دلاليا مقولة دلالية يرمز لها بالرمز (C) ، فإنه يختار حينئذ مقولة تركيبية هي : التحقق البنيوي الصحيح للمقولة الدلالية

The canonical structural Realization of (C) »^(٢).

فمن السمات الانتقائية الأساسية للفعل^(٣) (على سبيل التوضيح) سمة (ـ + فاعل إنسان) ، وهذه السمة تميز بين الأفعال التي تأخذ فاعلا يحتوي في سماته على سمة (+ إنسان) مثل : (كتب - علم - ظن ...) ، وبين الفعل الذي يأخذ فاعلا يحتوي على سمة (- إنسان) مثل (أثمر - ينح - نبج ...) غير أن هناك بعض

(١) المعرفة اللغوية: تشومسكي: ص ١٧٣ .

(٢) السابق: ص ١٧٤ .

(٣) انظر: الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): ص ٧٢ وما بعدها.

الأفعال تحتوي على سمة (ـ + إنسان) أي يشترك فيها الإنسان وغيره مثل : (شرب - عدا يعدو - مات ...) .

ومن السمات الانتقائية الأساسية للاسم (على سبيل التوضيح) سمة (ـ + عاقل) ، وهذه السمة تميز بين أسماء تحتوي على هذه السمة (+ عاقل) ، مثل : (محمد - فاطمة - الولد - المدرس ...) ، وبين أسماء لا تحتوي على هذه السمة (- عاقل) مثل : (الناقة - الفرس - الليل ...) .

وتتنظم هذه المفردات (الأفعال - الأسماء) بسماتها الدلالية داخل حقول دلالية؛ كل حقل دلالي يشتمل على مجموعة المفردات المتشابهة في السمات الانتقائية الدلالية .

وكل كلمة من حقل دلالي معين تستجيب للدخول في علاقات نحوية على سبيل الحقيقة أو المجاز مع كلمات من حقول دلالية أخرى ، ولا تستجيب بالطبع لكلمات أخرى^(١) . وتنتقل الكلمة من حقلها الدلالي إلى حقل دلالي آخر عن طريق تقييدها بأي وسيلة من وسائل التقييد (الجار والمجرور - النعت - الإضافة ... إلخ)؛ فمثلا كلمة (ماء) تنتمي إلى حقل دلالي معين ، لكنها لو قيدت بالإضافة فإنه يتغير حقلها الدلالي حسب الدلالة المعجمية للمفردة التي شغلت ذلك القيد مثل : (ماء البحر - ماء النهر - ماء العين - ماء القدر - ماء السماء - ماء الحياة ...) ، وكذلك لو قيدت بالوصف فقلنا: (ماء دافئ - ماء بارد - ماء حمي - ماء كدر - ماء صاف ...) .

إن هذه المفردات يتم الاختيار من بينها عند بناء الجملة المفيدة ، غير أن هذه المفردات بما تحمله من معان معجمية «لا تكون جملا من تلقاء نفسها بل لابد من

(١) انظر: النحو والدلالة: ص ٨٨ .

وضعها في قواعد تركيبية أساسية ، وهذه القواعد التركيبية الأساسية هي التي توجد معاني المواد المعجمية المفردة لتنتهي بها إلى جملة صحيحة في تنظيم نحوي^(١)؛ فإذا تم الاختيار دون كسر لقواعد الاختيار نتج معنى نحوي دلالي حقيقي، وذلك نحو قولنا: (أكل عمرو تفاحا)، فالفعل (أكل) يتطلب فاعلا يصح منه الأكل ، ومفعولا يصح وقوع الفعل عليه من هذا الفاعل المخصوص ، وكل هذه القواعد لم يتم كسرها - هنا - فالمعنى الناتج جاء على جهة الحقيقة .

أما إذا حدث كسر في قواعد الاختيار ، وذلك باختيار مفردات «لا تستجيب لعلاقات نحوية معينة بينها وبين بعضها ، فلا تصلح للإسناد أو الإتيان أو الإضافة أو غير ذلك»^(٢) ، فإن المعنى الناتج سيصبح معنى مجازيا ، وذلك كقولنا : (أكل عمرو عليا)؛ وذلك لأن المفعول (صيغة نحوية ودلالة معجمية) لا يصح وقوع الحدث عليه من هذا الفاعل المخصوص ، وإنما خرج إلى المجاز؛ إذ الأكل هنا يعني الغيبة . ولننظر إلى قول عنتره :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرَّمَّاحَ كَأَنَّهَا ** أَشْطَانُ بَثْرٍ فِي لَبَانِ الْأَذْهَمِ
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثَغْرَةٍ نَحْرِهِ ** وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسْرِبَ بِالْذَّمِ
فَارْزُورٌ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ ** وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمُحُمِ^(٣)

سنجد أن الفعل (شكا) من سماته الانتقائية أنه يتطلب فاعلا إنسانا (+ فاعلا إنسانا) ، لكن عنتره أسنده إلى فاعل من سماته الانتقائية (- إنسان) وهو الضمير المستتر العائد

(١) النحو الدلالة: ص ٨٨ .

(٢) الجملة في الشعر العربي: ص ٧١ .

(*) أشطان: جمع شَطَن وهو الحبل الذي يستقى به، اللبان: الصدر، الثغرة: أعلى النحر، ازور: مال، تحمحم: صهيل الفرس يشبه الحنين .

على الفرس ، وهنا حدث تصادم في الاختيار ، وكُسرت قواعد الانتقاء؛ فنتج معنى نحوي دلالي مجازي .

وهذا الاختيار متعمد مقصود من الشاعر لينقل إلى الفرس كل خصائص الإنسان التي منها الشكوى والاستعبار ، وفي ذلك بيان لمدى العلاقة الحميمة التي تربط عنتره بفرسه ، ومدى إحساسه بمعاناته .

وإيانا من عنتره بأن الشكوى من الفرس إنما هي شكوى فنية مجازية

قال بعد هذا البيت :

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ** وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامُ مُكَلِّمِي

وهذا يوضح إلى أي حد بلغت معاناة ذلك الفرس التي يعمقها سياق هذه الأبيات ، فالرمح نافذة في صدر هذا الفرس كالأرشية المضطربة داخل بئر عميقة ، ولتعميق أثر هذه الرماح جعل الفرس قد (تسربل بالدم) ، أليس ذلك كله دافعا إلى أن يشعر الشاعر بمعاناة فرسه ، فيجسدها في تلك الصورة الفنية باختياره المتعمد لمفرداته المعجمية في علاقاتها النحوية داخل هذا التركيب ؟!

ولننظر كذلك إلى هذه الصورة المركبة في قول امرئ القيس يخاطب الليل

واصفا إياه :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ** عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْبَتِي
فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمْطِي بِصُلْبِهِ ** وَأَرْذَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّكِلِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجِلِي ** بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ ** بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُفٍّ جَنْدَلِ

إن (الليل) اسم من سماته الانتقائية أنه (- عاقل) و (- حيوان) ، لكن امرأ

القيس خاطبه بالفعل (قلت له) ، وهو فعل من سماته الانتقائية أنه يتطلب

(+ مفعولا به عاقلا يصح منه الاستماع)، والليل ليس من سماته ذلك كما أسلفنا، وهذا أول كسر في السمات الانتقائية يعمل على تجسيد المعنى بخطاب الشاعر إياه خطاب اليأس من انجلائه بالإصباح.

ثم يسند امرؤ القيس إلى هذا الليل الأفعال التالية بمقيداتها (تمطى بصلبه - أردف أعجازا - ناء بكلكل)، وهذه الأفعال من سماتها الانتقائية أنها تتطلب فاعلا (+ حيوان)، والليل ليس كذلك أيضا، وتنكسر قواعد الاختيار مرة أخرى، ويبني الشاعر لهذا الليل صورة مخيفة؛ إذ إنه لما جعل له «صلبا قد تمطى به، ثنى فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب، وثلاث فجعل له كلكلا قد ناء به، فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده، إذا نظر قدامه، وإذا نظر خلفه، وإذا رفع بصره ومدّه في عُرْض الجوّ»^(١).

إن هذا الليل بندائه وإسناد تلك الأفعال إليه - في سياقه النصي - ليس ليلا حقيقيا، إنه ليل ينتمي إلى عالم امرئ القيس، لا يحس به إلا من عاش همومه وعانى معاناته.

وقد اختار الشاعر حرفا من حروف المعاني يعمل على تعميق تلك الصورة، وهو الحرف (على) في قوله:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ * * * عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْتِي

ودلالة هذا الحرف على (الاستعلاء) توحى بأن هذا الليل - بكل هذه الصفات التي خلعها عليه الشاعر - قد استعلّى وجثم على صدر الشاعر، ولَفَّه بعباءته السوداء التي لا يكاد يرى فيها الشاعر أنامله من شدة السواد.

(١) دلائل الإعجاز: ص ٧٩.

إن حقيقة هذا الليل تتضح أكثر إذا لاحظنا تقييدا نحويا دلاليا آخر هو قول الشاعر (بأنواع الهموم)، ففي اختيار هذا القيد النحوي - بهاتين الصيغتين الصرفيتين الدالتين على الجمع - ما يؤكد أنه ليل فني ينتمي إلى عالم الشاعر، فقد أرخى أستاره ليس بهمّ واحد بل (هموم)، وليست هذه الهموم متشابهة بل هي (أنواع) مختلفة. ثم إن هذه الهموم بأنواعها المختلفة ما كانت إلا لغاية تتجسد في قوله (ليتي)، ولا بد للشاعر إما أن يستسلم، وإما أن ينتصر على هذا الليل الطويل.

إن هذه الاختيارات الدقيقة المتعمدة للمفردات المعجمية جعلت هذا الجزء الذروة الفنية للقصيدة، أو (عقدة القصيدة)؛ فقد تراكمت الأحداث متشابهة تنتهي برحيل المحبوبة وبقاء الأطلال، حتى أصبح ذلك دأب الشاعر وعادته:

كَدَأْنِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا * * * وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَا سَلِ

وإذا كان وصالاً من هذه المحبوبة (أيا كان المقصود بها)، فإنه ليس وصالا دائما، بل يكون يوما من الأيام ثم ينتهي:

- أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ * * * وَلَا سَيَّامَ يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلٍ

- وَيَوْمَ عَقَرْتُ * * *

- وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَلْدَ * * *

- وَيَوْمًا عَلَى ظَهْرِ الْكَيْبِ * * *

ففي اختيار ظرف الزمان (يوم)، وتكراره هكذا في مطلع كل تجربة مع المرأة، ما يؤكد أن الأحداث متشابهة والوصال ليس دائما.

وتأتي الانفراجة والحل في قول الشاعر بعد حديثه عن الليل مباشرة:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا ** بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوْبِدِ هَيْكَلِ

فما غُدُوهُ في هذا الصباح الباكر إلا انتصار على همومه وأحزانه ، ووسيلته هي (فرسه) ، وفروسيته هي حياته التي يمكن أن يهرب إليها ، رغم أن محبوبته تعيش بداخله :

تَسَلَّتْ عَمَائِاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصَّبَا ** وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنْسَلِ

إنه يستطيع الانتصار على أحزانه وهمومه رغم بقاء الحب .

مما سبق يتبين أن السياق النصي يوجه اختيار الشاعر لمفرداته المعجمية داخل التراكيب النحوية ، وأن كل هذا يعمل على بناء المعنى النحوي الدلالي حقيقيا كان أم مجازيا .

إن الحقيقة أو المجاز - بما يحمله من تصوير ومحسنات لفظية - ما هما إلا ناتج من نتائج التركيب ؛ لأنه لا دلالة إلا بتركيب ، ولا تركيب إلا بعلاقات ، والعلاقات هي النحو . ولو أننا نزعنا المفردات من التركيب الذي وردت به ، لما أفادت أكثر من كونها مفردة من مفردات اللغة ، تحمل عدة معان ؛ فالمفردة لا يتحقق لها معناها الخاص إلا داخل التركيب ، وعن طريق تضامها مع مفردات أخرى - لها سمات انتقائية معينة - يتم التأثير في المعنى .

والكلمة في الشعر - خاصة - «أكبر قيمة من تلك التي في نصوص اللغة العامة ، وليس صعبا أن نلاحظ أنه كلما كان النص أكثر أناقة وصقلا ، كانت الكلمة أكثر قيمة ، وكانت دلالتها أرحب وأوسع»^(١) ، يتضح هذا في اختيار كلمتي (أثيث) و(مستشزرات) في قول امرئ القيس يصف شعر محبوبته :

وَفَرَحَ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمِ ** أَثِيثٌ كَقَنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِّكِ

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزَرَاتٌ إِلَى الْعَلَا ** تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مُثْنَى وَمُرْسَلِ^(٢)

فلو نظرنا إلى كلمة (أثيث) لوجدنا أن المكون الصوتي (الفونولوجي) لها يطغى عليه صوت (الثاء) الذي يشغل نصف بنية الكلمة ، ويؤذن بتخلل الهواء من بين طرف اللسان والثنائيا العليا ، وهذا المكون الصوتي يحمل في داخله بذور المكون الدلالي لهذه المفردة ؛ إذ الأثيث هو الكثير ، وهو مع كثرتة يتخلله الهواء كما يتخلل عند النطق بهذا الصوت ؛ وهذا كله يوحي باسترسال الشعر ونعومته ؛ ويؤيد ذلك المعنى وصفه بأنه (يزين المتن) والتمن هو الظهر .

والمكون الفونولوجي لكلمة (مستشزرات) يحمل كذلك بذور المكون الدلالي لها ؛ إذ إن «التفشي الذي تلحظه في صوت الشين وانتشار الهواء وامتلاء الفم به حين النطق، يشبه إلى حد كبير انتشار الشعر وتشعيته ، وذهابه هنا وهناك»^(١) ، ففي هذا اللفظ - كما يقول الدكتور مصطفى ناصف «يبدو الطريق صعبا غير معبد ولا مألوف ، ويبدو الحرص على الظلمات في قنو النخلة المجعد»^(٢) .

وتتضافر المفردات الأخرى في هذا الجزء فتعمل على تأكيد ذلك المعنى ، فهذا الشعر (أسود ، فاحم ، أثيث ، كقنو النخلة المتعثكل ، غدائره مستشزرات إلى العلا ، تضل العقاص في مثنى منه ومرسل) .

(*) الفرع: الشعر التام ، الفاحم: الشديد السواد ، الأثيث: الكثير ، النخلة المتعثكل: التي خرجت عنأقيدها ، الغدائر: خصل الشعر ، مستشزرات: مرتفعات ، العقاص: ج عقيصة ، وهي الخصلة المجموعة من الشعر .

(١) خصائص التراكيب: د . محمد أبو موسى : ص ٣٣ .

(٢) صوت الشاعر القديم: د . مصطفى ناصف : ص ٧٨ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م) .

(١) تحليل النص الشعري: لوتمان ، ترجمة: د . محمد فتوح : ص ١٢٦ (دار المعارف ، ١٩٩٥ م) .

إن اختيار الشاعر لمفرداته المعجمية إنما يكون في ضوء ما تحمله من سمات انتقائية تؤثر في أداء المعنى وتوجهه من خلال تفاعلها مع مفردات أخرى في علاقات نحوية داخل التركيب ، ويعمق ذلك كله ويؤكد السباق الذي ترد به .

لا يمكننا إذن أن نغفل أحد جانبي المعنى النحوي الدلالي ، فالمفردات المعجمية لا تُلقَى هكذا دون تعليق نحوي ، ودون أن تصب في صيغة صرفية معينة ، أو دون ترابط مع بعضها البعض بحرف من حروف المعاني - في أغلب الأحيان - فالمعجم لا يعمل بعيدا عن التركيب .

وكذلك النظام النحوي لم يعد ليصبح وعاء فارغا ، وإنما عُدَّ لتصب فيه المفردات بدلالاتها الأولية ، وتتفاعل فيما بينها حسبما يقتضيه هذا النظام . وبذلك فحسب تتحقق الإفادة التي هي المعنى النحوي الدلالي الذي يوجهه السياق المقالي (الجمالي أو النصي) ، أو المقامي . مع مراعاة أن السياق المقامي إنما يُراعَى عند بناء النص . في حين يتوصل إليه متلقي النص المكتوب من خلال السياق اللغوي للنص ، أما متلقي النص المنطوق فيتوصل إلى معنى النص من خلال المقام دون واسطة؛ لاتحاد حدثي البناء والتفسير في الزمن .

الفصل الثالث

النص

مفهومه - معايير تقسيمه

مفهوم النص ومعايير النصية:

«النص» في اللغة هو الرفع والإظهار، يقال: نصت الظبية جيدها أي نصبتة ورفعته، يقول امرؤ القيس:

وَجِيدٌ كَجِيدِ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ ** إِذَا هِيَ نَصَّتُهُ وَلَا بِمُعْطَلٍ

ومنه سمي ما تُجلى عليه العروس منصة، ومنه النص في السير وهو حمل البعير على سير شديد، ونصبت الحديث أنصه نصاً: رفعتة إلى المحدث عنه^(١).

أما «النص» في الاصطلاح فيختلف باختلاف الزاوية المنظور إليه منها، فهو لدى الفقهاء مختلف عنه لدى المؤرخين عنه لدى الأدباء... وإنما يهمننا مفهومه لدى علماء اللغة، وبخاصة عند علماء النص الغربيين والعرب.

وكلمة (نص Text) مأخوذة من الأصل اللاتيني Texter، وهو فعل بمعنى: نسج، «إلا أن هذه اللفظة تطورت - دلالياً - وأصبحت تعني (نسيج النص)؛ لما يحمله النص من وحدات لغوية طبيعية متسقة»^(٢).

ولا يخفى ما في مادة (نسج) من دلالة على أن النص نسيج من العبارات والجمل والكلمات التي تكون موضوعاً متماسكاً ذا وحدة^(٣).

وقبل أن نخوض في تعريفات علماء النص الغربيين نود أن نبين أن أكثرهم ينظر إلى مصطلحي (النص Text) و(الخطاب Discourse) على أنها مترادفان،

(١) انظر: المعجم الوسيط، مادة (ن ص ص): ج ٢ ص ٩٢٦، وشرح المعلقات السبع الطوال، لابن الأنباري: ص ٦١، وشرح القصائد العشر للتبريزي: ص ٥٩، وشرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٢٢.

(٢) المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث: الشيخ بو قرية: ص ٣٣٩ (علامات، مجلد ١٠، ج ٤٠، ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ / يونيو ٢٠٠١ م).

(٣) انظر: النص الأدبي - تحليله وبناءؤه، د. إبراهيم خليل: ص ١١.

حتى إن أول محاولة للاقترب من وصف ظواهر النص كانت محاولة هاريس Harris ١٩٥٢م، وكانت بعنوان (تحليل الخطاب)، وتابعه «براون ويول» فاختارا لكتابهما العنوان نفسه، ويسير على الدرب نفسه الدكتور محمد مفتاح فيسمي أحد كتبه (تحليل الخطاب الشعري).

والحق أن كلمة (خطاب) قد استقرت - في الذهن العربي خاصة - على أنها الخطاب الشفوي المنطوق الذي لا بد له من متكلم ومخاطب؛ لذا يُترجم مصطلح Discourse بـ (حديث) ويُوضح بأنه يعني: «إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام»^(١).

إن القارئ العربي سيصطدم بكلمة (خطاب) عندما يعلم أنها تعني (النص المكتوب)؛ لذا لا بد من التفرقة بين مصطلح (النص) الذي يصرف الذهن إلى النص المكتوب، وبين مصطلح (خطاب) الذي يصرف الذهن إلى الكلام المنطوق.

ولعل تلك التفرقة بين (الخطاب المنطوق) و(النص المكتوب) كانت سببا في استخدام بعض الباحثين العرب مصطلح (تحليل النص) مقابلا للمصطلح الفرنسي Discourse Analyse، وفي ذلك مراعاة للبيئة العربية المنقول إليها المصطلح^(٢).

وهناك أمر آخر وقع فيه علماء النص الغربيون هو أنهم تناولوا النصوص بشيء من التعميم؛ فلم يفرقوا بين النص الأدبي وغير الأدبي، فنجدهم يعتبرون لغة الإعلانات على الجدران أو اللافتات نصا يعتمدون عليه في تحليلاتهم النصية، بل يعتبرون ذلك مفيدا

(١) - A dictionary of theoretical linguistics, M.A. Al Khuli, P.76 librairie de liban, beruit, 1991.

(٢) انظر: المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث: ص ٣٣١.

يقول فان دايك: «ومن المفيد - بشرط أن يوجد الاستعمال اللغوي والاتصال والتفاعل في شكل نصي خاصة - أن تحلل في علم النص متداخل الاختصاصات تحليلًا منتظمًا أشكال نصية وأبنية نصية مختلفة وشروطها ووظائفها وتأثيراتها المتباينة: المحادثات اليومية والأحاديث العلاجية والمواد الصحفية والحكايات والقصص والقصائد ونصوص الدعاية والخطب وإرشادات الاستعمال والكتب المدرسية والكتابات والنقوش ونصوص القانون والتعليمات وما أشبه»^(١)، وحسبك أن تتصفح كتاب (تحليل الخطاب) لبراون ويول، أو كتاب (مدخل إلى علم اللغة النصي) لفولفجانج هاينه من وديتر فيهفجر - ليتأكد لك ما نقول.

والحق أنه لكي تثمر الدراسات النصية في (علم اللغة النصي) لا بد أن تتركز الجهود على (النص الأدبي)، ولتترك النصوص الأخرى إلى المعنيين بها في مجالات الصحافة والقانون... إلخ.

ولعل ارتباط العربي بالنصوص الأدبية كان وراء عدم انزلاقه خلفهم في هذا الأمر، بخلاف انزلاقه وراءهم في قضية المصطلح؛ فنجد علماءنا عند تناول النصوص قد تركزت جهودهم على النصوص الأدبية^(٢).

(١) علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك، ترجمة: د. سعيد بحيري: ص ١١، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١م.

(٢) على سبيل المثال: تناول الدكتور محمد مفتاح رائية ابن عبدون: الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالْصُّورِ في كتابه: (تحليل الخطاب الشعري).

وتناول الدكتور سعد مصلوح قصيدة المرقش الأصغر: لَابِنَةُ عَجَلَانَ بِالْجَوْ رُسُومٍ لَمْ يَتَعَفَّيْنَ وَالْعَهْدُ قَدِيمٌ في بحثه: (نحو أجرومية للنص الشعري).

وكذلك يتناول الدكتور محمد حاسة في تحليلاته النصية نصوصا شعرية قديمة وحديثة.

لقد شاب مفهوم النص - لدى علماء النص الغربيين - كثيرٌ من الاضطراب، حتى إننا لا نكاد نجد إلا قدرا ضئيلا من الاتفاق في تعريفاتهم للنص، ويمكننا أن نرجع ذلك الاضطراب إلى ما يلي:

- أولا: تشعب البحث النصي الناتج عن التداخل المعرفي الشديد بين البحوث اللغوية والبلاغية والأسلوبية، وزاد الأمر تعقيدا «إدخاله عناصر أخرى تعود إلى علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة والمنطق وغيرها»^(١).

- ثانيا: محاولة علماء النص البحث عن تعريف جامع مانع رغم تعدد أشكال النصوص واختلافها، وكان يجب عليهم - إذا لم يكن بُدٌ من مثل هذا التعريف - أن يحددوا نوع النص، هل هو نص شعري أو نثري أو قرآني... إلخ؟ فلكل نص من هذه النصوص خصائصه المميزة التي لا تصدق على غيره، وليس معنى هذا أن هذه النصوص متباينة إلى حد التدابر والتنافر، بل هناك شيء من الاتفاق يجمع بينها يمكن أن يبنى عليه تعريف يصدق عليها جميعا ويُبقي - هذا التعريف - لكل نوع سماته الخاصة به.

- ثالثا: ظهور اتجاه جديد يربط (مفهوم النص) بمفاهيم تداولية (اتصالية أو اجتماعية) ويعد هذا توسيعا للمفهوم لن يثمر فائدة، بل هو بذلك يندّد عن المعيار وينحرف عن جادة الطريق؛ لإدخال عناصر غير لغوية على لغة النص، مما يزيد الأمر تعقيدا؛ لذلك كله أثار هذا الاتجاه نقدا شديدا وخلافا كبيرا بين الدارسين حول حدود النص وتصورات^(٢).

(١) علم لغة النص، د. سعيد بحيري، صفحة: هـ (مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م).

(٢) انظر: السابق: ص ١١٢-١١٣.

- رابعا: عزوف بعض علماء النص عن مسألة (مفهوم النص)؛ تجنباً للجدل الدائر حولها، وحرصاً على تناول قضايا أكثر عمقا تتعلق بصلب النص^(١)، فلا نكاد نجد أحدهم قد أفرد باباً أو مبحثاً تناول فيه تلك المسألة.

- خامسا: فهم النص من زوايا مختلفة؛ فنجد بعضهم ينظر إلى النص من زاوية تلقيه، وينظر إليه آخرون باعتباره نشاطا لغويا محضا، ويعتبر فريق ثالث الجانب الاجتماعي فينطلقون منه في تعريفهم للنص، ويحاول فريق رابع الجمع بين كل هذه الزوايا فينظر إلى النص نظرة شاملة تعتبر كل الزوايا السابقة.

يمكننا إذن أن نعرض تعريفات النص المختلفة لدى علماء النص مبينين مدى اختلافهم، تبعا للمعيار الذي حَكَمه كل فريق، وذلك كما يلي:

أولا: اعتبار زاوية «تلقي النص»:

ينص براون ويول على أن «النص» هو ما يعتبره المتلقي نصا، فيقولان: «إن المستمع أو القارئ لن يدخرا جهدا لفرض فهم منطقي داخل مقاطع لغوية تعرض عليه تقليديا على أنها نصوص، أي أنه يتعامل مع اللغة المعروضة عليه بهذه الطريقة على أنها تمثل «نصا». لهذا لا نرى فائدة في تحديد عدد من الخصائص النحوية الأساسية التي لابد أن تتوافر في النص حتى يكون النص «نصا». فالنصوص هي ما يعده المستمعون والقراء نصوصا»^(٢).

إنها ينبغي أن تكون الوسائل النحوية بما تشتمل عليه من إمكانات تعمل على تماسك أجزاء النص وبيان حدوده - معيارا من معايير النصية ويعتبران «تأويل المتلقي»؛ فما يعده المتلقي نصا فهو نص، وما لا يعده نصا فليس بنص؛ ولعل ذلك

(١) انظر: السابق: ص ١٠٦.

(٢) تحليل الخطاب: براون ويول: ص ٢٣٨.

يرجع إلى أنهما يحاولان الوفاء للمبدأ الذي انطلقا منه، وهو اعتبار المبدع والمتلقي في عملية تحليل النص وتحديدده.

لكن المتلقي لن يعتبر النص نصا إلا إذا توافرت فيه معايير نحوية وأخرى دلالية تعمل على اتساقه وانسجامه؛ فمعايير النصية نابعة من النص وليست مفروضة عليه من قبل المتلقي، وما يبني المتلقي أحكامه النصية إلا على تلك المعايير النابعة من النص؛ ومن ثم يعد اعتبار (المتلقي) في بيان ماهية النص مجانفة للصواب.

ثانيا: اعتبار «السياق الاجتماعي»:

يعد (هاريس Z S. Harris ١٩٥٢ م) أول من أشار إلى ضرورة توسيع مجال علم اللغة ليتجاوز حدود الجملة إلى (ما فوق الجملة = النص)، وعُرفت هذه المحاولة بـ (فرضية التوسع)، وكان اهتمام هاريس منصباً على العناصر اللغوية المحضة (داخل النص) (١).

لكن من جاء بعده كان يؤمن بأن هذه الفرضية تحتاج إلى إكمال لها من خلال الامتداد إلى عناصر اتصالية (اجتماعية) (٢)؛ لذا اعتبروا السياق الاجتماعي عنصراً أساسياً لتحديد (ماهية النص).

١. أول هؤلاء كان (هارتمان Peter Hartman) الذي يقدم تعريفين للنص:

أولهما سنة ١٩٦٤ م إذ يقول: «يمكننا أن نطلق (النص) على كل ما يرد بلغة، ذلك بأن اللغة تكون في شكل اتصالي أو اجتماعي، كما هي الحال دائماً، أي مرتبط بشريك» (٣).

(١) انظر: مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٢٠-٢١.

(٢) انظر: السابق: ص ٢١.

(٣) السابق: ص ٢٢.

النص: مفهومه - معايير تقسيمه

وهذا التعريف به شيء من التعميم إذ يصدق على الجملة أيضاً؛ فالجملة ترد بلغة، وتأتي في شكل اتصالي أو اجتماعي؛ فهذا التعريف لا يقدم معياراً واحداً يختص به النص، ويتميز به عن الجملة.

ثانيهما سنة ١٩٦٨ م، وفيه يحدد النص بأنه: «أي قطعة ما ذات دلالة وذات وظيفة» (١).

ويعد هذا التعريف محاولة مبكرة جادة نحو تحديد مفهوم النص؛ فقوله: (قطعة) ينفي كونه جملة، لكنه رغم ذلك يصدق على (القطعة = الجزء من النص) كذلك. أما كون هذه القطعة (ذات دلالة) فهذا يعني أن النص متماسك نحوياً ودلالياً، أو بمعنى آخر (متسق منسجم)؛ إذ الدلالة لا تتحقق إلا بذلك. وأما قوله: (وذات وظيفة) فيعني به الوظيفة الاجتماعية كما يتضح من تعريفه الأول سنة ١٩٦٤ م، والحق أن الجملة أيضاً ذات وظيفة.

لقد كاد «هارتمان» يقترب بهذا التعريف من (ماهية النص)، لكن تعريفه جاء مجملاً يحتاج إلى شيء من التفصيل ببيان أن هذه الدلالة إنما تتحقق حسب معايير لغوية معينة داخل النص، وأن هذه المعايير هي التي تميز النص عن غيره من الأشكال اللغوية (العبارة - الجملة - القطعة / الجزء).

٢. وسيرا على هذا الدرب الذي يميل بعلم النص إلى اتجاه (علم الاتصال) إلى حد التسوية بينهما يأتي أحد تعريفات (كالير ١٩٨٠ م) للنص بقوله: «النص هو مجموع الإشارات الاتصالية التي ترد في تفاعل تواصلي» (٢).

(١) (Textlinguistik als linguistische Aufgabe, Hartman, S. 100 1968)

نقلنا عن: علم لغة النص، د. سعيد بحيري: ص ١٠١.

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٨-٩.

وهذا التعريف - بهذه الصورة - يدخل جميع الإشارات الاتصالية غير اللغوية داخل نطاق النص، ومن ثم تعتبر «صفارة ناظر المحطة - على سبيل المثال - نصا على أساس أنها إشارة إلى أن قطارا معيناً مستعد للقيام، وكذلك الصور الرمزية، أو ألوان إشارة المرور الضوئية. ويجب في دراسات النص عند وجود مثل هذا الفهم للنص تناول وصف الإشارات اليدوية المصاحبة، وصيغ التعبير بملامح الوجه (كل مظاهر ما يسمى «لغة الجسم»)، بل إلى المعلومات المحددة في علم التقاربية (نظرية بعد المسافة بين أجسام المتخاطبين أثناء وقائع الاتصال)»^(١).

وبذلك يدخل في إطار النص ما لا يمكن إحصاؤه من الإشارات الاتصالية التي لا يجمعها جامع، ولا يربط بينها رابط قوي، ويسير بعلم النص إلى هوة سحيقة تضطرب فيها المفاهيم. وإذا كانت تلك الإشارات - برغم صعوبتها - مفيدة في تناول (النص المنطوق)، فإنها لن تفيد كثيراً في النص المكتوب لغياب مثل هذه الإشارات في لغة الكتابة؛ ومن ثم لا يبقى أمامنا عند تناول (النص المكتوب) سوى لغته، ولغته فحسب.

٣. ويفرق (بيتوفي ١٩٧٣ م) - في تعريفه النص - بين النص المنطوق والنص المكتوب، فيقول: «النص تتابع العناصر الكلامية المنطوقة أو المكتوبة موظفة بوصفها كلا متكاملًا، حيث يكون مؤهلاً لمواكبة بعض المعايير (غالباً غير لغوية)»^(٢).

(١) السابق: ص ٩.

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٤٥ (الحاشية).

وتتابع العناصر الكلامية يعني ترابطها وانسجامها على مستويي النحو والدلالة، لكن «بيتوفي» لم ينص على ذلك؛ ففي تعريفه شيء من الإجمال، إلا أنه يصدق على النص إلى حد بعيد.

٤. ومن اعتبروا الجانب الاجتماعي في بيان مفهوم النص (فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر)، حيث يريان النصوص «محصلة النشاط اللغوي لأفراد فاعلين اجتماعياً»^(١)، ويفصلان ذلك التعريف في موضع آخر بقولهما: «النصوص تتابع من الأقوال التي تنتج من متكلم واحد، أو أيضاً مجموعة المتكلمين، في موقف فعلي معين بنية محددة، لكي يتم بذلك إحداث حالة مرغوبة لدى المنتج أو المنتجين»^(٢).

فهما يريان كما يرى «بيتوفي» أن النص (تتابع من الأقوال) إلا أنها يعولان على (الموقف) في إنتاج النص، بينما يرى «بيتوفي» أن النص يتنصص ليوأكب بعض المواقف، فالنص عندهما رد فعل لموقف، بينما هو كذلك - أحياناً وليس دائماً - عند «بيتوفي».

وبينما يرى «بيتوفي» أن النص (كل متكامل من الأقوال المتتابعة) وهذا يعني تماسكه وترابط أجزائه - يرى الباحثان أن (التناسق) ليس شرطاً في النصية وليس صفة ثابتة في النصوص، بل هو (مسند تقويمي) يمكن للمفسر - بواسطته أن ينسب للنص صفة (متناسق) أو (غير متناسق)، وفي كلتا الحالتين تعد المتابعة نصاً^(٣) !!

(١) السابق: ص ١٢٠.

(٢) السابق: ص ١٢٣.

(٣) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ١٦١.

١. لقد كان (هارفج Harwag ١٩٦٨م) أول من اعتبر المعايير اللغوية النابعة من النص نفسه أساساً في بيان مفهوم النص؛ إذ يعرف النص بأنه: «وحدات لغوية متتابعة مبنية بسلاسل إضمار متصلة»^(١)، فالإضمار - وهو معيار لغوي - هو الوسيلة الأساسية في بناء النص؛ ومن ثم فكل الجمل المرتبطة بسلاسل إضمار تكون عنده نصاً، «وعندما تتوقف سلاسل الإضمار هذه أو يستبدل بها أخرى، يبدأ بذلك نص جديد»^(٢).

والحق أن اعتبار الإضمار المعيار الوحيد لتحقيق النصية ليس صحيحاً، فهناك وسائل نحوية أخرى كثيرة تتحقق بها وحدة النص منها (العطف والإشارة والإتباع والتكرار... إلخ)، ولعل «هارفج» لما رأى الإضمار لا يكاد يخلو منه نص من النصوص عول عليه، ولم يلحظ الوسائل الأخرى، ربما لخفائها خلف بريق الإضمار.

وعلى أية حال، تبقى لمحاولة «هارفج» قيمتها، وبخاصة أنها محاولة مبكرة

كانت مع بدايات علم النص.

٢. وينطلق (إيزنبرج ١٩٦٨م) من أن (الربط بين الجمل) هو الشرط الأساسي لتحقيق النصية، فيعرف النص بأنه: «متوالية متماسكة من الجمل»^(٣)، ويحدد للنصوص مجموعة من الخصائص^(٤):

أ. تعاقب أفقي للجمل.

ب. تحديد الجهة اليسرى واليمنى.

ج. الاستقلال النسبي.

د. التناسق داخل تتابع الجمل.

هـ. العلاقات الدلالية بين المكونات السطحية.

(١) السابق: ص ٢٧.

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٢٨.

(٣) السابق: ص ٢٥، حاشية (١).

(٤) السابق: ص ٢٥.

و«إيزنبرج» بذلك يكون قد حدد للنص مجموعة من الخصائص التي تصدق عليه بالفعل، وتوضح كيفية بنائه، وتعد هذه الخصائص تفصيلاً لما أجمله في تعريفه للنص؛ ومن ثم فالنص عنده: متوالية من الجمل، يتحقق لها شيء من الاستقلال النسبي، متماسكة (نحوياً عن طريق التناسق داخل تتابع الجمل، ودالياً عن طريق العلاقات الدلالية بين المكونات السطحية).

وبذلك يعد تعريف «إيزنبرج» أصدق تعريف للنص من بين الكم الهائل من التعريفات التي قدمها علماء النص حتى الآن؛ ذلك لأنه اعتمد على معايير لغوية في تحديد ماهية النص وبخاصة معيار (التماسك النحوي والدلالي)، إلا أن النص لا يعد (متوالية من الجمل) في كل الأحيان، فالنص - في كثير من الأحيان - يتكون من (متوالية من الأجزاء)، وعلى أية حال فالأجزاء في النهاية مكونة من الجمل.

٣. وكما وجدنا «هارفج» قد اقتصر على الإضمار - بوصفه وسيلة من وسائل التماسك النحوي - في تحديد ماهية النص، نجد (برينكر Brinker ١٩٧٣م) قد اقتصر على (التماسك الدلالي بين موضوعات النص) في تعريفه للنص بأنه: «كمية منتظمة من القضايا... تربط بخلفية قاعدة النص الموضوعية بواسطة علاقات دلالية - منطقية»^(١).

و«برينكر» بذلك يهمل جميع (وسائل التماسك النحوي) التي لا بد منها لكي ينتصص النص؛ وذلك لأنه عنى اعتبروا (الموضوع الأساسي للنص) منطلقاً وهدفاً لدراسات علم اللغة النصي، وجعلوا جميع (موضوعات النص الفرعية) تشدُّ إليه وترتبط به بواسطة العلاقات الدلالية.

(١) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٥٠.

٤. ومن اعتبر الجانب الدلالي في تعريف النص « دانيش، وهاليداي ورقية حسن، وكالمير في أحد تعريفاته »:

أ - فيعرف « دانيش Danes ١٩٧٦م » النص بأنه: « تعاقب الموضوعات »، وتعاقب الموضوعات يعني تماسكها دلاليا، فكل موضوع تالٍ دائما وعائداً إلى الموضوع السابق، وكلما تقدم النص تمت الاستزادة من المعلومة^(١).

ولا يخفى ما في تعريفه من تعميم واقتضاب واضحين.

ب - ويعرف « هاليداي ورقية حسن Halliday - Hasan ١٩٧٦م » النص بأنه وحدة دلالية إذ يقولان: « أفضل ما ينظر إلى النص على أنه وحدة دلالية: وحدة ليست في الشكل بل في المعنى »^(٢).

ويعني هذا - للوهلة الأولى - أنها يعولان على « التماسك الدلالي »، في حين أنهما في موضع آخر من الكتاب نفسه: « الاتساق في الإنجليزية Cohesion In English » يريان أن الروابط النحوية هي المصدر الوحيد لخاصية النصية، يقول المؤلفان: « تظهر الروابط الأدواتية بين الجمل أكثر وضوحاً، لأنها المصدر الوحيد لخاصية النصية »^(٣).

ويمكننا دفع هذا التعارض بين القولين بقولهما في موضع آخر: « إن مفهوم الترابط النصي يفسر وجود العلاقات المعنوية الأساسية التي بموجبها يمكن أن نعتبر أي مقطع منطوق أو مكتوب نصاً »^(٤).

(١) انظر: السابق: ص ٣١-٣٢.

(٢) Cohesion in English, Halliday and R. Hassan P. 2 London, first published. 1976

(٣) Cohesion in English, p. 9

Ibid. p.13 (٤)

إن « العلاقات الدلالية/ المعنوية » لا تتحقق إلا « بالعلاقات النحوية » و « الروابط الأدواتية » هي إحدى الوسائل النحوية، والتي بواسطتها يتحقق « الترابط النصي »، وهذا الترابط النصي هو الذي يفسر وجود العلاقات المعنوية / الدلالية، وبذلك كله يتحقق النص ؛ فالنحو بما يحتويه من وسائل هو مصدر النصية.

وإجمالاً نقول إنها أرادت بذلك كله تأكيد أن النص لا يتحقق إلا بالتماسك الدلالي / المعنوي، وهذا التماسك المعنوي لا يتم إلا إذا تحقق التماسك النحوي، والتماسك النحوي إنما يكون بما يحتويه النحو من وسائل منها (الروابط الأدواتية)، فالروابط الأدواتية - وغيرها من الوسائل النحوية - هي مصدر النصية.

فالنص إذن وحدة دلالية تتحقق في علاقات نحوية، وإنما فضل الباحثان النظر إلى النص على أنه « وحدة دلالية »؛ لأن الدلالة قابضة خلف الشكل / العلاقات النحوية، فهي تحتاج إلى بحث وتنقيب، أما « الوحدة النحوية » فظاهرة، وإحساساً منهما بخفاء الوحدة الدلالية عبّراً بصيغة التفضيل فقالا: « أفضل ما ينظر إلى النص A text is best regarded as »^(١)، فهما لا ينفيان دور النحو ؛ بل

يريان أنه مصدر النصية، ويؤكد ذلك كله عنوان الكتاب الذي ترجمته « الاتساق في الإنجليزية » والاتساق يعني « الترابط النحوي »، كما أن الناظر في كتابها يجد أن وسائل التماسك النصي التي قدمها تكاد تكون كلها وسائل نحوية محضة.

ج - وكما ذهب (هارفج) من قبل إلى تعريف النص بناء على وسيلة واحدة من وسائل التماسك النحوي (سلاسل الإضمار) فعل « كالمير ١٩٨٠م » - في أحد تعريفاته - الشيء نفسه، إذ انطلق في تعريفه النص من (سلاسل النظائر) أي تكرار الوحدات المعجمية عن طريق الترادف أو التضاد أو التبادل المعجمي أو التعويض ... إلخ.

يقول «كالمير»: «يمكن تعريفه دلاليا بأنه التركيب المكون من واحد إلى (س) من مستويات النظائر، حيث يتوقف عددها على عدد السمات المهيمنة في النص»^(١).
والحق أن (تكرار الوحدات المعجمية) - رغم أهميته - لا يكفي وحده لإيضاح وحدة النص وتماسكه؛ لأن ذلك اقتصار على وسيلة واحدة من وسائل التماسك النحوي الذي يعد قسما للتماسك الدلالي، كي تتحقق للنص نصيته ويصبح وحدة واحدة متماسكة.

فقد تتكرر الوحدات المعجمية ومع ذلك لا تتحقق النصية، ولا تعد المتوالية نصا، ولننظر إلى هذا المثال الذي أورده (هاينه من وفيهيجر):
- لا يوجد أحد لا يأخذ غناؤها بلُّه. مغنيتنا اسمها (جوزفين). (غناء) كلمة من أربعة أحرف. المغنيات يصنعن كلمات كثيرة.

ففي هذا المثال «يوجد فعلا تكرار الصفة الدلالية في الوحدات المعجمية الممثلة عبر (الغناء) المبنية بواسطة هذا اللكسيم، لكن لا يفهم هذا التابع القولي بالطبع على أنه نص مترابط»^(٢).

د - ومن اعتمد - من العرب - على لغة النص في بيان ماهيته «الدكتور صلاح فضل» إذ يعرف النص بقوله: «هو القول اللغوي الأدبي المكتفي بذاته، والمكتمل في دلالاته. فما يحقق هذا الشرط - مهما كان طوله - يعد نصا»^(٣). وهذا التعريف به شيء من التعميم والإجمال؛ فما هي معايير «الاكتفاء والاكتمال» المشار إليهما؟

(١) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٤١.

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٤٢.

(٣) مناهج النقد المعاصر: د. صلاح فضل: ص ١٥٧.

يتضح الأمر في كتاب آخر للدكتور صلاح فضل يقول فيه: «كل نص لابد له أن يتصف بالوحدة ويحقق التماسك، وإلا أصبح مجرد متواليات من الكلمات»^(١).
فالنص - إذن - لابد أن يكون متماسكا متصفا بالوحدة، كي يتحقق له الاكتفاء بذاته والاكتمال في دلالاته.

وتنجلي حقيقة النص أكثر كما يفهمها الدكتور صلاح فضل - وإن لم ينص على ذلك في تعريفه - في مواضع أخرى يبين فيها مكونات النص، فيقول في أحد المواضع: «وإذا كان مصطلح (المتاليات) قد استخدم للإشارة إلى مجموعة الجمل التي تتميز فيما بينها بتحقيق شروط الترابط (Connection) فإنه من المعتاد أن تقوم هذه المتاليات بتكوين نصوص تتسم بالتماسك»^(٢).

فالنص - كما يفهم من كلام الدكتور صلاح فضل السابق - مجموعة من المتاليات (الأجزاء) تتسم بالتماسك، والمتالية: مجموعة من الجمل تتحقق بينها شروط الترابط؛ أي (مجموعة من الجمل المترابطة).

يمكننا إذن أن نقول إن فهم الدكتور صلاح فضل لحقيقة النص كان أدق من تعريفه المجمل له.

هـ - ويعرف «الدكتور إبراهيم خليل» النص معتمدا على معايير لغوية، لكنه لا يقدم تعريفا للنص على إطلاقه، بل يعرف «النص الأدبي» تحديدا، فيقول: «إن النص الأدبي نسيج من الألفاظ والعبارات التي تطرد في بناء منظم، متناسق، يعالج موضوعا أو موضوعات عدة في أداء يتميز على أنماط الكلام اليومي، والكتابة غير الأدبية، بالجمالية التي تعتمد على التخيل، والإيقاع، والتصوير، والإيجاء، والرمز»^(٣).

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل: ص ٢٦٨.

(٢) السابق: ص ٢٥٥.

(٣) النص الأدبي - تحليله وبناءؤه: ص ١٣.

والذي يعيننا في هذا التعريف أنه عد النص (نسيجا) من عناصر لغوية في (بناء منظم متناسق)، وكلمة (نسيج) توحى بالترابط والتماسك، و(التناسق) تأكيد على هذا التماسك، ويبدو من التعريف أن المراد هو (التماسك النحوي)، فبرغم أن الدكتور إبراهيم خليل يرى أن النص يعالج موضوعا أو مجموعة من الموضوعات، إلا أنه لم يشر إلى ضرورة أن يجمع هذه الموضوعات رابط دلالي يؤلف بينها ويجمع شتاتها، واقتصر على التصريح بالروابط النحوية.

لكننا إذا تتبعنا تناوله للقصاصد التي حللها يتضح لنا أنه لا يعتمد (التماسك النحوي) فحسب عند تناوله لقصيدة من القصائد، بل يجمع معه بيان (التماسك الدلالي)، ففي قصيدة (محمد بن وهيب الحميري) التي مطلعها^(١):

العُدْرُ إِن أَنْصَفَتْ مُتَّضِحٌ * * * وَشُهُودُ حُبِّكَ أَدْمَعُ سَفْحُ

يرى أن البيت التاسع (وهو بداية الجزء الثالث من القصيدة، حسب تقسيمه لها) متصل بالبيت الثامن (آخر أبيات الجزء الثاني) اتصالا شديدا، لا من خلال الربط النحوي، وإنما من خلال الربط الدلالي الذي يتضح في طبيعة الصلة بين ذكر الفخر (في نهاية البيت الثامن)، ووصف الصباح (في نهاية البيت التاسع) الذي يشبهه بوجه الخليفة الذي يفيض - في البيت العاشر - على الدنيا التي كانت - في البيت الثامن - غارقة في السواد^(٢).

(١) انظر: نص القصيدة في: النص الأدبي - تحليله وبناءه: ص ٦٦-٦٧.

(٢) انظر: النص الأدبي - تحليله وبناءه: ص ٦٨. والأبيات من (١٠٨) هي:

حَتَّى اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ خَلْعَتَهُ وَفَشَا خِلَالَ سَوَادِهِ وَضَحُ
وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجَهَ الْخَلِيفَةَ حِينَ يُمْتَدِّحُ
نَشَرَتْ بِكَ الدُّنْيَا حَاسِنَهَا وَتَزَيَّنَتْ بِصَفَاتِكَ الْمَدْحُ

وما سبق يعرف في التراث البلاغي بـ(حسن التخلص) وهو أن ينتهي الشاعر من ذكر شيء، ويبدأ في شيء آخر له به بعض الصلة، وتلك وسيلة من وسائل (التماسك الدلالي).

وفي قصيدة (لقيس بن ذريح) يبين وسائل الترابط النحوي بين أجزائها ثم يقول: «وإلى جانب هذه العلاقات، بث الشاعر في قصيدته نوعا آخر من الروابط يعتمد المعنى. وهو أن يلجأ إلى ذكر الشيء ثم يأتي بعد ذلك بتفصيل له، وهذا يجعل الجزء الثاني من القول الشعري مرتبطا بالجزء السابق»^(١).

كما سبق يتضح أن الدكتور إبراهيم خليل أورد كلمة (متناسق) في تعريفه للنص، وهو يريد بها (التماسك النحوي والدلالي) معا إلا أن إشارات إلى (التماسك الدلالي) - بوصفه معيارا من المعايير النصية - لم تكن واضحة وضوح إشارات إلى (التماسك النحوي).

وبذلك يصبح تعريف الدكتور إبراهيم خليل قد اقترب كثيرا من ماهية النص، وأنه وإن كان يخص (النص الأدبي) بهذا التعريف، فإن حده بكونه (نسيجا من الألفاظ والعبارات التي تطرد في بناء منظم متناسق، يعالج موضوعا أو موضوعات عدة) يصدق على كل نص أدبي وغير أدبي، أما ما سوى ذلك مما ورد في تعريفه فيخص (النص الأدبي) دون سواه.

و - أما «الدكتور محمد حماسة» فيرى أن النص «لا يمكن أن (يتنصص) إلا بقتل جديدة من البنية النحوية والمفردات، وهذه الجديدة هي التي تخلق سياقاً لغوياً خاصاً بالنص نفسه»^(٢).

(١) السابق: ص ١٥٩.

(٢) اللغة وبناء الشعر: ص ٧.

ولا يخفى ما في قوله (قتل جديدة) من بيان مدى تماسك أجزاء النص وتلاحمها، وهذا التماسك وذلك التلاحم إنما هو نتاج التفاعل بين (البنية النحوية) و(المفردات التي تشغلها)، فالتماسك بشقيه (النحوي والدلالي) لا يتحقق إلا إذا تحقق (المعنى النحوي الدلالي).

ومن ثم فالنص لا يتنصص إلا إذا دل على (معنى نحوي دلالي) واحد، أو مجموعة من المعاني النحوية الدلالية المتقارنة المتعاقبة، وإنما يتحقق ذلك كله بالتماسك النحوي والدلالي بين أجزاء النص.

رابعاً: اعتبار مجموعة من المعايير المتضافرة:

يورد (بوجراند و دريسلر ١٩٨١ م) سبعة معايير للنصية / النصانية (أي السمات الأساسية للنصوص أو ما يكون به الكلام نصاً) ووافقها «الدكتور سعد مصلوح» الذي يقول: «وقد أثرنا هنا أن نعتد تعريف «روبرت ألان دي بيوجراند» و «ولفجانج أولرخ دريسلار» لمفهوم النص من حيث إنه «حدث تواصلي Communicative Occurrence، يلزم لكونه نصاً أن تتوافر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير»^(١). ويمكننا أن نقسم هذه المعايير قسمين^(٢):

أولاً: معايير تتصل بالنص في ذاته:

(١) نحو أجرومية للنص الشعري: د. سعد مصلوح: ص ١٥٤، (فصول، ع ٢، ١ سنة ١٩٩١ م).
(٢) حول هذه المعايير انظر: مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٩٣ - ٩٥، و: نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٥٣ - ١٥٤.

١. التماسك النحوي^(١) Cohesion: وتعكس هذه السمة تبعية الأبنية السطحية في النص بعضها إلى بعض.

٢. التماسك الدلالي^(٢) Coherence: وتعني استمرارية المضمون أي (ترابط العلامات الدلالية).

ثانياً: معايير تحقق الاتصال:

١. القصدية / المقصد Intentionality: وتعني موقف منتج النص لإنتاج نص متماسك نحويًا ودلاليًا.

٢. المقبولية / القبول Acceptability: وتعني موقف متلقي النص حول توقع نص متماسك نحويًا ودلاليًا.

٣. المعلوماتية / الإعلام Informativity: أي أن يوصل النص مقداراً مناسباً من المعلومات، تتسم بالجدّة.

٤. المقامية / حالة الموقف Situationality: أي أن معنى النص لا يتحدد إلا من خلال السياق الاجتماعي أو الموقف الذي ينشأ فيه.

٥. التناص / تداخل النصوص Intertextuality: أي اعتبار علاقة النص بالنصوص الأخرى التي سبقته.

والحق أن الذي يتحقق به النص هما المعياران الأول والثاني (التماسك النحوي والدلالي) فهما المعياران الملصقان بالنص مباشرة، أما المعايير الخمسة الأخرى فهي جوهرية للمستخدم (المتلقي والمنتج)، وإنما اعتبرها (بوجراند و دريسلر) لأنها

(١) ترجم الدكتور سعد مصلوح هذا المصطلح بـ (السبك)، وترجمه الدكتور فالح العجمي بـ (التماسك).

(٢) ترجمة الدكتور سعد مصلوح بـ (الحبك)، وترجمه الدكتور فالح العجمي بـ (التناسق).

ينظران إلى النص بوصفه (حدثا تواصليا - Communicative Occurrence).

إن التحقق المادي (اللغوي) للنص إنما يتم بمعياري التماسك النحوي والدلالي، وما سواهما من معايير إنما يتصل بالسياق أو منتج النص أو متلقيه، وكلها أمور خارجة عن النص بوصفه (حدثا لغويا)، واللغة هدفها تحقيق التواصل بين مستعمليها، فكل (حدث لغوي) هو في النهاية (حدث تواصلي)، وليس كذلك العكس؛ ومن ثم فالنص إنما يتنصص إذا كان متماسكا نحويا ودلاليا.

معايير تقسيم النص:

إذا نظرنا إلى النص الجاهلي كالمعلقات وجدناه قد جاء مكتوبا على صفحة الورق كتلة واحدة دون تقسيم إلى أجزاء أو مقاطع، لا تفصل بين أبياته علامات ترقيم؛ فالقصيدة الجاهلية تبدو مجموعة من الأبيات المتتالية دون فواصل، والقصيدة في حقيقتها ليست مجرد مجموعة من الأبيات «كما توحى النظرة السطحية المتعجلة بل تبنى من مستويات، وهي التي يمكن تقسيم العمل الأدبي إليها»^(١).

إن القصيدة الجاهلية - وهذه طبيعتها - تلقي على المفسر عبء تقسيمها، و«تصدي الباحث لهذه المهمة في دراسة الشعر القديم هو عمل مخوف بالمخاطر، معرض لخطر النسبية، وتحكيم الذوق»^(٢)؛ ومن ثم يصبح «من حق القصيدة

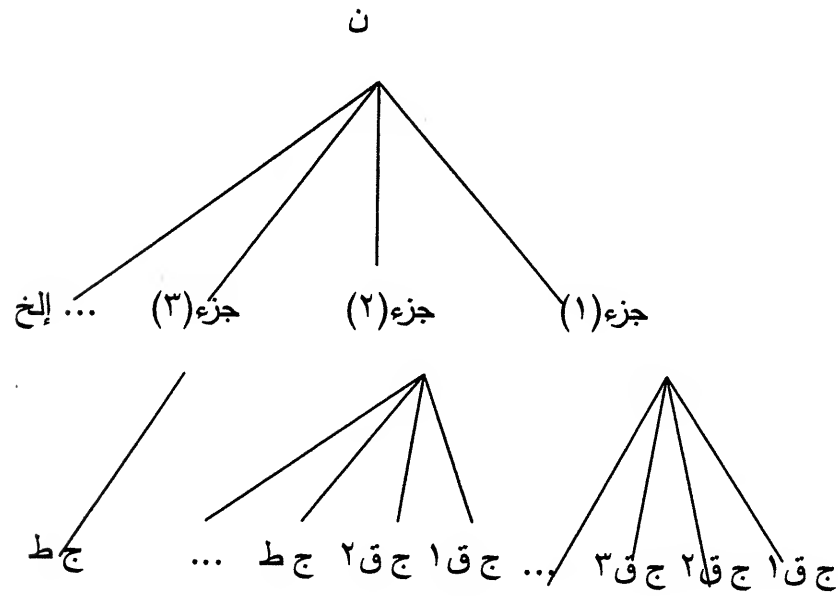
(١) مناهج النقد المعاصر: د. صلاح فضل: ص ٩٣.

(٢) نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٥٥.

والشاعر والقارئ أن يتساءلوا عن الأساس الذي قام عليه هذا التقسيم، وعن الكيفيات التي نحميه بها من خطر الذاتية والتحكم»^(١).

وقبل أن نبين معايير التقسيم التي ينبغي أن يعتمد عليها المتلقي لكيلا يتهم بالذاتية وتحكيم الذوق - لابد أن نوضح إلام تقسم القصيدة؟

لقد قامت أول محاولة في «علم اللغة النصي» بتقسيم النص إلى مجموعة من الجمل المتتالية؛ ذلك لأنها تنظر إلى النص على أنه (متوالية متماسكة من الجمل) كما يرى «إيزنبرج ١٩٦٨ م»؛ ولعل ذلك يرجع إلى محاولة علماء النص - في ذلك الوقت المبكر - أن تتسع (قواعد نحو الجملة) لتشمل (النص) وتصدق عليه بنفس القدر؛ ومن ثم وسعوا مجال الدراسة بإضافة الرمز ن = نص، ومثلوا ذلك بالشكل التالي^(٢):

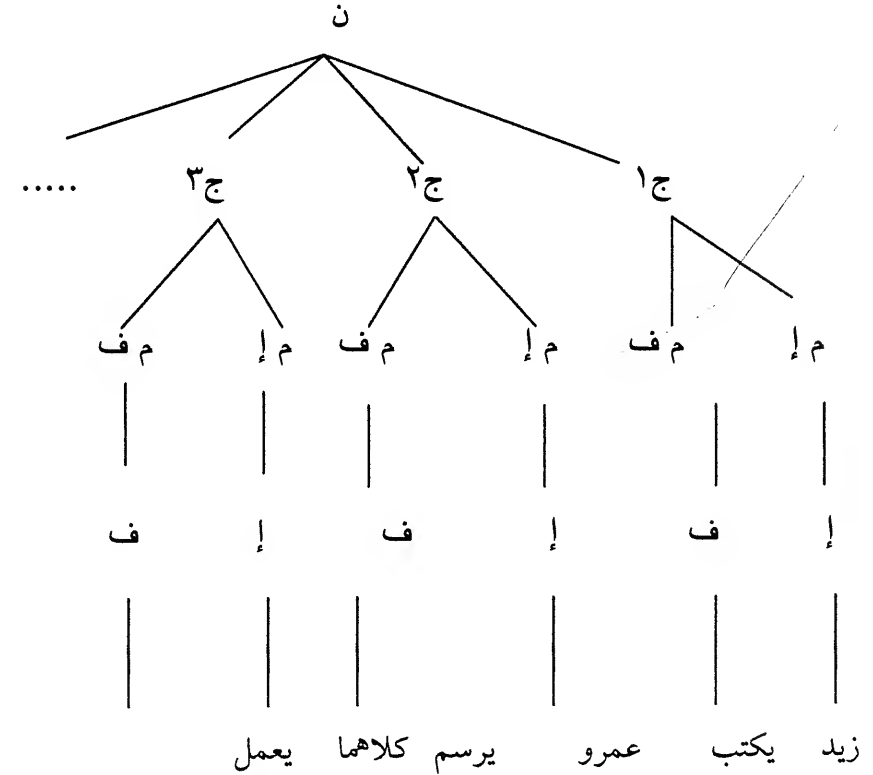


حيث ج ق = جملة قصيرة، و ج ط = جملة طويلة.

(١) السابق: الصفحة نفسها.

(٢) انظر: مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٢٤.

لكن النص في حقيقته ليس مجموعة من الجمل، بل هو - إن لم يكن جزءا واحدا أو جزأين - مجموعة من الأجزاء، كل جزء مجموعة من الجمل القصيرة المتتالية، أو الطويلة، أو جملة واحدة طويلة، أو نسيج من الجمل القصيرة والطويلة؛ ومن ثم يمكن تمثيل أجزاء النص بالشكل التالي:



النص: مفهومه - معايير تقسيمه

ومن قام بتقسيم النص القديم إلى مجموعة من الأجزاء - شراح النصوص الشعرية، إلا أن تقسيماتهم قد اعتمدت على حدسهم وذوقهم الذي يجعل من جزء ما حديثا عن شيء معين، ومن جزء آخر حديثا عن شيء مختلف؛ ومن ثم تباينت تقسيماتهم لاختلاف معارفهم واهتماماتهم.

إن تقسيم النص إلى مجموعة من الأجزاء ليس المراد به تحنيط هذه الأجزاء، بل المراد هو تسهيل عملية الاستقبال، وفهم الحركة الداخلية للنص^(١).

ولكي نقوم بتقسيم النص إلى أجزائه المكون منها، لا بد أن نعتمد على مجموعة من المعايير التي تنأى بنا عن الذاتية وتحكيم الذوق، ولما كان النص نسيجا من النحو والدلالة، اعتمدنا في تقسيمه على معايير نحوية نحو: (التحولات في أزمنة النص - تحولات الضمائر - التقابل والتجاور بين الخبر والإنشاء)، وأخرى دلالية نحو: (التفريع الدلالي - التداعي الدلالي).

أولا: المعايير النحوية:

١. التحولات في أزمنة النص:

تقدم اللغة العربية مجموعة من الأسماء والحروف والأفعال تشترك جميعها في الدلالة على الزمن، لكن هذه الدلالة ليست واحدة في جميع هذه الأقسام؛ إذ تختلف درجة هذه الدلالة من قسم لآخر.

فالظرف (وهو من الأسماء حسب تقسيم القدماء للكلم) « قد توضع عليه، أصلا، لتعيين جهة زمنية محددة »^(٢)، وكذلك ما لحق به من الحروف الدالة على الزمن؛

(١) انظر: النحو والدلالة: ص ١٦٥، و: مدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٣٨٣.

(٢) الزمن واللغة. د. مالك يوسف المطلبي: ص ٢٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م.

ولذلك أمكن اختبار جهة زمن الفعل به^(١)، كما فعل سيبويه في أول كتابه عندما قال: «فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس، وسأتيك غدا. وأما المحال: فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا، وسأتيك أمس»^(٢).

وظروف الزمان المتواضع عليها هي: إذ وإذا وإذًا ولمّا وأيّان ومتى، ويلحق بها مجموعة من الأسماء والحروف الدالة على الزمان، وهي^(٣):

١. المصادر المسوقة لبيان الأوقات نحو: أتيتك طلوع الشمس أو قدوم الحاج.
٢. صيغة اسم الزمان (مفعول) نحو: أتيتك مَطْلَعَ الشمس أو مَقْدِمَ الحاج.
٣. بعض حروف الجر نحو: مذ ومنذ.
٤. بعض الأسماء التي تطلق على المسميات الزمانية نحو: سحر وسحرة وبكرة وغدوة وضحوة ومساء وعشية والآن وأمس.
٥. بعض الأسماء المبهمة الدالة على أوقات أو ما أضيف إليها، ومنها:
أ. ما دل على مبهم من المقادير، نحو (كم) في مثل: كم ساعة بقيت هنا؟
ب. ما دل على مبهم من العدد المميز بما يفيد الزمان، نحو: خمسة أيام وثلاث ليال.
ج. ما دل على مبهم من الأوقات، نحو: حين ووقت وساعة ويوم وشهر وسنة وعام وزمان وأوان.
د. بعض المبهمات المفتقرة إلى الإضافة، والمفيدة للعلاقة بين أمرين صالحة لمعنى الزمان، نحو: قبل وبعد ودون ولدن وعند وبين ووسط.

(١) انظر: السابق: الصفحة نفسها.

(٢) الكتاب: ج ١، ص ٢٥.

(٣) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ١١٩ - ١٢٠، وص ٢٤١.

أما دلالة الفعل على الزمن فتختلف عن دلالة الظرف عليه؛ إذ الزمن يستفاد من الظرف بالمطابقة، ومن الفعل بالتضمن^(١).

وقد دار حول دلالة صيغ الأفعال (فعل - يفعل - افعل) على الزمن جدل طويل في العصر الحاضر^(٢)، وسنعرض هنا لرأين:

* أولهما يرى أن هناك زمنا صرفيا وآخر نحويا، وأن الزمن الصرفي المعروف من الصيغ يظل مصطحبا داخل السياق، ما لم توجد قرينة تمنع من إرادة ذلك^(٣)، وخلاصة هذا الرأي تتمثل فيما يلي:

١. (فَعَلَ) وما شابهها تدل بينيتها الصرفية على الماضي، وتظل تلك الدلالة ملازمة لها داخل سياق الجملة الخبرية والمؤكدّة والاستفهامية وأحيانا مع (ليت)، وفيها عدا ذلك من جمل إنشائية تتحول تلك الدلالة إلى الحال أو الاستقبال.
٢. (يَفْعَلُ) وما شابهها تدل بينيتها الصرفية على الحال أو الاستقبال تبعا للضامم والقرائن، وتظل تلك الدلالة ملازمة لها في سياق الجمل الخبرية المثبتة والمؤكدّة غير المنفية والإنشائية، وتتحول تلك الدلالة إلى الماضي في سياق النفي بـ (ما - لم - لمّا - ليس - لن)، وكذلك مع التحضيض والتمني بواسطة النواسخ، نحو: هلا كنت قد فعلت، وتمنيّت أن لو كنت قد فعلت.
٣. (افعل) تدل على الحال أو الاستقبال، يقول الدكتور تمام حسان: «فالحال والاستقبال هما معنى الأمر بالصيغة...»^(٤).

(١) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ١٢٢، والزمن واللغة: ص ١٩٢.

(٢) انظر على سبيل المثال: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ٢٤٠ - ٢٦٠، والزمن واللغة للدكتور مالك المطليبي، واتجاهات التحليل الزمني للدكتور محمد عبد الرحمن الريحاني (دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨ م).

(٣) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ٢٤٥.

(٤) السابق: ص ٢٥٠ - ٢٥١.

* أما الرأي الثاني فيرفض القول بوجود زمن صرفي ؛ ويرى أن «مثل هذا الأمر لا يمكن تصوّره ألبتة؛ إذ لا يمكن تصوّر صيغة منغلقة على نفسها في اللغة، تحتفظ بدلالة مستقلة خارج مجال الاستعمال»^(١)، وينتهي إلى أن «الصيغ في اللغة العربية تخلو من الدلالة على زمن في المستوى الصرفي، فإذا وضعنا بإزائها قيمة عددية فإن هذه القيمة هي: صفر. أما في المستوى النحوي فقد تستمر الصيغ بالقيمة الصرفية ذاتها: أي الصفر الزمني، وقد يتحرك قسم من هذه الصيغ - وهذا القسم، على وجه الخصوص، الصيغ الفعلية باستثناء صيغة الطلب ...- ليدل على زمن. فإذا دل على زمن ؛ أي قصد إلى الزمن من ذات الصيغة، فإن صيغة (فعل) تدل على الماضي، وصيغة (يفعل) تدل على الحاضر، ولا صيغة للمستقبل في اللغة العربية»^(٢).

وفي هذا المستوى (المستوى النحوي) يرى أصحاب هذا الرأي أن «الصيغ يُنزع - في السياق الإنشائي (عدا الاستفهام) - إلى تفرّغ بنيتها من الزمن، إلا إذا نُصّ عليه بقرينة. وهي تقابل بذلك الصيغ في السياق الخبري التي تنزع إلى الزمن، إلا إذا نُصّ بقرينة على عدمه»^(٣).

وينتهي الرأي الثاني إلى أن الاستفهام لا دخل له بالزمن إلا في موضعين: الأول: ويستفهم فيه عن صيغة (يفعل) في الحاضر بالهمزة، والثاني: ويستفهم فيه عن صيغة (يفعل) في المستقبل بـ(هل). ويشير إلى أن التوكيد والشرط والإنشاء ليس بينها وبين الزمن أية علاقة^(٤).

(١) الزمن واللغة: ص ٢٥.

(٢) السابق: ص ٨٢.

(٣) السابق: ص ١٢٦.

(٤) انظر: السابق: ص ٣٠٩.

وعلى أية حال، فهذه المحاولات يؤخذ عليها أنها نظرت إلى الزمن داخل الجملة، ولم تتعد ذلك لتنظر إليه داخل النص.

إن الزمن النصي يختلف كثيرا عن الزمن داخل الجملة ؛ إذ إن الكثير من الإشارات الزمنية الواقعة في سياق الجملة الرئيسية بالنص توجه الزمن في جميع الجمل الفرعية المترابطة بها ؛ فتتنوع الأزمنة داخل مجموعة الأبيات المتجاورة، لكنها في النهاية تقع - ولا بد - في حيز زمن آخر يحتوي كل هذه الأزمنة التي تتحرك في إطار ذلك الزمن الأكبر (زمن القطعة / الجزء من النص)، وهذا الزمن الأكبر يقع - غالبا - في مطلع كل جزء من أجزاء النص.

ومن ثم فالحكم بتفريغ الصيغة من الزمن، أو الحكم بتحول زمنها إلى زمن آخر، أو بقاء زمنها واستمراره داخل الجملة، كل هذا لا يمكن أن يتسم بالمصادقية إلا داخل السياق النصي لا السياق الجملي مهما أوتيت الجملة من قرائن (أعني الجملة المنزوعة من سياقها النصي). وسيتضح ذلك جليا في (معلقة ليبيد) التي سنتناولها هنا بالتقسيم اعتمادا على معايير التحول الزمني داخلها.

فلا بد من تتبع الدلالات الزمنية في القصيدة «واستكناه هذه الدلالات وإدراك تجاوبها بعضها مع البعض الآخر والتدرج بينها أو الانتقال من حالة زمنية إلى أخرى، حتى تفصح عن ذات نفسها، وتكشف عن دورها في بناء القصيدة كلها»^(١).
إن الأزمنة في القصيدة - كما يفهم من النص السابق - قد:

١. تتجاوب.

٢. أو تتدرج.

٣. أو تنتقل من زمن إلى آخر.

(١) اللغة وبناء الشعر: ص ٣٨-٣٩.

فإذا نظرنا إلى التسعة عشر بيتا الأولى من معلقة ليبد نجد أن الأفعال جاءت بصيغة (فعل وما شابهها) سبعا وعشرين مرة، في حين لم ترد صيغة (يفعل وما شابهها) إلا أربع مرات، ولم ترد صيغة (افعل) مرة واحدة في هذه الأبيات.

أما (فعل وما شابهها) فتدل جميعها - في سياقها النصي - على أن الأحداث وقعت في الزمن الماضي، فكل شيء قد انتهى؛ الديار عفت وتحولت إلى أطلال بالية، وكل شيء يتعلق بهذه الديار أو أخذ منها بسبب قد توحش وتعزى وتحول حاله إلى غير الحال، أما هو فقد وقف سائلا متعجبا من سؤاله أطلالا صماء، وأما محبوبته فقد رحلت ونأت وتقطعت أسبابها.

جميع الأحداث في هذه الأبيات حدثت في الماضي وانتهت، حتى الأحداث التي جاءت بصيغة (يفعل وما شابهها) وقعت ثلاثة منها في سياق جملة أكبر تحتوي على فعل أساسي، زمنه هو الزمن الماضي؛ ففرغت من دلالتها على الزمن واقتصرت على جهة الاستمرار، لتصبح هذه الأفعال - داخل سياقها النصي - قد استمرت أحداثها فترة في الزمن الماضي.

أما الفعل الأول (تُجِدُّ) فقد ورد في قوله:

وَجَلَا السُّيُورُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا * * * زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا^(*)

فالفعل المضارع - هنا - وقع في سياق جملة مصدرية بـ (كأن) التشبيهية، تحتوي (هذه الجملة) على ضمير يربطها بجملة أصلية هي جملة (جَلَا السُّيُورُ عَنِ الطُّلُولِ)؛ وإنما فُرِّغَ هذا الفعل من دلالة على الزمن لينصرف إلى الاستمرار الذي أراده الشاعر لهذا الحدث الذي هو المشبه به (تجديد الأقلام المتون)، ومن ثم ينصرف

(*) جلا: كشف، زبر: ج زبور وهو الكتاب، تجد: تجدد.

إلى المشبه (جَلَا السُّيُورُ « الثَّرَاب » عَنِ الطُّلُولِ)، وليصبح زمن هذا الاستمرار هو المضي الذي هو دلالة الفعل الأصلي (جلا) ومن ثم يتوازى زمن الجملة الأصلية - بها ارتبط به من جمل فرعية - مع أزمنة جميع الجمل التي كُوت منها هذه الأبيات. وأما الفعل الثاني فهو (أسأل) في قوله:

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سَوَالِنَا * * * صُبًا خَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا؟^(*)

وقد وقع هذا الفعل - أيضا - في سياق جملة فرعية هي جملة الحال (أسألها) ليدل على أن سؤاله قد تكرر واستمر فترة بما يوحي بإلحاحه في السؤال (سؤال الديار)، والسياق النصي للأبيات يؤكد ذلك المعنى؛ إذ يمتلئ بالحسرة والتعجب من هذا الفناء الذي أصاب الديار، حتى إن الشاعر يصدمنا بالفعل الماضي (عفت) في أول القصيدة، وكأنني به قد وقف متعجبا متسائلا وهو يقول: (عفت الديار؟!) ثم يقرر تلك الحقيقة فيقول: نعم لقد (عفت الديار محلها فمقامها)، كما يؤكد معنى الإلحاح عود الضمير في جملة الحال على (الطلول) قبلها وهي (جمع) مما يحتمل معه أنه وقف يسأل كل طلل من هذه الطلول وحده، ثم يكرر السؤال وهو يمر بين هذه الطلول ذاهلا متعجبا، كيف تحولت الديار إلى مجموعة من الطلول الصماء.

إن هذه الحسرة وذلك التعجب كانا دافعا قويا إلى إلحاح الشاعر في سؤاله، ومن ثم كان لابد من أن يأتي سؤاله في صيغة المضارع ليجسد هذا الإلحاح المستفاد من الاستمرار الذي تحمله هذه الصيغة، أما زمن السؤال فهو زمن الجملة الأصلية (وقفت) التي ترتبط بها جملة الحال، والزمن في تلك الجملة الأصلية مستفاد من صيغة (فعل) التي تدل على المضي؛ ومن ثم يصبح زمن الجملة الكبرى (وقفت)

(*) الصم: الصلاب، خوالد: بواق، يبين: يظهر ويتضح.

أسألها) هو (الماضي المستمر) الذي يتوازى مع بقية الأزمنة الماضية داخل هذه المجموعة من الأبيات التسعة عشرة.

وأما الفعل الثالث فهو (تَصِرُّ) في قوله:

شَاقَتْكَ ظُعْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا ** فَتَكْنَسُوا قَطْنَا تَصِرُّ خِيَامُهَا^(١)

وقد وقع هذا الفعل - أيضا - في سياق جملة الحال الفرعية التي ترتبط بجملة (شَاقَتْكَ ظُعْنُ الْحَيِّ) الماضية الزمن، وجاء الفعل (تَصِرُّ) بصيغة المضارع ليدل على استمرارية هذا الحدث فترة من الزمن هي زمن الرحيل الذي انتهى، لكنه مازال حاضرا في ذهن الشاعر مستمرا متجددا تجدد أحزانه السارية في أعماق نفسه، إن زمن الرحيل الحقيقي قد استمر فترة في الزمن الماضي ثم انتهى، لكن صوت الرحيل مازال يتردد في أذنيه.

أما الفعل الرابع الذي جاء على صيغة المضارع فهو (يبين) في قوله:

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سُؤْلُنَا ** صُمًّا حَوَالِدَ مَا يَبِينُ كَلَامُهَا^(٢)

وقد وقع هذا الفعل في سياق الاستفهام التعجبي، وتفرغ هذا الفعل من الدلالة على الزمن وقصره على دلالة الاستمرار يعمق هذا التعجب، فكيف يسأل أطلالا صماء لم تجب أحدا قبله، ولن تجيبه الآن أو في المستقبل، إنه ينفي إجابتها على الإطلاق دون التقييد بزمن دون آخر، وتلك هي حقيقة الأطلال، وهو يتعجب من مخالفته هذه الحقيقة؛ لكنه الدهول من قسوة الواقع ومرارة الأحداث.

(**) ظُعْنُ: ج: الظَّعُون، وهو البعير عليه هودج وفيه امرأة، التكنس: دخول الكناس والاستكنان به، القطن: ج قطين وهو الجماعة، الصرير: صوت الباب والرحل.

إن الزمن منذ البيت الأول يسير في مجال الماضي حتى البيت التاسع عشر، ولا يتحول عنه إلا في البيت العشرين الذي يبدأ بأول فعل أمر في القصيدة ينقل الزمن إلى (المستقبل) مما يوحي بالانتقال إلى جزء آخر، ومن ثم تعتبر الأبيات من الأول حتى التاسع عشر (١ - ١٩) جزءا من أجزاء النص، يتحقق له بعض الاستقلال النسبي، برغم ارتباطه ببقية أجزاء القصيدة ارتباطا حميا كما سيتضح في الحديث عن التماسك النصي في الفصلين الرابع والخامس.

يبدأ الجزء الثاني بفعل الأمر (اقطع) المسند إلى المخاطب الذي هو (الشاعر نفسه)، فتنقسم بذلك نفسه إلى شطرين: مخاطب ومخاطب، ويعطف على هذا الفعل فعل أمر آخر (واحِب) يتجه فيه بالمخاطب إلى نفسه أيضا، وزمن هذين الفعلين - في سياقها النصي - هو المستقبل، أما إتيان معمول الأول بصيغة الماضي (تعرض) فإنما هو ليبرر الشاعر - كما بينا من قبل في الفصل السابق - أمر نفسه بهذا القطع، ويؤكد ذلك بجملة (ولشر واصل خلة صرامها) التي ساقها مساق الحكمة، ثم يقدم مبررا للفعل (احِب) باختياره مادة (المجاملة) التي ملأت صيغة معمول هذا الفعل. وأما الفعلان (ظلعت وزاغ) فقد أتيا في سياق ظرف الزمان (إذا) الدال على الاستقبال ليتجاوب بذلك مع زمن فعل الأمر.

إن الشاعر يقدم المسوغات الكافية لهذين الأمرين اللذين لم يحدثا، لكنها اقتربا من الحدوث. ويتأكد لنا قرب حدوث هذين الأمرين في المستقبل بإتيان الفعل (أقضي) و(لا أفرط) بصيغة المضارع في البيت الرابع والخمسين:

فَتَبْلُكَ إِذْ رَقَصَ اللّوَامِعُ فِي الضَّحَى ** وَاجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا
أَقْضِي اللَّبَانَةَ لَا أَفْرَطُ رِيَّةً ** أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَائِمِهَا

مما يوحي بأنه قد استجاب لهذين الأمرين اللذين وردا قبل اثنين وثلاثين بيتا، ولم لا وقد قدم التبرير الكافي - لهذه الاستجابة - من قبل.

يتأكد لنا هذين الفعلين (أقضي - لا أفرط) أن زمن الأمر لم يكن المستقبل على إطلاقه، بل كان (المستقبل القريب).

عند هذا الحد يتبين أن زمن البيتين (العشرين والحادي والعشرين) هو المستقبل، وأن هذا الزمن قد تحددت جهته بواسطة الأفعال المضارعة التي احتواها البيت (الرابع والخمسون) فأصبح الزمن هو المستقبل القريب، ولكن ماذا عن الأبيات الواقعة بين هذه الأبيات (من الثاني والعشرين حتى الثالث والخمسين)؟

إذا نظرنا إلى هذه الأبيات نجد أن الأفعال الماضية قد غلبت عليها غلبة واضحة، وهذا يدل - للوهلة الأولى - على أن زمنها هو الزمن الماضي، لكن هذه الأبيات لا تأتي منفردة بنفسها بعيدة عن سياقها النصي، فلقد صدرت هذه الأبيات بالجار والمجرور (بطليح) الذي هو تقييد لفعل الأمر (اقطع) لبيان الوسيلة التي سيقطع بها الشاعر في المستقبل القريب تلك اللبانة؛ ومن ثم فكل الأفعال الماضية التي ترتبط بالناقة في هذه الأبيات تقع في سياق زمن الفعل (اقطع)، وترتبط به ارتباط الجار والمجرور به.

إن كل الأفعال في هذه الأبيات ترتبط بالناقة، وما صورة الأتان والبقرة الوحشية إلا صورتان لهذه الناقة؛ فليس هناك أتان حقيقية ولا بقرة وحشية حقيقية، وإنما أتى بهما لبيان مدى سرعة هذه الناقة، وهذه السرعة تتجاوز مع سرعة استجابة

الشاعر للأمر وتوجيه المستقبل إلى القرب؛ فكل الصور في هذا الجزء توحى بالسرعة وقرب الحدوث.

ويتأكد لنا أن المراد من كل هذه الصور هو (الناقة) بظهور اسم الإشارة (فتبلك) في البيت الثالث والخمسين؛ ليحيل إلى الناقة في البيت الثاني والعشرين، وليحيل القارئ إلى أنه لا أتان حقيقية ولا بقرة وحشية كذلك، وأن هناك شيئا واحدا هو (الناقة) التي ترتبط بالجملة الرئيسية (اقطع) في أول أبيات هذا الجزء.

إن كل شيء في الأبيات يعود إلى الجملة الرئيسية ويرتبط بها نوعا من الارتباط، فليس سوى جملة واحدة تمت إطالتها بالمفعولية في قوله (لبانة)، ثم بالجار والمجرور في قوله (بطليح) ثم بنعت هذه الناقة، ثم بالعطف (أو ملمع - أم وحشية) فليس سوى جملة واحدة، وليس سوى زمن واحد هو زمن هذه الجملة - في سياقها النصي - الذي هو (المستقبل القريب) المستفاد من صيغة الأمر (افعل) في سياقها النصي الذي وردت به.

وبذلك تعد الأبيات من العشرين حتى الرابع والخمسين قسما من أقسام النص يتحقق له بعض الاستقلال؛ لاختلاف زمنه عن أزمنة الأقسام المجاورة، لكن هذه الأجزاء جميعها في النهاية تتناسك نحويا وداليا مكونة نصا واحدا متلاحم الأجزاء.

وإذا نظرنا إلى البيتين (الخامس والخمسين والسادس والخمسين) وجدناهما يمثلان جزءا مستقلا لاختلاف زمنهما عن الجزأين السابق واللاحق. يقول لييد:

أَوَلَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بَأَنِّي * * * وَصَّالٌ عَقْدٌ حَبَائِلُ جَدَّائِهَا

تَرَاكَ أُمَكْنِيَّةً إِذَا لَمْ أَرْضَها * * * أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضُ النَّفُوسِ جِهَامُهَا^(*)

فدخول (لم) على فعل الكينونة صرف زمن الجملة الرئيسية إلى (المضي)، في حين أن الجزء السابق كان زمنه الرئيسي (المستقبل القريب)، أما الجزء التالي فيبدأ بقوله بَلْ أَنْتَ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ * * * طَلَّقَ لَذِيذَ لَهْوِهَا وَنِدَائِهَا وفيه يثبت عدم معرفتها في الحال (أنت لا تدريين) ليبين بذلك أن عدم معرفتها استمرت حتى اللحظة الحاضرة؛ فهذا الجزء يختلف عن الجزء الذي بين أيدينا، يؤكد ذلك - بالإضافة إلى الاختلاف الزمني - ما يلي:

١. هذا الجزء (الثالث) يتصدر بالإنشاء، أما الجزء التالي (الرابع) فيتصدر بالأسلوب الخبري.

٢. الإحالة إلى المحبوبة في هذا الجزء تتمثل في اسمها (نوار) الذي يدل على خطاب الغائب، في حين أنه يحيل إليها في الجزء التالي (الرابع) عن طريق ضمير المخاطب (أنت).

إن هذا كله يؤكد أن البيتين الخامس والخمسين والسادس والخمسين يمثلان جزءاً مستقلاً من أجزاء النص.

أما الأبيات من السابع والخمسين حتى التاسع والخمسين فتحتوي زمناً رئيسياً ومجموعة من الأزمنة الفرعية المختلفة. أما الزمن الرئيسي فهو الزمن (الحاضر)

(*) الحبائل: المقصود هنا العهود، جذام: كثير القطع، يعتلق: تحين وفاتها.

المستفاد من صيغة المضارع (لا تدريين)، وأما ما سوى ذلك من أزمنة فتقع في إطار مقيدات هذا الفعل، لكنها لا تؤثر على زمنه ولا توجهه، بل تتأثر به وتقع في نطاقه.

والأزمنة الفرعية الواقعة في إطار مقيدات هذا الفعل تحيل إليها مجموعة من المفردات: (ليلة - بت - باكرت الدجاج - بسحرة - هب نيامها - غداة - أصبحت - غدوت - ألفت يدا في كافر - أجن ظلامها - إذا الرياح تناوحت « يعني وقت الشتاء »)، وإنما تنوعت هذه المفردات التي تحمل كل منها دلالة على الزمن - لتدل على التدرج في وقوع الأحداث، والناظر في هذه المفردات يجد أن أكثرها يشير إلى (وقت الليل)؛ وما ذلك إلا لأن ما يحدث في الليل يحتاج إلى بيان، وبخاصة أن المخاطب لا يعيش ليل الشاعر بل يعيش ليلاً مختلفاً، فهو لا يدري ما يحدث به. أما ما يحدث بالنهار من إكرام الضيف وحماية الحي بالسلاح، فهو أوضح من أن يفصله لها، وإنما ذكره زيادة إيضاح، أو تعجبا من تجاهلها له برغم وضوحه ووقوعه في وضوح النهار.

إن كل هذه الأحداث تقع في إطار (المفعول به) وتتصل به اتصالاً وثيقاً، كما أنها تقع في أوقات مختلفة (بعضها في الليل وبعضها الآخر في النهار)، لكنها في النهاية - رغم اختلاف أوقاتها فيما بينها - لا تعلمها (نوار) حتى الزمن الحاضر (زمن الإخبار بهذه الأحداث)؛ ومن ثم تنشأ هذه الأزمنة إلى الزمن الرئيسي الذي هو الزمن الحاضر، وتقع في إطاره وتتصل به بسبب.

إِنَّا إِذَا التَقَّتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ * * * مِنْ أَلِزَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَائِهَا

وَمُقَسَّمٌ يُعْطِي * * *

وَدُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى * * *^(*)

(*) رجل لزاز عظيم: مقترن بالأمور العظيمة، جشامها: متكلف الخصام، الندى: الجود.

إن تقييد الفعل (التقت) بالظرف (إذا) يؤكد استمرار جواب الشرط (لم يزل مقسم يعطي ... وذو كرم يعين) كلما حدث فعل الشرط (التقاء المجامع).

أما صيغ المضارع الواقعة في جواب الشرط (يعطي - يعين) فتفرغت إلى الدلالة على الاستمرار دون نص على حال أو استقبال ؛ لأن السياق يدل على أن عطاءهم وإعانتهم مستمرة في أي وقت تجتمع فيه القبائل، وما دام اجتماع القبائل غير مقيد بزمن معين، فكذلك عطاؤهم وإعانتهم.

فزمن هذه الأبيات هو (زمن التقاء القبائل) في أي وقت، إنه مستمر في الحال والاستقبال معا.

وتستمر الدلالة على (الاستمرار) دون التقييد بزمن حتى نهاية البيت الرابع والثمانين إذ يحتوي على الأفعال الآتية: (لا يطبعون - لا يبور - لا يميل) وهذه الأفعال إخبار عن (معشر الشاعر)، والمخير هو (الشاعر) ؛ فلا شك أنه يريد نفي هذه الأحداث عنهم في كل الأزمنة، فليس معنى إتيانها بصيغة المضارع أنه يريد نفي ذلك في الحال والاستقبال دون الماضي، بل معناه أنه يريد الوجه الآخر من دلالة المضارع وهي (الاستمرار) ما دام أنه هو الذي يخبر عن قومه ؛ فسياق الفخر يؤكد تفرغ هذه الصيغ من الدلالة على الزمن، لتتجه بكل قوتها إلى الدلالة على (الاستمرار).

إن الأبيات من (٨٠ - ٨٤) مفرغة من الدلالة على الزمن، لتقتصر الصيغ فيها على دلالة (الاستمرار)، وهذا يجعل منها قسما خاصا من أقسام النص.

ويظهر الزمن مرة أخرى في البيت الخامس والثمانين الذي يتصدر بفعل الأمر (اقنع) الذي يوجه زمن الأبيات - حتى نهاية القصيدة - إلى (الاستقبال)، ويؤكد

استقلالية هذه الأبيات عن سابقتها إسناد الفعل إلى ضمير الغائب المخاطب، في حين أن الجزء السابق كان إخبارا دون تقييد بمخاطب معين، وفي هذا تأكيدُ تفرغ الجزء السابق من الزمن، وتوجه هذا الجزء إلى زمن الاستقبال المستفاد من صيغة الأمر في الجملة الأساسية في مطلع الأبيات المكونة لهذا الجزء.

أما ما سوى الأمر من أفعال فيرتبط بجملة الصلة (بما قسم المليك) بالعطف في قوله: (وإذا الأمانة - فبنى - فسا - وهم السعاة - وهم فوارسها - وهم حكامها - وهم ربيع ... إذا تطاول - وهم العشرة أن يبطئ ... أو أن يميل ...).

وجملة الصلة ترتبط بالفعل (اقنع) بحرف الجر الداخل على الموصول (بما)، مما يجعل هذا الجزء جملة واحدة زمنها هو زمن الفعل الرئيسي (اقنع) الذي هو الاستقبال. يمكننا إذن أن نبين أقسام هذه القصيدة تبعا للتحويلات في أزمنتها بالجدول

التالي:

الجزء	الأبيات	الزمن
الأول	١ - ١٩	الماضي
الثاني	٢٠ - ٥٤	المستقبل القريب
الثالث	٥٥ - ٥٦	الماضي
الرابع	٥٧ - ٧٩	الحاضر (الحال)
الخامس	٨٠ - ٨٤	مفرغ من الدلالة على الزمن ليقتصر على جهة الاستمرار
السادس	٨٥ - ٩٠	المستقبل

٢. تحولات الضمائر:

إن التحول في الرؤية الشعرية يتضح أكثر ما يتضح في استخدام الضمائر المتنوعة داخل النص، وتتوزع الضمائر للدلالة على التكلم والخطاب والغيبة، وكل ضمير يحتاج إلى مفسر؛ فأما ضمير المتكلم وضمير المخاطب فتفسرهما المشاهدة، وأما ضمير الغائب فيحتاج إلى مفسر متقدم عليه^(١).

إننا عندما نقيم أنماطا من الصلات بين هذه المحاور الدلالية الثلاثة (التكلم - الخطاب - الغيبة) يمكن أن نحصل على الموضوعات الأساسية في الشعر الغنائي^(٢)؛ ومن أهم هذه الصلات مراعاة الالتفات بين هذه المحاور، ليس الالتفات على مستوى الجملة فحسب بل الالتفات على مستوى النص (بين أجزائه المختلفة)، ثم مراعاة الجانب الكمي؛ بمعنى أنه قد يسيطر محور من هذه المحاور على مجموعة من الأبيات ثم يحدث تحول مفاجئ إلى محور آخر في مجموعة أخرى، أو أن يتجاوز محوران أو المحاور الثلاثة مجتمعة في مجموعة من الأبيات... إلخ؛ فمعنى هذا أن كل مجموعة من هذه المجموعات من الأبيات تمثل قسما خاصا من أقسام النص.

وقد اخترت معلقة عنتر بن شداد (برواية ابن الأنباري)^(٣) مثالا لتقسيمها بناء على (تحولات الضمائر) التي تحيل إلى الشاعر أو محبوبته، أو تحيل إلى شيء يتصل

بأي منها ففي الأبيات (١-١٢) ينطلق الشاعر من الضمائر التي تحيل إلى نفسه، فأتى أول هذه الضمائر دالا على الخطاب: (١ / عرفت)؛ والشاعر - هنا - يخاطب نفسه خطابا لا يشوبه التجريد، ثم تأتي جميع الضمائر بعد ذلك دالة على (المتكلم / الشاعر) حتى نهاية هذا الجزء:

-(٣ / فوقفت.... ناقتي.... لأقضي، ٤ / وأهلنا، ٦ / علي، ٧ / علقته... وأقتل، ٨ / مني، ٩ / وأهلنا، ١١ / راعني).

ثم يحدث تحول مفاجئ إلى الخطاب مرة أخرى في البيت الثالث عشر والرابع عشر: -(١٣ / تستبيك، ١٤ / إليك).

لكن الشاعر هنا يتحدث إلى نفسه حديثا مجرد فيه من نفسه شخصا آخر، وهذا يوحي بالانتقال إلى جزء أو قسم جديد من أقسام النص، يؤكد ذلك أن الجزء السابق (١-١٢) تساوت فيه كفتي الضمائر التي تحيل إلى كل من الشاعر ومحبوبته؛ إذ أحال لكل منهما أحد عشر ضميرا واختص الشاعر بضمير الخطاب في أول الجزء. أما الجزء الثاني (١٣-٢١) فبرغم تساوي الضمائر المحيلة إلى كليهما في آخر الجزء:

-(٢٠ / تمسي (هي) وتصبح (هي)... وأبيت (أنا)، ٢١ / وحشيتي).

إلا أن المحبوبة قد انفردت بضمير يحيل إليها مباشرة:

-(١٣ / تستبيك [هي]).

(١) انظر: الارتشاف: ج ٢ ص ٩٤١.

(٢) انظر: تحليل النص الشعري: لوتمان: ص ١٢٢، و: نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٥٦.

(٣) أثرت رواية ابن الأنباري لأنه أضاف في نهاية المعلقة هذين البيتين:

إِنِّي عَدَانِي أَنْ أُرْزُوكَ فَأَعْلَمِي مَا قَدْ عَلِمْتَ وَبَغِضَ مَا لَمْ تَعْلَمِي
حَالَتْ رِمَاحُ ابْنِي بِغِيضِ دُونِكُمْ وَرَزَوْتُ جَوَانِي الْحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجْرِمِ

فهذه الخاتمة إجمال لجميع الأحداث التي سبقت بالمعلقة، كما أنها تنسجم مع مطلع المعلقة الذي فيه:

حَلَّتْ بِأَرْضِ الرَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِيرًا عَلَيَّ طَلَابُكَ ابْنَةُ حَرَمٍ

= ولا يخفى ما بين الخاتمة وهذا البيت من المطلع من تماسك وترابط ومناسبة تتمثل في وسائل منها: ذكر كاف الخطاب التي تحيل إلى المحبوبة في قوله: (أزورك - طلابك) فضلا عما بين الزيارة والطلاب من ترادف، ومن الوسائل بقاء المتكلم التي تحيل إلى الشاعر في جملتي (عداني - فأصبحت عسرا علي...) ولا يخفى الترادف بين الجملتين (ذعداني) تعني (شغلني ومنعني).

بالإضافة إلى مجموعة من الضمائر التي تحيل إلى أشياء تتصل بها:

- ١٣ - ابذي غروب
- ← واضح (هو).
 - ← عذب مقبله.
 - ← لذيق المطعم (هو).

١٤ - / وكأن فأرة تاجر.. ← سبقت عوارضها

- ١٥ - / أروضة
- ← أنفا (هي)
 - ← تضمّن نبتها غيث
 - ← قليل الدمن (هو).
 - ← ليس (هو) بمعلم.
 - ← ١٦ / جادت عليه... إلخ.

إن الصعود المفاجئ - في البيت الثالث عشر - إلى الخطاب بعد أن ساد ضمير المتكلم الأبيات السابقة عليه، يوحي ببداية جزء جديد، كما أن الانكسار في الخط البياني للضمائر بالرجوع مرة أخرى إلى ضمير المتكلم في البيتين (٢٠، ٢١) يوحي بنهاية هذا الجزء، ويؤكد أن الأبيات من الثالث عشر حتى الحادي والعشرين (١٣ - ٢١) تمثل جزءاً مستقلاً بذاته - أن ما بين خطي البداية والنهاية قد احتوى مجموعة لا بأس بها من الضمائر التي تحيل إلى أشياء تتصل بالمحبة دون ذكر لأي ضمير يحيل إلى الشاعر.

أما الأبيات من الثاني والعشرين حتى الرابع والثلاثين (٢٢ - ٣٤) فتبدأ بضمير المتكلم (كما انتهت أبيات الجزء السابق)، ويأتي ذكر ضمير المتكلم مرتين، مقابل مرة واحدة لضمير الغائب الذي يحيل إلى المحبة:

- (٢٢ / تبلغني، دارها، ٢٤ / أقضي [أنا]).

أما ما عدا ذلك من ضمائر فتحيل إلى الناقه (الموصوف المحذوف) الذي يدل عليه النعت المذكور (شدنية)، والناقه وسيلة من وسائل الشاعر التي يستخدمها لبلوغ دار محبته أو هكذا يتمنى (هل تبلغني ...)؛ ومن ثم فكل الضمائر (سوى الضمائر الثلاثة المذكورة) تحيل إلى شيء يتصل بالشاعر، وهذا يؤكد أنه إذا كانت الأبيات السابقة حديثاً عن شيء يتصل بالمحبة، فإن هذه الأبيات حديث عن شيء يتصل بالشاعر؛ ومن ثم فكل منهما جزء مستقل من أجزاء المعلقة.

وتمثل الأبيات من الخامس والثلاثين حتى الثامن والخمسين (٣٥ - ٥٨) جزءاً آخر من أجزاء النص، عمل على استقلاله استقلالاً نسبياً عما قبله وما بعده شيثان:

أولهما: حدوث التفات على مستوى الضمائر التي تحيل إلى المحبة من الغائب في البيت الثاني والعشرين (دارها) إلى المخاطب في أبيات هذا الجزء: (٣٥ / تغدفي، ٣٦ / أثني ... بما علمت، ٤١ / كما علمت، ٤٤ / هلا سألت، إن كنت، لم تعلمي، ٤٧ / يخبرك).

ثم يحدث التفات إلى الغياب في البيت التاسع والخمسين: (٥٩ / حلت [هي]، مما يوحي ببداية جزء آخر. وأن الجزء السابق ينتهي عند البيت الثامن والخمسين.

ثانيهما: جميع الضمائر التي تحيل إلى الشاعر تسير في خط التكلم، وتحيل إليه مباشرة دون واسطة، بخلاف الجزء السابق: - (٣٥ / دوني ... فإنني، ٣٦ / علي ... فإنني ... مخالطتي ... لم أظلم (أنا)، ٣٧ / ظلمت ... ظلمي، ٣٨ / شربت، ٤٠ / شربت ... فإنني ... مالي، وعرضي، ٤١ / صحوث ... أقصر (أنا) .. شمائي وتكرمي، ٤٢ / تركت، ٤٣ / يداي، ٤٥ / لا أزال (أنا)، ٤٧ أنني أغشى (أنا) وأعف (أنا) ٤٩ / يداي، ٥١ / فشككت، ٥٢ فتركته، ٥٣ / هتكت، ٥٥ رأني .. نزلت، ٥٦ / فطعته ... علوته، ٥٧ / عهدي).

أما الأبيات من التاسع والخمسين حتى الثاني والستين (٥٩ - ٦٢) فقد احتوت مجموعة من الضمائر، جاءت غالبيتها محيلة إلى كلمة (شاة) في البيت التاسع والخمسين، والشاة كناية عن المرأة^(١)، ومن ثم مثلت هذه الأبيات الأربعة قسما من أقسام النص يتحدث عن الشاة / المحبوبة:

- يا شاة ... (٥٩ / حلت [هي] حرمت [هي] ... لم تحرم [هي]، ٦٠ / أخبارها، ٦٢ / وكأنها التفتت [هي]).

ثم تخلو الأبيات (٦٣ - ٧٧) من الضمائر التي تحيل إلى المحبوبة أو إلى شيء متصل بها، وتقتصر جميعها على الإحالة إلى الشاعر أو ما يتصل به؛ ومن ثم تعد هذه المجموعة من الأبيات جزءا مستقلا من أجزاء المعلقة:

- (٦٣ / نبئت ... نعمتي، ٦٤ / حفظت ... عمي، ٦٦ / بي ... لم أحم (أنا) ... ولكنني ... مقدمي، ٦٧ / رأيت ... كررت، ٦٩ / ما زلت أرميهم (أنا)، ٧٠ /

(١) انظر: شرح المعلقة السبع الطوال الجاهليات، ابن الأثيري: ص ٣٥٣، وشرح الملاحظات السبع: الزوزني: ص ١٥٠، وشرح القصائد العشر: التبريزي: ص ٣٠٤.

نفسى، ٧١ / إلي، ٧٢ / مكلمي، ٧٤ / ركابي ... شئت، مشايحي لبي، ٧٥ / خشيت ... أن أموت (أنا)، ٧٦ / عرضي ... ولم أستمها (أنا) ... ألقها (أنا)، دمي، ٧٧ / تركت).

أما البيتان الثامن والسبعون والتاسع والسبعون (٧٨، ٧٩) فيعود فيهما الشاعر مرة أخرى لينوع بين الضمائر التي تحيل إليه وإلى المحبوبة مؤكدا ما افتتح به معلقته:

- (٧٨ / إني عداني ... أزورك، فاعلمي ... علمت ... لم تعلمي، ٧٩ / دونكم).

مما سبق يتبين لنا أن معلقة عنتره يمكن تقسيمها إلى سبعة أقسام اعتمادا على (تحولات الضمائر) التي تحيل إلى الشاعر أو إلى المحبوبة أو ما يتصل بأي منهما، وهذه الأقسام السبعة متسقة نحويا منسجمة دلاليا، كما سيتضح عند الحديث عن التماسك النصي.

٣. التقابل والتجاور بين الخبر والإنشاء:

لقد شاع تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، والإنشاء إلى طلبي وغير طلبي، لكن اختلف اللغويون والبلاغيون في بيان أقسام الطلب من الأساليب الإنشائية. فيذكر الخطيب القزويني من أقسام الطلب: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء^(١). وذكر الزنجشيري منها خمسة معان هي: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والعرض^(٢). وذكر ابن يعيش أن الأمر إذا كان من الأدنى إلى الأعلى، قيل له: دعاء^(٣).

(١) انظر: الإيضاح: ج ٣ ص ٥٢ - ٩٤.

(٢) انظر: شرح المفصل: ج ٤ ص ٢٧٣.

(٣) انظر: السابق: ج ٤ ص ٢٨٩.

وذكر الدكتور توفيق الفيل أنها خمسة أنواع، هي ما ذكرها القزويني وبترتيبها نفسه، إلا أن الدكتور الفيل لم يذكر إن كان ذلك جريا منه على رأي القزويني أم لا^(١).

وقد جمع الدكتور تمام حسان بين هذه الآراء فجعل الطلب يشمل: الاستفهام، والأمر، والنهي، والعرض، والتحضيض، والتمني، والترجي، والنداء^(٢).

أما ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) فقد نحا منحى آخر فذكر في (باب معاني الكلام) أن معاني الكلام عشرة هي: خبر، واستخبار (استفهام)، وأمر، ونهي، ودعاء، وطلب، وعرض، وتحضيض، وتمن، وتعجب^(٣). ثم أرجع هذه المعاني إلى ثلاثة هي: الخبر والاستخبار والأمر، وعقد لكل بابا، وبين أن كل نوع منها يحمل مجموعة من المعاني الأخرى التي تستفاد من السياق^(٤).

أما الخبر فيعرفه بقوله: «الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب أمرا في ماض من زمان أو مستقبل أو دائم، نحو: قام زيد، ويقوم زيد، وقائم زيد»^(٥)، ثم يقول: «يكون الخبر واجبا وجائزا وممتنعا؛ فالواجب قولنا: النار محرقة، والجائز قولنا: لقي زيد عمرا، والممتنع قولنا: حملت الجبل»^(٦).

وابن فارس - بذلك يحتكم إلى معايير منطقية في تقسيمه لأضرب الخبر، ويضرب «للممتنع» نفس المثال الذي ضربه سيبويه «للمستقيم الكذب» ويعني

بالامتناع عدم حدوث هذا الفعل من ذلك الفاعل على جهة الحقيقة، والحق أن ذلك جائز على جهة المجاز، كما يجوز للنار ألا تحرق على جهة المجاز أيضا؛ لأن المجاز انتهاك لما هو متعارف عليه في الواقع، ومن ثم لا يعني امتناع حدوثه امتناع مثل هذه الجملة في اللغة.

ولعل سيبويه كان أكثر توفيقا عندما احتكم إلى (معايير اللغة) فجعل هذا التركيب مستقيما ثم وصفه بأنه (كذب)، وهو يعني الكذب الفني أو الدلالي، ومن ثم فهو ممتنع الحدوث في الواقع، لكنه ليس ممتنعا بوصفه كلاما قسيما للحقيقة. فـ(الامتناع) عند ابن فارس يوازي (الكذب) عند سيبويه، ويبقى لسيبويه الاصطلاح على أن هذا الكلام مستقيم في اللغة.

أما المعاني التي يحتملها لفظ الخبر فكثيرة ذكر منها ابن فارس (التعجب، والتمني، والإنكار، والنفي، والأمر، والنهي، والتعظيم، والدعاء...) ^(١).

أما الاستخبار فيعرفه ابن فارس بقوله: «طلب خير ما ليس عند المستخير، وهو الاستفهام»^(٢)، وذكر ابن فارس مجموعة من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام مدللا عليها من الشعر والنثر^(٣).

وأما الأمر فيقول عنه: «الأمر عند العرب ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور عاصيا، ويكون بلفظ (افعل) و(ليَفْعَلْ)»^(٤)، وذكر - كعادته - مجموعة من المعاني التي التي يحتملها الأمر^(٥).

(١) انظر: السابق: ص ٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) الصاحبي: ص ٢٩٢.

(٣) انظر: السابق: ص ٢٩٢ - ٢٩٦.

(٤) السابق: ص ٢٩٨.

(٥) انظر: السابق: ص ٢٩٨ - ٣٠٢.

(١) انظر: بلاغة التراكيب: ص ١٩٧ وما بعدها.

(٢) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ص ١٢٤، ٢٤٤.

(٣) انظر: الصاحبي: ص ٢٨٩.

(٤) انظر: السابق: ص ٢٨٩ - ٣٠٤.

(٥) انظر: السابق: ص ٢٨٩.

(٦) السابق: ص ٢٨٩.

وقد أشار ابن فارس - كما رأينا - إلى صيغتي (افعل) و(ليفعل)، ولم يشر إلى الصيغتين الآخرين وهما: صيغة اسم فعل الأمر، والأمر بالمصدر النائب عن فعله، يقول سيويه: «ومما أجري مجرى الفعل (أي فعل الأمر) من المصادر قول الشاعر:

يَمُرُّونَ بِالْذَّهْنِ خِفَافًا عَيَّابُهُمْ * * * وَيَخْرُجْنَ مِنْ دَارَيْنَ بُجَرَ الْحَقَائِبِ
عَلَى حِينِ أَهْلِ النَّاسِ جُلْ أُمُورِهِمْ * * * فَتَدُلُّ زُرَيْقُ الْمَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ

فهذه صيغ أربع للأمر، كل صيغة منها تحمل من الدلالات والمعاني ما لا تحمله الصيغ الأخرى، ومن ثم فالمتكلم باللغة (والمبدع على وجه الخصوص) يختار صيغة دون أخرى؛ لما تحمله من دلالات تناسب الغرض الذي يسوق من أجله الكلام يمكننا بعد هذا العرض أن نأخذ بالقول الشائع وهو تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، والإنشاء إلى طلبي وغير طلبي؛ إلا أننا سنأخذ من كلام ابن فارس اعتباره «النهى» و«الدعاء» من معاني الأمر^(١)؛ إذ النهي (أمر بالترك)، أما الدعاء فهو أمر - في ظاهره - من الأدنى إلى الأعلى.

ويمكننا أن نعد العرض والتحضيض قسما واحدا إذ "العرض والتحضيض متقاربان، إلا أن العرض أرفق، والتحضيض أعزم"^(٢).

ولا يكاد يخلو نص شعري من مجموعة لا بأس بها من (التقابلات والتجاورات التركيبية) التي تعمل على مساعدة المتلقي في بيان أقسام النص؛ وما ذلك إلا لأن «القواعد النحوية التي تستخدم في اللغة العامة استخداما عفويا، وربما دون وعي، تتحول في الشعر، وعلى قلم المبدع، إلى بنية ذات مغزى، ومن ثم تحظى بها لم يكن معتادا بها من طاقة تعبيرية، وما ذلك إلا بفضل اندراجها فيما ليس معتادا من التقابلات»^(٣).

(١) انظر: السابق: ص ٢٨٩ وص ٣٠٢-٣٠٣.

(٢) السابق: ص ٣٠٣.

(٣) تحليل النص الشعري، يوري لوتمان: ص ١١٢.

والنص الذي بين أيدينا هو معلقة زهير بن أبي سلمى، وقد اعتمدت على (رواية الزوزني) إلا أنني قد استعنت بـ (رواية ابن الأنباري) في موضعين فغيرت مواضع بعض الأبيات في رواية الزوزني حسبما أوردها ابن الأنباري؛ لما في ذلك من عمل على تماسك أجزاء النص، وترابطه وتسلسله تسلسلا منطقيا محكما حسبما يقتضيه النحو والدلالة، ولا شك أن الشاعر المقتدر إنما يبنى نصا متماسكا، وعلى القارئ أن يتوصل إليه بالجمع بين الروايات المختلفة.

أما الموضع الأول: فهو إضافة هذا البيت:

سَعَى سَاعِيَا غَيْظَ بِنِ مُرَّةٍ بَعْدَمَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْذَّمِّ

وذلك لأن البيت الذي بعده سيكون:

يَمِينًا لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ^(*)

فـ(أل) في قوله: (السيدان) تحيل إلى شيء سابق؛ هذا الشيء إما أن يكون خارج النص أو داخله، فلو أخذنا برواية الزوزني لما وجدنا في النص ما تحيل إليه، ومن ثم «لا تلعب دورا في ترابط النص»^(١) على حد تعبير براون ويول.

أما إذا أخذنا برواية ابن الأنباري في هذا الموضع سنجد أن (أل) تحيل إلى (ساعيا غيظ بن مرة) ومن ثم «تلعب دورا في تماسك أجزاء النص»^(٢).

وأما الموضع الثاني: فوضع هذين البيتين:

(*) السحيل: المفتول على قوة واحدة، والمبرم: المفتول على قوتين أو أكثر، ويستعار السحيل للضعيف، والمبرم للقوي.

(١) تحليل الخطاب: ص ٢٣٠.

(٢) تحليل الخطاب: ص ٢٣٠.

رَعَوْا ظِمَاءَهُمْ حَتَّى إِذَا تَمَّ أَوْرُدُوا
فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا
غَمَارًا تَسِيلُ بِالسَّلَاحِ وَبِالدِّمِ
إِلَى كَلَامٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخِّمٍ^(*)

بعد قوله:

لَحِيٍّ حِلَالٍ يَعْصِمُ النَّاسَ أَمْرُهُمْ
كِرَامٍ فَلَا ذُو الضُّغْنِ يُذْرِكُ تَبْلَهُ
إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُنْظَمٍ
وَلَا الْجَارِمُ الْجَائِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمٍ^(*)

وذلك لسببين:

أولهما: أنها نافرين في موضعهما (في رواية الزوزني) إذ الحديث عن (حصين بن ضمضم)، وهما في موقعهما في هذه الرواية ينقلان القارئ نقلا مفاجئا؛ إذ يعودان به إلى الحديث عن الحلي دون تمهيد لذلك ودون تسلسل منطقي يبرر ورودهما في هذا الموضع؛ لذا يصطدم القارئ المتذوق بهما وسط الأبيات.

ثانيهما: أنها يشتملان على مجموعة من الضمائر التي تحيل مباشرة (في رواية ابن الأنباري) إلى كلمة (حي) في قوله: (لحي حلال)، ومن ثم ينسلكان في سلك هذا البيت وما بعده؛ فينتج جزء متماسك نحويا وداليا، مستقر في مكانه بين أجزاء النص استقرار حبة اللؤلؤ في سلكها المنظوم.

تبدأ المعلقة بالاستفهام (الذي هو معنى من معاني الإنشاء):

(*) الظَّمَا: ما بين الوردتين، الغمار: جمع غمر وهو الماء الكثير، التفري: التشقق. قَضَّوْا مَنَايَا: أحكموها وأتموها، استوبل الشيء: وجده ويلا، توخم الشيء: وجده وخيلا لا يُستمرأ.
(*) حلال: جمع حال وهو القوائم المستقر، يعصم: يمنع، طرقت: أتت ليلا، معظَّم: أمر عظيم (داهية)، التبل: الحقد، الجارم: ذو الجرم، مُسْلَم: مخدول.

أَمِنْ أَمْ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ
بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَأَلْتَشَلِّمْ

والاستفهام هنا يحمل معنى التعجب من كون الدمنة من أم أوفى لا من سواها، أو معنى التفجع والتحسر لعثور الشاعر على بقية من آثار ديار محبوبته تردده إلى سابق عهدها المفتقد، كما أنها تفجر بصمتها كثيرا من معاني الأسى والتوجع في أعماق الشاعر^(١).

وأيا ما كان المعنى، فالأسلوب إنشائي ساعد على تعدده، إلا أن السياق النصي يرشح كونه استفهاما تعجيبيا من كون الدمنة من أم أوفى لا من سواها، إذ يقول في البيت الرابع:

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً * * * فَلَأَيَّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ^(**)

إنه وقف بعد مرور عشرين سنة فلم يعرف الدار إلا بعد جهد ومشقة، وهذا يصرف الاستفهام إلى التعجب من كون الدمنة من أم أوفى، ولا ينصرف الاستفهام إلى التحسر والتفجع إذ كيف يتفجع ويتحسر على شيء لما يتثبت من معرفته؟!

فالاستفهام - هنا - استفهام يظلل الأبيات من الأول حتى السادس بظلال التعجب والدهشة من كون هذه الديار البالية بقايا منازل المحبوبة الراحلة.

إن معرفة الديار والتأكد من كونها ديار المحبوبة الراحلة تعمل على (تداعي) أحداث الرحيل، فينتقل الشاعر إلى جزء آخر باستخدامه قسما آخر من أقسام الإنشاء، وهو (الأمر) في قوله:

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ
تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرُثِ

(١) انظر: في الشعر الجاهلي، د. صلاح رزق، ص ٢٤٧.

(*) الحجة: السنة، اللَّأْي: الجهد والمشقة.

وتظل جميع الجمل فيما يلي من أبيات حتى البيت الخامس عشر تشتمل على ضمائر تعود إلى كلمة (طعائن) وتربطها بها ربطا وثيقا؛ لتصبح هذه المجموعة من الأبيات قسما واحدا يسير في ركاب الأمر في أول الأبيات.

إن تجاور الأساليب الإنشائية بأقسامها المختلفة يعد معيارا نحويا يعمل على بيان الأجزاء المكوّنة للبنية الكبرى (بنية النص).

ثم ينتقل النص من سياق الإنشاء إلى سياق الإخبار باستخدام الفعل الماضي (سعى):

سَعَى سَاعِيَا غَيِظَ بْنَ مُرَّةَ بَعْدَمَا
تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ
رِجَالُ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
يَمِينًا لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ

وتسير الأحداث كلها حتى البيت الخامس والعشرين في إطار هذا الإخبار بالفعل الماضي؛ إذ ترتبط بعض الجمل بكلمة (السيدان) الواقعة في (جملة جواب القسم) برباط نحوي وثيق هو عودة الضمائر كما في: (وجدتُما - تداركتُما - وقد قلتُما - فأصبحتُما ... بعيدين ... عظيمين - هديتُما)، وبعضها برباط دلالي يتمثل في التفصيل الدلالي بعد الإجمال؛ التفصيل في قوله:

تُعَفَّى الْكُلُومُ بِالْمِئِنِ فَأَصْبَحَتْ
يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةً
فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ
مَعَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنِّمِ

فكل الأحداث التي تضمنتها هذه الأبيات الثلاثة تعد تفصيلا لذلك (التدارك) المشار إليه في البيت التاسع عشر:

تَدَارَكْتُمَا عَبَسَا وَذُبْيَانُ بَعْدَمَا
تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ

إن هذا الترابط النحوي الدلالي بين أجزاء هذه المجموعة من الأبيات يجعلها تسير في ركاب الفعل الماضي في أولها، ويجعل منها جزءا من أجزاء المعلقة المترابطة ترابطا نحويا دلاليا وثيقا.

ثم تعود الأبيات إلى الإنشاء باستخدام (الأمر) مرة أخرى مسندا إلى المفرد المخاطب في قوله:

أَلَا أَبْلِغِ الْأَخْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً
وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُكُمْ كُلَّ مُقْسَمِ

والخطاب هنا يحتمل أن يكون للمخاطب المطلق (أنت) أي مخاطب كان، أو يكون للخليل المشار إليه في مطلع الجزء الثامن من أجزاء المعلقة، وهذا الوجه الأخير أرجح؛ لأن في الأخذ به عمل على تماسك أجزاء النص نحويا ودلاليا؛ نحويا بإحالة الضمير (أنت) إلى (خليل) في مطلع الجزء الثاني، ودلاليا بواسطة التوازي الدلالي بين الجزأين الناتج عن صدارة الأسلوب الإنشائي لكل جزء (تبصّر - خليلي // أبلغ) وسير بقية الأحداث - في كل جزء - في ركاب الفعل الذي يتصدرها.

(*) تعفى: تمحى، الكلوم: الجروح، ينجمها: يعطيها نجوما، يهريقوا: يريقوا (وتحركت الهاء بالفتح حفاظا على وزن البيت)، التلاد: المال القديم الموروث، الإفال: جمع أفيل وهو الصغير السن من الإبل، المزنم: المعلم بزئمة.

(**) التدارك: التلافي، تفانوا: تشاركوا في الفناء، منشم: امرأة عطارة اشترى قوم منها عطرا وتحالفوا وجعلوا آية الحلف غمسهم الأيدي في ذلك العطر.

(***) الأحلاف: الجيران، أقسمتم: حلف كل منهما معا هذا الآخر.

إن الأحداث بعد جملة الإنشاء - في هذا الجزء - تسير كلها في ركاب الإنشاء، وترتبط بالجملة الرئيسية نحويًا ودلاليًا؛ نحويًا بعودة الضمائر على المفعول به (الأحلاف) وذلك في الجمل التالية للجملة الرئيسية: (أقسمتم - فلا تكتمن - ما علمتم وذقتم - تبعثوها تبعثوها ذميمة - إذا ضريتموها - فتعركم - فنتج لكم - فتغلل لكم).

وترتبط بها دلاليًا بواسطة التفصيل بعد الإجمال؛ إذ كل الأحداث التي اشتملتها الأبيات حتى البيت الثالث والثلاثين تعد تفصيلًا يبين مضمون تلك (الرسالة) المفعول به الثاني بالجملة الرئيسية (أبلغ الأحلاف عني رسالة). ومن ثم تعد الأبيات من الخامس والعشرين حتى الثالث والثلاثين جزءًا مستقلًا لاختلافها عن الجزء السابق أسلوبيا؛ إذ تصدر الأسلوب الخبري الجزء السابق في حين تصدر هذا الجزء الأسلوب الإنشائي.

ثم تنتقل الأبيات إلى الأسلوب الإنشائي باستخدام جملة القسم الإنشائية (لعمري) أي: «لعمري الذي أقسم به»^(١) في قوله:

لَعْمَرِي لِنَعْمَ الْحَيِّ جَرَّ عَلَيْهِمُ * بِمَا لَا يُؤَاتِيهِمْ حُصَيْنٌ بَنُ ضَمُصٍ

ويسيطر الأسلوب الإنشائي على جميع الجمل الواردة في الأبيات التالية التي ترتبط بهذا البيت، الذي هو مطلع هذا الجزء، بمجموعة من ضمائر الغائب والمتكلم تحيل إلى الفاعل (حصين بن ضمضم): (٣٥ / وكان [هو] طوى [هو] ... فلا هو أبداه ولم

يتقدم [هو]، ٣٦ / وقال [هو] سأقضي حاجتي ثم ألقى عدوي ... ورائي، ٣٧ / فشد [هو] فلم يفرغ [هو]).

ثم ترتبط بقية الجمل بجملة (يفزع) الفرعية - عن طريق التقييد بظرف المكان (لدى): (فلم يفزع بيوتا ... لدى حيث ألفت ... لدى أسد شاكى السلاح ... جريء).

وعند هذا الحد تتوقف سلسلة ترابط الأبيات، لتؤذن ببداية جزء جديد من أجزاء النص، يترابط مع الجزء السابق عن طريق التوازي التركيبي بين جملتي المفتوح في كل منهما:

لعمري (مبتدأ) + خبر محذوف // لعمرك (مبتدأ) + خبر محذوف

فكل جملة من الجملتين جملة إنشائية بنيتها العميقة واحدة، لكن تحول الضمير (المضاف إليه) من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطب أكد بداية الجزء الجديد.

وتسير الأبيات في هذا الجزء - كما سارت في الجزء السابق - في ركاب هذا السياق الإنشائي المتصدر الأبيات؛ إذ تترابط بالفاعل (رماحهم) الجملة التالية: (٤١ / ولا شاركت (هي) ... في دم نوفل ولا وهب ...)، ثم ترتبط بهذه الجملة الفرعية جملة (أرى) في قوله: (٤٢ / فكلأ أراهم أصبحوا يعقلونه)، ثم تقيد جملة (يعقلونه) - الواقعة في سياق المفعول الثاني - بالجار والمجرور في البيت التالي: (٤٣ / لحي ...)، ثم تترابط الأبيات التالية بهذا الجار والمجرور عن طريق (النعت): (٤٣ / حلال - يعصم الناس أمرهم، ٤٤ / كرام ...، ٤٥، ٤٦ / رعوا ظمأهم حتى ... فقصوا ... ثم أصدروا).

(١) شرح القصائد العشر: ص ١٨٧.

(*) جر عليهم: جنى عليهم، يواتيهم: يوافقهم.

وهكذا تتتابع الجمل في سلسلة من الروابط المحكمة المتنوعة، لتكون جزءا متماسكا تماسكا محكما؛ إذا بدأ المتلقي قراءته لا يستطيع أن يتوقف حتى تنتهي هذه المجموعة من الأبيات.

ثم تتحول الأبيات إلى جزء آخر يبدأ بجملة خبرية، لكنه يختلف عن الجزأين السابقين في أن الجملة هنا جملة فعلية (سُئِمْتُ)، في حين أن جملتي المطلع في الجزأين السابقين كانتا اسميتين.

وتترابط جمل هذا الجزء بمجموعة من الوسائل^(١):

أولها: العطف بين جملة المطلع وجملة (أعلم)، ثم توالي العطف بين الجمل بالواو العاطفة التي جمعت الأبيات في نسق واحد.

ثانيها: التجاور التركيبي بين جملتي الخبر (سُئِمْتُ - رأيت).

ثالثها: التوازي التركيبي بين جمل الشرط التي اتحدت بنيتها العميقة فجاءت كلها في بنية: (أداة الشرط + فعل الشرط + جواب الشرط).

رابعها: الاتحاد في أداة الشرط (مَنْ) الدالة على الشخص العام، ولم تختلف الأداة إلا مرة واحدة في قوله:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ * * * وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

غير أن (مهما تكن عند امرئ) تساوي (مَنْ يفعل)، فقد اختلف سطح العبارة واتفق عمقها.

(١) انظر: الجملة في الشعر العربي: ص ١٩٤ - ١٩٦. والإبداع الموازي: ص ١٨٢ - ١٨٥ (* خليقة: خصلة وخُلُق، خالها: حسبها.

وهكذا تسير الأبيات في إطار (الحكمة) حتى آخر بيت في القصيدة لتكتمل بذلك أجزاءها متماسكة تماسكا محكما، برغم الاستقلال النسبي لكل جزء، واختلافه عن بقية الأجزاء.

عند هذا الحد يتبين لنا أن التقابل والتجاور بين التراكيب الخبرية والإنشائية، يعد معيارا من المعايير النحوية الرئيسية التي يحتكم إليها في تقسيم النص إلى أجزائه المكونة له.

ثانيا: المعايير الدلالية:

تتضافر مجموعة من المعايير الدلالية - مع المعايير النحوية السابقة - التي يمكننا الاعتماد عليها في تقسيم النص؛ لكيلا تتسم محاولتنا بالذاتية وتحكيم الذوق. ونحن عندما نعتمد على الدلالة إنما نعتمد على النحو؛ إذ الدلالة هي الوجه الآخر الظاهر الذي يقبع النحو خلفه، ويوجهه أينما توجه. فالدلالة ناتجة من نتائج النحو؛ لذا فنحن عندما نحتكم إلى المعايير الدلالية من تفريع دلالي وتداعٍ - نستعين كثيرا بالمعايير النحوية الأنفة الذكر.

١. التفريع الدلالي:

قد يبدأ الشاعر قصيدته بجملة افتتاحية بها كثير من الإجمال، ثم يبني قصيدته بعد ذلك عن طريق تفصيل ذلك الإجمال؛ معتمدا على التفريع الدلالي.

فالتفريع الدلالي يعني أن جملة رئيسية تتفرع إلى جملتين فرعيتين أو أكثر اعتمادا على المعطيات اللغوية بالجملة الرئيسية، وقد تتفرع إحدى الجمل الفرعية إلى مجموعة من الجمل، وهكذا حتى نصل إلى نهاية النص.

وبذلك ينتهي النص إلى مجموعة من التفريعات الدلالية، كل فرع يمكن اعتباره جزءاً من أجزاء النص يتسم بالاستقلال النسبي عن بقية الأجزاء من جانب، وبالتبعية لها عن طريق التماسك النصي من جانب آخر.

ويتضح التفريع الدلالي في معلقة امرئ القيس التي تبدأ بالطلب:

قَفَا نَبْلُكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ * * *

وطلب الوقوف هنا ليس من أجل الوقوف ذاته، لكنه وقوف من أجل البكاء الذي هو دلالة جواب الطلب. وعن طريق تقييد فعل البكاء بالجاء والمجرور (من ذكرى حبيب)، واختيار حرف الجر (من) الذي يحمل - هنا - معنى السببية - يبين لنا الشاعر أن البكاء له من الأسباب ما يبرره، وأول هذه الأسباب (ذكرى الحبيب)، أما السبب الآخر فيتضح من خلال عطف (منزل) بالواو وعلى (ذكرى الحبيب)؛ إذ العطف إشراك في الحكم.

وهكذا يتضح أن الجملة الرئيسة (جملة المفتوح) قد اشتملت على السببين الرئيسين للبكاء، ولو نظرنا إلى أبيات المعلقة منذ بداية الشطر الثاني من البيت الأول حتى نهايتها - لوجدنا أن الأبيات قد انقسمت إلى فرعين رئيسيين؛ فرع يتحدث عن المنزل ويشمل الأبيات من الشطر الثاني من البيت الأول حتى نهاية البيت السادس، وفرع يتحدث عن (ذكرى الحبيب) ويشمل بقية الأبيات من السابع حتى نهاية المعلقة. أما الأبيات التي تتحدث عن (المنزل) فقد كونت الجزء الأول من أجزاء النص، وتماسكت عن طريق وسيلتين:

أولاهما: عودة الضمائر محيلة إلى (الدار) المؤنث الغائب الذي هو مفهوم كلمة (المنزل)، أو لنقل المرادف الدلالي له. (٢/ لم يعف رسمها - لما نسجتها، ٣/ في عرصاتها وقيعانها، ٥/ وقوفا بها).

والأخرى: الإحالة بالمرادف الدلالي لكلمة (منزل): (٤/ لدى سمرات الحي، ٦/ رسم دارس).

ولعلنا نلاحظ أن الأبيات التي تحدثت عن (المنزل) تعد قليلة جداً، إذا ما قيست بالأبيات التي تحدثت عن (ذكرى الحبيب)؛ وذلك إنها يرجع إلى أن امرأ القيس ما كان ليكي من أجل المنزل إلا لأنه موطن تلك الذكرى (ذكرى الحبيب)؛ لذا يتعجل الحديث عنه - برغم أنه تالٍ لذكرى الحبيب في الأهمية وتابع لها - كي يتفرغ إلى (ذكرى الحبيب) ويوفيقها حقها.

يتحول امرؤ القيس إلى (ذكرى الحبيب) فيتفرغ الحديث عنها في مجموعة من الأجزاء؛ يبدأ الجزء الأول بالكاف التشبيهية الجارة التي تعمل على التماسك النصي بين الأجزاء التالية الخاصة بذكرى الحبيب مع الجزء السابق الخاص بالمنزل.

ويتضافر مع التفريع الدلالي معيار نحوي يؤيد هذا التفريع ويعضده؛ هذا المعيار هو (تحويلات الضمائر) إذ التفت الشاعر من التكلم في نهاية الجزء السابق في قوله: (٦/ شفائي) إلى الخطاب في هذا الجزء، وإن كان يخاطب نفسه عن طريق التجريد: (٧/ كدأبك).

وتورد الأبيات من السابع حتى التاسع تجربتين توضحان ذلك (الدأب) وتلك العادة لتنتهي إلى (دلالة البكاء) كما بدأ الجزء الأول، وكأن الشاعر لا يملك إلا الدموع، لكن البيت الأخير في هذا الجزء (الجزء الثاني) قد اشتمل على إشارة إلى

الفروسية في قوله (محملي)، وسوف نرى كيف ستصبح هذه الفروسية وسيلة التخلص من همومه وأحزانه، عندما يتحدث عن (الفرس / وسيلة الهروب من الأحزان).
ثم ينتقل الشاعر إلى مجموعة أخرى من التجارب التي يهون بها عن نفسه عندما صالحته الأيام، وفي ذلك دلالة مختلفة عن دلالة الجزء السابق، مما يؤذن ببداية جزء جديد.

وتقف الضمائر مرة أخرى مع الدلالة؛ إذ تتحول من الخطاب الذي كان في بداية الجزء السابق (البيت السادس) إلى التكلم في نهايته (٩/ مني - دمعي - محملي)، لتتحول مرة أخرى في بداية هذا الجزء (الجزء الثالث) إلى الخطاب مرة أخرى: (١٠/ ألا رب يوم لك...)، ثم تتحول الضمائر إلى التكلم مرة أخرى بعد البيت الأول في هذا الجزء: (١١/ ويوم عقرت... مطيتي، ١٣/ ويوم دخلت، ١٥/ فقلت... ولا تبعديني، ١٦/ قد طرقت... فألهيتها، ١٧/ وتحتي، ١٨/ علي).

والناظر في هذا الجزء يلحظ أنه قد احتوى مجموعة من التجارب؛ كل تجربة بدأت بظرف الزمان (يوم) فيما يشبه (التفريع الداخلي) داخل الجزء الواحد: (١٠/ ألا رب يوم، ١١/ ويوم عقرت، ١٣/ ويوم دخلت، ١٨/ ويوما على ظهر الكتيب).
ويؤيد وجود التفريع، وكونه تفريعا داخليا، أمران:

أولهما: على مستوى النص: لو نظرنا في الجزء السابق (٦ - ٩) لوجدنا أنه قد بدأ بالخطاب وانتهى إلى التكلم، كما أن هذا الجزء (بكل فروعه الداخلية) قد بدأ بالخطاب وانتهى إلى التكلم؛ فيما يشبه التوازي بين الجزأين، وهذا يؤكد أن هذه الفروع كلها تكون جزءا واحدا.

ثانيهما: على مستوى الجزء: نجد أن الفرع الأول قد اختلف عن بقية الفروع؛ إذ بدأ بأداة الاستفتاح (ألا) فضلا عن اختلافه في نوع الضمير - كما بينا - في حين تشابهت الأجزاء الأخرى فيما بينها؛ فبدأت بداية واحدة خالية من أدوات الاستفتاح، واتفقت في الضمائر المحيلة إلى الشاعر فجاءت دالة على المتكلم.

وهكذا تضافرت الدلالة مع النحو في بيان أن الأبيات من العاشر حتى الثامن عشر تمثل فرعاً دلالياً من أفرع الحديث عن (ذكرى الحبيب)؛ ومن ثم يمثل جزءاً من أجزاء النص يتحقق له بعض الاستقلال، ويتماسك مع الجزء السابق تماسكا نحويا عن طريق التشابه في تحولات الضمائر، وتماسكا دلالياً باعتباره فرعاً دلالياً من أفرع الأصل الدلالي الأكبر الذي هو (ذكرى الحبيب) قسيم الفرع الثاني (المنزل).

ثم تنتقل الأبيات إلى فرع دلالي آخر يبدأ ببدء المرأة (فاطمة)، وتلك بداية مختلفة عن البداية السابقة (في الجزء السابق)، وهذا يوحي باستقلالية الأبيات - عن الأبيات السابقة - منذ هذا البيت، ويؤكد عدم كونه فرعاً داخليا من أفرع الجزء السابق أنه لم يبدأ بظرف الزمان (يوم) كما هو حال تلك الفروع.

ويستغرق الحديث عن هذه التجربة أربعة أبيات من التاسع عشر حتى الثالث والعشرين، وتترابط أجزاء هذه التجربة بروابط نحوية تتمثل في إحالة ضمائر المخاطبة إلى المنادى (فاطم) في أول الجزء: (١٩/ كنت قد أزمعت.. فأجمل، ٢٠/ أغرّك.. حبك.. وأنك.. تأمري، ٢١/ ساءتك.. فسلي.. ثيابك، ٢٢/ عيناك.. لتضربي بسهميك).

وتنتقل الأبيات دلالياً إلى فرع آخر من أفرع (ذكرى الحبيب)، يمثل تجربة مختلفة تستغرق الأبيات (٢٣ - ٤٣)، ويتوازي مطلعها نحويا مع مطلع الجزء الثالث:

(١٠ - ألا ربّ يوم.. // ٢٣ - و «رُبَّ بيضة خدر..)

وتترابط أجزاء هذا الفرع عن طريق المزاوجة بين (حركة الضمائر) التي تحيل إلى الشاعر، أو إلى المرأة (الموصوف المحذوف الذي ناب عنه صفته «بيضة خدر»):
(٢٣) / خباؤها - بها، ٢٤ / تجاوزت - إليها ٢٦ / فجئت وقد نضت (هي) ... ثيابها،
٢٧ / فقالت ... ما لك ... أرى عنك، ٢٨ / خرجت بها أمشي - تجر (هي) ٣٠ /
هصرت ... فتمايلت (هي) (علي).

أو أن تترابط عن طريق الضمائر التي تحيل إليهما معا، وذلك عند بيان اتحاد الغرض والقصد، كأنهما قد أصبحا نفسا واحدة، وذلك في قوله (٢٨) / ورائنا، ٢٩ / أجزنا.. أنتحي بنا).

أو أن تترابط عن طريق ضمائر الغائبة التي تحيل إليها وحدها، وذلك في سياق وصفها: (٣١) / (هي) مهفهفة بيضاء، ٣٢ / كبكر المقناة ... غذاها، ٣٣ - ٣٧ / تصد وتبدي عن أسيل ... وجيد ... وفرع ... وكشح، ٣٨ / وتضحى ... فوق فراشها، نؤوم الضحى، لم تتنطق ...، ٣٩ / وتعطر ٤٠ / تضيء ... كأنها ...، ٤١ / إلى مثلها ... اسبكرت).

ثم تظهر الضمائر المحيلة إلى الشاعر مرة أخرى، وتتحول الضمائر المحيلة إلى المحبوبة إلى الخطاب إيدانا بانتهاء هذا الجزء:

(٤٢) / فؤادي.. عن هواك...، ٤٣ / .. فيك.. رددته).

ثم ينتقل النص إلى فرع آخر هو (الحديث عن الليل) ولكن كيف يكون الحديث عن الليل فرعا من فروع (ذكرى الحبيب)؟!

إننا لو نظرنا إلى الجزء السابق مرة أخرى لوجدنا أن جميع الأحداث تحدث في الليل (٢٥) / إذا ما الثريا في السماء تعرضت، ٢٦ / فجئت وقد نضت لنوم ثيابها).

كما أننا لو رجعنا إلى أول أجزاء الحديث عن (ذكرى الحبيب) لوجدنا الشاعر يبدأ بقوله: (٧) / كدأبك..؛ إن جميع الأحداث منذ هذا البيت (السابع) حتى البيت الثالث والأربعين - مجموعة من الذكريات التي تفرعت عن أصل واحد هو (دأب الشاعر وعادته)، كما أن هذه الأحداث وتلك التجارب انتهت بنهاية واحدة في كل مرة (فراق الحبيب)، ثم بعد الفراق تنقلب الأحداث إلى (ذكرى)، ولا يستطيع أن يهرب من هذه الذكريات ولا أن ينساها:

٤٢. تَسَلَّتْ عَمَائَاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصَّبَا وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنْسَلٍ
٤٣. أَلَا رَبَّ خَضَمٍ فِيكَ أَلَوَى رَدَدْتُهُ نَصِيحَ عَلَى تَغْدَالِهِ غَيْرُ مُؤْتَلٍ

لقد «تسلت الرجال عن عمايات الصبا أي خرجوا من ظلماته»^(١)، أما هو فلا يزال يعيش في ظلماته.

لذلك كله ابتداء الشاعر الجزء الذي بين أيدينا بالحديث عن الليل وليس الليل هنا ليلا حقيقيا؛ إنه تلك العمايات (عمايات الصبا) التي لم يخرج من ظلماتها؛ إنها (ظلمات / ليل كموج البحر).

ويبدأ الشاعر هذا الجزء بهذا التركيب (واو رُبَّ + رُبَّ محذوفة + اسم مجرور) كما بدأ الجزء السابق: (٢٣) / وبيضة خدر ... / ٤٤ / وليل كموج البحر... ليتوازي بذلك المطلعان؛ ومن ثم يتماسكان تماسكا نحويا عن طريق ذلك التوازي التركيبي، ودلاليا عن طريق سير الأحداث في إطار دلالي واحد هو (الهم والحزن الناتج عن عدم الخروج عن عمايات الصبا وظلماته).

ويظل الليل جاثما على صدر الشاعر، ولا يستطيع الخروج منه إلا باللجوء إلى فروسيته؛ ومن ثم يبدأ فرع آخر من أفرع (ذكرى الحبيب) إنه (إرادة الهروب من تلك

(*) تسلت: بطلت وانكشفت، عمايات الصبا: ظلماته، منسل: زائل.

(١) شرح المعلقات السبع: ص ٢٥.

الذكرى)؛ فنتقل الأبيات إلى الحديث عن (الفرس / وسيلة الهروب) فسيتفرق وصفه الأبيات من الثامن والأربعين حتى الثامن والخمسين، وتترابط هذه المجموعة من الأبيات عن طريق عودة الضمائر إلى هذا الفرس (الموصوف المحذوف) وتطول الجملة عن طريق التقييد بالنعت لتصبح جملة واحدة طويلة تبلغ عشرة أبيات

ثم عن طريق عودة الضمائر إلى الفرس والشاعر معا في لحظة تبين مدى حب الشاعر لفرسه وفروسيته، وكأنها نفس واحدة: (٥٩ / فعنّ لنا...، ٦١ / فألحقنا...). ثم تنتهي الأبيات بمفردات تحمل في طياتها معنى السكون والهدوء والرضا بما تحقق من نجاح، ويبين مدى الإعجاب بهذا الفرس:

٦٤. وَرُحْنًا يَكَادُ الطَّرْفُ يَقْضُرُ دُونَهُ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسْقُلُ
٦٥. قَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَجِأَمُهُ وَبَاتَ بَعَيْنِي قَائِمًا غَيْرَ مُرْسَلٍ*

لينتهي بذلك مشهد من المشاهد الدلالية التابعة لـ (ذكرى الحبيب).

ثم تنتقل الأبيات إلى الفرع الأخير أو المشهد الأخير من مشاهد (ذكرى الحبيب) وهو (مشهد البرق).

لقد نجح الشاعر في أن يخرج من عمايات الصبا، وكانت وسيلته هي (فروسيته)، واطمأن إلى هذا النجاح، لكنه يريد أن يغير كل شيء، يريد أن يعيش حياة جديدة؛ لذا يلجأ إلى (البرق) فيستخدمه بوصفه وسيلة من وسائل التطهير، إنه يريد أن يتطهر من الماضي، يريد أن يحيا حياة جديدة آمنة، لذا نجد البرق يهلك السباع:

٧٧. كَانَ السَّبَاعُ فِيهِ عَرَقِي عَشِيَّةً بِأَرْجَائِهِ الْقُصُوى أَنَابِيشُ عُصْلٍ**

(*) الطرف: اسم لما يتحرك من أشفار العين، ترقى: ترتفع، غير مرسل: أي غير مرسل إلى المرعى.
(**) أنابيش: أصول النبت، العنصل: البصل البري.

وفي المقابل يبعث (النماء والخصب) الذي يقابل تلك (الأطلال / الرسم الدارس) التي طالعنا في أول القصيدة.

وتترابط أجزاء هذا المشهد - كما ترابطت جميع الأجزاء من قبل - عن طريق عودة الضمائر إلى مفعول الرؤيا (برقا): (٦٦ / أصاح ترى برقًا.. وميضه، ٦٧ / يضيء سناه، ٦٨ / له، ٦٩ / أيمن صوبه وأيسره، ٧٠ / فأضحى (هو) يسح (هو).. يكب (هو)، ٧١ / من نفيانه فأنزل (هو)، ٧٢ / لم يترك (هو)، ٧٣ / في عرائن وبله، ٧٥ / وألقى (هو) بعاعه، ٧٧ / كأن السباع فيه غرقى...).

وهكذا يعد (التفريع الدلالي) معيارا أساسيا يعتمد عليه في تقسيم النص، لكنه - كما رأينا - لا يقف وحده، إذ تسانده المعايير النحوية من (تقابل أو تجاوز تركيبى - تحولات الضمائر...).

وبذلك تصبح معلقة امرئ القيس مكونة من فرعين دلاليين رئيسيين، تفرع أحدهما إلى مجموعة من الفروع.

٢- التداعي الدلالي:

يشير أستاذنا الدكتور محمد حماسة إلى أن القصيدة قد تحتوي في كثير من الأحيان مجموعة من التداعيات، فيقول « يجب ألا نغفل التداعيات المختلفة التي يقدمها الشاعر في قصيدته، وقد تبدو لنا وكأنها مفككة غير مترابطة الأجزاء، فإنها في الحقيقة مترابطة متحدة متألّفة، وعلينا أن نبذل شيئا كثيرا من الجهد في الكشف عن هذا الترابط، فليست القصائد قضايا منطقية تسلم مقدماتها لنتائج محددة، ولكن القصيدة إثارة شعورية وعاطفية وفنية وفكرية معا، قائمة على معمار لغوي »^(١).

(١) اللغة وبناء الشعر: ص ١٠٢ - ١٠٣.

إن التداعي يكون - غالبا - بين أشياء علاقاتها واهية، وبين أحداث متباعدة^(١)؛ كأن يشم الشاعر عطرا، فيذكره ذلك العطر بقاء سالف، فيتحدث عن هذا اللقاء. وكأن يرى غزالا فيتذكر محبوبته، فيمضي في وصفها، وهكذا.

إننا يمكننا الاعتماد على هذه التدايعات الدلالية في تقسيم النص إلى أجزائه المختلفة. لكن التدايعات الدلالية لا تقف وحدها، فلا بد لها من سند نحوي يعضدها، هذا السند النحوي هو أحد تلك المعايير النحوية مثل (التقابل والتجاور التركيبي - التوازي التركيبي - تحولات الضمائر...)، وهذه المعايير النحوية تعمل في اتجاهين:

أولهما: أنها تقف بجانب المعايير الدلالية التي يُحتكم إليها في تقسيم النص. ثانيهما: أنها تعمل على ترابط أجزاء النص، وهذا ما أشار إليه الدكتور محمد حماسة في نصه السابق معللا ذلك بأن القصيدة قائمة على معمار لغوي، وتلك حقيقة صادقة إلى حد بعيد.

إننا لو نظرنا إلى معلقة عمرو بن كلثوم^(٢) لوجدناها مجموعة من الأحداث المتداعية المتتابعة المسلوكة في رباط نحوي خفي يعمل على تماسكها؛ ويتمثل في التوازي التركيبي أو التقابل التركيبي بين مطالع الأجزاء المقسمة تبعا لذلك المعيار الدلالي الذي نحن بصدد.

فالمعلقة تبدأ بأسلوب إنشائي يتمثل في أداة الاستفتاح (ألا) التي يليها فعل الأمر (هي) ثم تسير الأبيات في إطار الحديث عن ذلك الشيء المأمور

(١) انظر: دينامية النص: د. محمد مفتاح: ص ١٦٢.

(٢) استفدت كثيرا من فهم الدكتور صلاح رزق لهذه المعلقة، انظر: جماليات القصيدة الجاهلية: ص ١١٧ - ١٩٥.

باصطحابه (بصحنك)، وتتوالى الجمل واصفة تلك الخمر التي يحتويها ذلك (الصحن)، حتى إذا بلغ من وصفها ما يريد، تتداعى على خاطره كؤوس أخرى، قد شربها في أماكن أخرى:

٧. وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكْ وَأُخْرَى فِي دِمَشَقٍ وَقَاصِرِنَا

لكن التداعي - هنا - (تداعٍ داخلي) لم تبدأ به القصيدة جزءا جديدا؛ ذلك لأن سياق هذا البيت لا يختلف عن سياق الأبيات السابقة، فما زالت الأبيات تسير في سياق دلالي واحد هو (سياق الحديث عن الخمر).

ويعلل الشاعر لهذا الإقبال على ملذات الحياة بأن المنيا سوف تدرك الجميع إنها (مقدرة لنا) ونحن (مقدرون) لها.

إن الحديث عن (الموت / فراق الحياة) في البيت الثامن (آخر أبيات هذا الجزء) يعمل على تداعي فراق آخر لا يقل عن هذا الفراق خطورة، إنه فراق المحبوبة ورحيلها؛ ومن ثم تبدأ الأبيات في جزء جديد اعتمادا على هذا التداعي:

٩. قَفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ظَعِينَا نَحْبِرُكَ الْيَقِينِ وَتُحْرِينَا

وتتضافر المعايير النحوية مع هذا المعيار الدلالي فتعمل على إقرار ذلك التقسيم، وذلك أن مطلع هذا الجزء يبدأ بأسلوب إنشائي بالأمر (قفي) فيتوازي بذلك مع مطلع الجزء السابق:

٩ / قفي
↓

أمر + مخاطبة (المحبوبة الطاعنة)

١ / هي
↓

أمر + مخاطبة (الساقية)

وهذا التوازي التركيبي بين المطلعين يعمل على تماسك أجزاء النص، كما أنه يحتوي في داخله ما يعمل على استقلال كل جزء استقلالاً نسبياً، وذلك لاختلاف

المأمور في كل مرة، واختلاف المادة المعجمية التي شغلت بنية الأمر في كل منهما، هذا بجانب (التداعي الدلالي) الذي هو المعيار الأساسي في التفرقة بين الجزأين. وكما توالى الجمل تصف الخمر في الجزء الأول - توالى الجمل كذلك تصف تلك الظعينة الراحلة حتى نهاية البيت الثامن عشر.

ثم يتخذ الشاعر من مشهد الظعن عنصرا أساسيا هو (الناقة) ليشبه نفسه - عندما رحلت محبوبته - بهذه الناقة في حال فقدانها ولدها، ثم يؤكد ذلك بتشبيه آخر هو صورة تلك العجوز الشمطاء التي فقدت تسعا من الأبناء، بل إنه يرى أن حزنه قد فاق هذين العنصرين إذ قال:

فَمَا وَجَدْتُ كَوَجْدِي

إن هذا الحزن هو الذي جعله ينتهي إلى تشبيه (أرض اليمامة) التي رحلت إليها محبوبته بالأسياف المشهورة من أغمارها.

ويتهي هذا الجزء عند هذا الحد ليبدأ جزء جديد اعتمادا على التداعي الدلالي أيضا؛ إذ إنه لما ذكر الأسياف في آخر الجزء السابق تداعت إلى ذهنه صورة الحرب، فما كان منه إلا أن يتوجه إلى (عمرو بن هند) يطلب منه أن يتمهل حتى يخبره ذلك (اليقين) الذي هو انتصاراتهم المتوالية في حروبهم المختلفة؛ فأجل ذلك في مفتتح الجزء، فقال:

٢٣. أبا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا * * * وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا

ثم بدأ يفصل ذلك (اليقين) في الأبيات من الرابع والعشرين حتى الثالث والخمسين.

ولعلنا نلاحظ أن النحو يقف مساندا للتداعي الدلالي للمرة الثالثة في هذه

المعلقة؛ إذ يبدأ هذا الجزء بالأسلوب الإنشائي المتمثل في (النداء ثم النهي ثم الأمر).

- أبا هند (نداء).

- فلا تعجل (نهي).

- وأنظرنا (أمر).

ليتوازي بذلك مطلع هذا الجزء أسلوبيا مع المطلعين السابقين تأكيداً على تماسك أجزاء النص، برغم ذلك الاختلاف بين الأجزاء الذي يعمل على استقلالية كل جزء بذاته.

وتظل الأبيات تسير في إطار توجيه الخطاب إلى (عمرو بن هند) لتنتهي إلى

تقرير تلك الحقيقة التي يسوقها في آخر أبيات هذا الجزء:

٥٢. أَلَا لَا يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ أَنَّا تَضَعُضَعْنَا وَأَنَا قَدْ وَنِينَا

٥٣. أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

وتنتهي الأبيات كما بدأت بذلك الأسلوب الإنشائي المتمثل في النهي الذي يحمل معاني التهديد، والمسبوق بـ (ألا) الاستفتاحية التي تنبه السامع إلى أهمية ما يأتي بعدها.

وبعد أن ينتهي من إخبار عمرو بن هند بذلك (اليقين)، يتوجه إليه

بالاستفهام الذي يحمل معاني التهديد، مفتتحاً بذلك جزءاً جديداً من أجزاء النص:

٥٤. بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَوْ بَنَ هِنْدٍ نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا

إنهم لم يضعفوا ولم يهنوا، وقد أخبره اليقين من قبل، فكيف يطمع فيهم الملوك رغبة في إذلالهم؟!

ويبلغ التهديد والهجاء ذروته عندما يقول:

٥٦. مُهْدِدُنَا وَتُوْعِدُنَا رُوَيْدَا مَتَى كُنَّا لَأَمِّكَ مَقْتُونَا

وعندئذ يتداعى الماضي إلى الذهن بكل إباطه وعزته، فيعدد ذلك مفاخرا، وتسيطر على الأبيات (من السابع والخمسين حتى الرابع والسبعين) ضمائر الجمع، وتذوب شخصية الشاعر في شخصية الجماعة، ليؤكد بذلك تلك العزة المستمدة من الماضي.

وبذلك تتضافر المعايير النحوية مع التداعي الدلالي في بيان استقلال هذا الجزء (٥٤ - ٧٤)؛ وتمثل المعايير النحوية في البداية بالأسلوب الإنشائي (الاستفهام) ليتوازي بذلك مع مطالع الأجزاء السابقة، كما تتمثل في الضمائر المحيلة إلى الذات الجماعية.

ثم تنتقل القصيدة إلى جزء آخر يبدأ بأسلوب إنشائي هو اسم فعل الأمر (إليكم: أي تنحوا)؛ ليتناسك هذا الجزء مع الأجزاء السابقة عن طريق ذلك التوازي التركيبي بين مطلع ومطالع الأجزاء السابقة.

لكن هذا الانتقال قد اعتمد على معيار التداعي الدلالي؛ إذ إن تداعي الماضي بمجده - في الجزء السابق - يعد تمهيدا ومدخلا مناسباً لهذا الأمر الذي يحمل كثيرا من معاني التحقير التي يخلعها على المخاطبين (بني بكر).

ولا شك أن توجيه الحديث إلى (بني بكر) يستوجب استدعاء ذكريات الحروب المشتركة بين قبيلة الشاعر وبينهم؛ لذا تسير الأبيات في ظلال ذلك التداعي الداخلي (داخل هذا الجزء) حتى تنتهي بنهاية البيت الثالث والتسعين:

٩٣. يُدْهَدُونُ الرَّؤُوسَ كَمَا تُدْهَدَى حَزَاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهَا الْكُرَيْنَا*

ثم ينتهي الشاعر إلى آخر أجزاء النص مؤكدا على كل ما مضى - من أحكام، فيخالف للمرة الأولى بين مطالع الأجزاء؛ فيأتي بمطلع هذا الجزء مطالعا خبريا؛ ليتقابل هذا الجزء تركيبيا مع جميع الأجزاء السابقة، وكأنه يؤكد حقيقة ثابتة لا يختلف عليها اثنان بله القبائل من معد:

٩٤. وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُبِبُ بِأَبْطَحِهَا بُيْنَا

وتسيطر ضمائر الجماعة على الأبيات مرة أخرى، وتذوب شخصية الفرد في شخصية الجماعة، كما ذابت فيها من قبل. ويسوق الشاعر مجموعة من الأحكام التي تتداعى داخل هذا الجزء حتى ينتهي - بنهاية القصيدة - إلى قمة الفخر عندما يقول:

١٠٣. إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخَرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

وهكذا يتضح أن معلقة عمرو بن كلثوم يمكن أن تقسم إلى ستة أجزاء اعتمادا على معيار التداعي الدلالي، مع الاستئناس بالمعايير النحوية - التي تؤيد ذلك - كالتوازي والتقابل التركيبين، وحركة الضمائر داخل النص.

(*) يدهدون: يدرجون، حزاورة: جمع حزور، وهو الغلام الغليظ الشديد، الكرينا: الكرات.

عند هذا الحد يتبين لنا أننا إذا أردنا أن نقوم بتقسيم النص، فلا بد أن نحتكم إلى مجموعة من المعايير النحوية والدلالية ؛ لكيلا تتسم محاولتنا بالذاتية وتحكيم الذوق.

ولاشك أن هناك معايير نحوية ودلالية أخرى، غير التي تناولناها هنا، يمكن الاحتكام إليها في تناول النصوص، وأنها تحتاج من الباحثين أن تتضافر جهودهم في بيانها من خلال دراسة النص الأدبي.

الفصل الرابع

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين

مدخل:

لقد اهتمت القصيدة العربية القديمة - في عصرنا الحاضر - بالتفكك وافتقارها إلى (الوحدة الموضوعية)، وأن وحدتها قد اقتضت على الوزن والقافية دون المعنى، وتلك أسطورة - كما يقول الدكتور طه حسين - «أنشأها الافتنان بالأدب الأوربي الحديث، والقصور عن تذوق الأدب العربي القديم»^(١).

أما علماء العربية القدماء - من نحاة ونقاد وبلاغيين - فقد فهموا وحدة القصيدة بناءً على معرفتهم بطبيعة النص الشعري، «فلم يلزموا الشعراء بالكتابة في موضوع واحد لا يتجاوزونه، بل قبلوا من الشعراء أن يختاروا من الأفكار ما يشاءون، بشرط مهم هو تحقيق الترابط بين هذه الأفكار، ومراعاة الاتساق والانسجام بينها في سياق القصيدة»^(٢).

فليس معنى تعدد الأفكار والموضوعات في القصيدة أنها تفتقد إلى الوحدة والتماسك، بل على العكس من ذلك تماماً؛ إن الشاعر ينوع أفكاره وأغراضه محاولاً بذلك أن يثبت الفكرة الرئيسية؛ فيسوق معها ما يناقضها لإبراز المفارقة، أو ما يناسبها ويوازئها لتحقيق التوكيد وبيان الموافقة.

فالشاعر - وخاصة القديم - يتحدث عن الأطلال والديار والفرس أو الناقة والرحلة ويصف البرق ... إلخ، وقد يبدو بذلك أنه يتحدث عن أشياء متباعدة، قد

(١) حديث الأربعاء، د. طه حسين، ص ٣٦-٣٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧ م.

(٢) الوحدة السياقية للقصيدة العربية: رؤية نحوية في تماسك النص الشعري: د. مصطفى عراقي: ص ٢٢١ (صحيفة دار العلوم، الإصدار الرابع، السنة السادسة، ع ١٢، ديسمبر ١٩٩٨ م).

يبدو هذا في الظاهر، ولكننا بالنظر المتأنية نجد أن هذه الأشياء مترابطة متماسكة نحويًا بين تراكيبها وأجزائها، ودلاليا بين موضوعاتها، وإنما يلجأ الشاعر إلى ذلك التنويع ليثبت مراده بأكثر من وجه.

وسوف نتناول - فيما يلي من صفحات - إشارات المبدعين إلى ترابط أجزاء النص، وكذا جهود القدماء من نحاة ونقاد وبلاغيين في بيان هذا الترابط، ثم جهود المحدثين وإشاراتهم إلى ضرورة ذلك التماسك.

* إشارات المبدعين إلى التماسك النصي:

لاشك أن المبدعين هم أكثر الناس وعيا بطبيعة الشعر وكيفية بناء القصيدة؛ ومن ثم فهم عندما يطلقون أحكاما على الشعر، إنما يطلقونها إطلاق الخبير المجرب الذي يعرف الثوب معرفة الحائك، لا معرفة البزار (بائع الثياب). وأكبر دليل على أن الأصل هو أن يكون النص متماسكا متلاحم الأجزاء - أن يؤكد المبدع نفسه على ذلك ويتنبه له وينبه إليه، ويفخر بأنه يقول شعرا متماسكا مترابط الأجزاء^(١).

يروى الجاحظ أن عبيد الله بن سالم قال لرؤية: «مت يا أبا الجحاف إن شئت. قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت اليوم عقبة بن رؤية ينشد شعرا له أعجبني. قال: فقال رؤية: نعم إنه ليقول، ولكن ليس لشعره قران»^(١).

(١) راجع في ذلك بحث الدكتور مصطفى عراقي السابق: الوحدة السياقية للقصيدة العربية: رؤية نحوية في تماسك النص الشعري (صحيفة دارالعلوم، الإصدار الرابع، السنة السادسة، ع ١٢٤، ديسمبر ١٩٩٨ م).

ويورد الجاحظ ما أنشده ابن الأعرابي^(٢):

وَبَاتَ يَذْرُسُ شِعْرًا لَا قِرَانَ لَهُ *** قَدْ كَانَ نَقَحَهُ عَامًا فَمَا زَادَا

ويفسر الجاحظ (القران) بأنه: التشابه والموافقة. ويعد البيت الذي أنشده ابن الأعرابي نصا صريحا في أن الشاعر القديم كان يجلس إلى قصيدته حولا ينقحها؛ كي تأتي متوافقة متقارنة متماسكة الأجزاء غير متنافرة، آخذة أبياتها بأعناق بعض. ويورد الجاحظ كذلك قول عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ قال: لأنني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه^(٣).

ويفسر الجاحظ تلك المؤاخاة - في موضع آخر - بقوله: «وجعل البيت أخا البيت إذا أشبهه وكان حقه أن يوضع إلى جنبه»^(٤).

ويصف الشعراء الشعر المتنافر الأجزاء بأنه شعر مبدد مفرق مثل (بعر الكباش)، أو بأنه كـ (أولاد العلة): أنشد خلف الأحمر في هذا المعنى^(٥):

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ *** يَكْدُ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ

ويقول أبو البيداء الرياحي^(٦):

وَشِعْرٌ كَبْعَرِ الْكَبْشِ قَرَّقَ بَيْنَهُ *** لِسَانُ دَعِيٍّ فِي الْقَرِيضِ دَخِيلِ

إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي النِّظِّ *** سَمَ وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُتُونًا

ويقول أبو العباس الناشئ مبينا أهمية «التناسب والتشابه» في بناء القصيدة^(١): وهو بذلك يدحض شبهة افتقار القصيدة القديمة إلى الوحدة الموضوعية؛ فالشعر - عنده - ما تناسب في النظم وتشابهت أجزاؤه، وإن كان متعدد الأغراض (الفنون).

(١) البيان والتبيين: ج ١ ص ٦٨، ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) السابق: ج ١ ص ٦٨.

(٣) السابق: ج ١ ص ٢٠٦.

(٤) السابق: ج ١ ص ٢٢٨.

(٥) السابق: ج ١ ص ٦٦.

(٦) السابق: ج ١ الصفحة نفسها.

وما التماثل والتناسب إلا وسيلتان من وسائل التماسك النصي، فالشعر ما ترابطت أجزاؤه داخل بناء موسيقي واحد.

ويؤكد مرة أخرى أن تنوع الأغراض وتعددتها لا يقدر في بناء القصيدة، مادام الشاعر قد أحسن الجمع بينها، ووصل قريبها ببعيدها؛ فحقق للقصيدة تماسكها الذي هو شرطها الأساسي. يقول أبو العباس^(١):

وَجَعَلَتْ بَيْنَ قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ ** وَوَصَلَتْ بَيْنَ جَمْعِهِ وَمَعِينِهِ
فَيَكُونُ جَزْلاً فِي اتِّسَاقِ صُنُوفِهِ ** وَيَكُونُ سَهْلاً فِي اتِّفَاقِ فُتُونِهِ

ومن ذلك أيضاً "ما روي أن أبا الطيب المتنبي أنشد سيف الدولة قصيدته التي أولها:

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ** وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

فلما انتهى إلى قوله:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ ** كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمَرُّبِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَى هَزِيمَةً ** وَوَجْهَكَ صَبَّاحٌ وَتَغْرُكَ بَاسِمٌ *

قال له سيف الدولة: قد نقدنا عليك يا أبا الطيب ما نقدنا على امرئ القيس في قوله:

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِلدَّيَةِ ** وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاغِيًا ذَاتَ خَلْخَالٍ

وَلَمْ أُسَيِّبِ الزَّقِّ الرَّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ ** لِحَنِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ **

فقال له المتنبي: أيها الأمير، إن البزار (بائع الثياب) لا يعرف الثوب معرفة الحائك، وإذا صح النقد على امرئ القيس صح علي. وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة ركوب الصيد، وقرن السباحة - بسبب الخمر للأضياف - بالشجاعة في منازل الأعداء، وكذلك لما ذكرت الموت في البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره؛ ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوساً وعينه باكية، قلت: (ووجهك وضاح وتغرك باسم) لأجمع بين الأضداد^(١).

ويعلق حازم القرطاجني على تلك الرواية بقوله: «إن أبا الطيب أراد أن يقرن بين أن الردى لا نجاة منه لواقف وبين أن الممدوح وقف ونجا منه، وبين أن الأبطال ريعت وانهمزت، وأن سيف الدولة لم يُرغ ولم يهزم؛ وابتسام الشجر وانبلاج الوجه مما يدل على عدم الروع»^(٢).

وهكذا بين المبدعون أن النص لا بد أن تتماثل أجزاؤه بتشابهها وتقارنها، أو بالجمع بين أضدادها. لكننا نلاحظ أن هذه الإشارات قد اقتصرنا على بيان تماسك النص تماسكاً دلالياً، ولم ترد إشارة صريحة إلى (التماسك النحوي)؛ ولعل ذلك يرجع

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
(١) المثل السائر، ابن الأثير: ج ٣ ص ١٩٣-١٩٤. و: منهاج البلغاء، حازم القرطاجني: ص ١٥٩-١٦٠، و: ديوان المتنبي، تحقيق: د. عبد المنعم خفاجي وآخرين: ص ٣٢٨-٣٣٢، (مكتبة مصر، د.ت)، وديوان امرئ القيس، تحقيق: حنا الفاخوري: ص ٦٥ (طبعة دار الجليل - بيروت - د.ت).
(٢) منهاج البلغاء: ص ١٦١.

(١) انظر: العمدة، ابن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: ج ٢ ص ١١٣ (دار الجليل، بيروت، ط ٥، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).

(٢) انظر: العمدة: ج ٢ ص ١١٥.

* الردى: الهلاك، كلمى: جرحى، هزيمة: منهزمة، وضاح: مشرق.

إلى أن (التماسك الدلالي) أخفى فهو يحتاج إلى بيان وتوضيح؛ ومن ثم سكتوا عن (التماسك النحوي) لوضوحه حتى إنه لا ينكره منكر، أو هكذا ينبغي له.

* صور التماسك عند القدماء:

١. وسائل الترابط عند النحاة القدماء:

إذا نظرنا في كتب النحاة القدماء سنجد أنهم عندما يتطرق حديثهم إلى (الترابط ووسائله) يقفون عند حدود ترابط أجزاء الجملة، أو الترابط بين جملتين، لا يتعدون هذا الحد.

فابن يعيش في سياق حديثه عن (حروف المعاني) يرى أنه يؤتى بها^(١):

١. لربط اسم باسم، وهو معنى العطف، نحو قولك: جاء زيد وعمرو....

٢. لربط فعل بفعل، نحو: قام زيد وقعد....

٣. لربط جملة بجملة، نحو قولك: قام زيد وخرج بكر، وقولك: إن تعطني أشكرك...، وليس بين الفعلين اتصال ولا تعلق، فلما دخلت (إن) علقت إحدى الجملتين بالأخرى، وجعلت الأولى شرطا والثانية جزاء.

وعند حدود الربط بين جملتين يقف حديث النحاة مبينا وسائل ذلك الترابط، ولا يتطرقون إلى الحديث عن الترابط بين الجمل؛ على الرغم من أن ابن جني يقرر أن الكلام «لا يكون مع الحرف الواحد، ولا الكلمة الواحدة، بل لا يكون مع الجملة الواحدة دون أن يتردد الكلام، وتكرر فيه الجمل، فيبين ما ضمنه من العذوبة، وما في أعطافه من النعمة واللدونة»^(٢).

(١) انظر: شرح المفصل: ج ٥ ص ٥.

(٢) الخصائص: ج ١ ص ٣٢.

وقد حدد ابن هشام الأشياء التي تحتاج إلى الرباط فيبين أنها أحد عشر هي^(١):

الجملة المخبر بها، وبين أن روابطها عشرة، والجملة الموصوف بها، والجملة الموصول بها الأسماء، والجملة الواقعة حالا، والجملة المفسرة لعامل الاسم المشتغل عنه، وبدلا البعض والاشتغال، ومعمول الصفة المشبهة، وجملة جواب اسم الشرط المرفوع بالابتداء، والعاملان في باب التنازع، وألفاظ التوكيد الأول^(٢).

ويمكننا - من خلال مطالعة كلام ابن هشام في موضعه - أن نستخلص

وسائل الربط على مستوى جملة واحدة أو بين جملتين فيما يلي:

١. الضمير: وهو الأصل، ويربط جملة الخبر بالمبتدأ، وجملة الصفة بالموصوف، وجملة الصلة بالموصول، وجملة الحال بصاحبها، والجملة المفسرة لعامل الاسم المشتغل عنه بهذا الاسم، وبدلي البعض والاشتغال بالمبدل منه، ويربط جواب اسم الشرط المرفوع بالابتداء بهذا الاسم، وألفاظ التوكيد الأول بالمؤكد.

٢. الإشارة: وتربط جملة الخبر بالمبتدأ.

٣. إعادة اللفظ: وتربط جملة الخبر بالمبتدأ.

٤. إعادة المعنى: وتربط جملة الخبر بالمبتدأ.

٥. عموم في الخبر يشمل المبتدأ.

٦. فاء السببية: وتأتي رابطة للجواب، وذلك حيث لا يصلح لأن يكون شرطا، وهو

منحصر في ست مسائل: أن تكون جملة الجواب اسمية، أو فعلية فعلها جامد، أو فعلية

فعلها إنشائي، أو أن يكون فعلها ماضيا لفظا ومعنى، أو أن تقترن بحرف استقبال،

(١) انظر: مغني اللبيب: ج ٢ ص ٥٧٣ - ٥٨٦.

(٢) واحترز ابن هشام بذكر "الأول" عن أجمع وأخواته فإنها إنما تؤكد بعد (كل)، نحو: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون" ٣٠ / الحجر.

وقد تنوب (إذا الفجائية) عن الفاء في تلك المواضع نحو: «وإن تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ»^(١).

وتربط جملة الخبر بالمبتدأ في نحو: «الذي يأتيني فله درهم»، وذلك لأن «المبتدأ هنا وهو (الذي) مشبه باسم الشرط لعمومه وإبهامه واستقبال الفعل الذي بعده، وهو (يأتيني)، وكونه أي الفعل الذي بعده سببا لما بعده وهو جملة الخبر كما أن الشرط سبب في الجواب، ولهذا الشبه دخلت الفاء في الخبر كما تدخل في الجواب لتفيد التنصيص على أن استحقاق الدرهم مسبب عن الإتيان»^(٢)، ولو لم تدخل احتمل ذلك وغيره»^(٣).

٧. الواو: للربط بين جملتين بعطف الثانية على الأولى، وتربط جملة الحال بصاحبها بالاشتراك مع الضمير أو بدونه.

٨. العمل: يربط بين عاملين متجاورين عمل أولهما في ثانيهما نحو: «وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا...»^(٤) الآية.

٩. (أل) النائبة عن الضمير: وتربط جملة الخبر بالمبتدأ.

١٠. الترتب بين الشرط والجواب، نحو: «تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ»^(٥).

وعند هذا الحد وقف النحاة ليتركوا المجال للبلاغيين الذين استغلوا الإمكانيات النحوية أفضل استغلال عندما بينوا الترابط بـ (الفصل والوصل) بين الجمل؛ كما فعل عبد القاهر الجرجاني وأبو يعقوب السكاكي من بعده، ثم بيان ذلك

الترابط على مستوى الجزء من النص كما فعل عبد القاهر في (أسرار البلاغة)، ثم على مستوى النص كاملا كما فعل حازم القرطاجني، وسنوضح ذلك فيما يلي من صفحات إن شاء الله.

٢. الفصل والوصل بين الجمل:

لقد خَصَّ البلاغيون الترابط بين الجمل عن طريق العطف بحرف من حروف العطف، أو ترك العطف والترابط بوسائل دلالية أخرى - بحديث خاص تحت مسمى (الفصل والوصل)، واعتبروا العلم به من أسرار البلاغة. يقول عبد القاهر في مطلع حديثه عن (الفصل والوصل): «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى - من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّص، والأقوام طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام»^(١).

والناظر في النص السابق يجد أنه قد احتوى على حد كل من الفصل والوصل؛ فالوصل: هو ما يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، والفصل: هو ترك العطف والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى.

وسنعرض فيما يلي لتفصيل عبد القاهر القول في المسألة كما أفهمه^(٢):

أولاً: الوصل:

(١) دلائل الإعجاز: عبد القاهر، ص ٢٢٢.

(٢) انظر: السابق: ص ٢٢٢-٢٤٢.

(١) ٣٦ / الروم.

(٢) التصريح: ج ١ ص ١٧٤.

(٣) مغني اللبيب: ج ١ ص ١٨٧.

(٤) ٤ / الجن.

(٥) ٥ / المناقون.

يمكننا أن نلخص وجهة نظر عبد القاهر الجرجاني في (مواضع وصل الجمل) فيما يلي:

١. إذا كانت الجملة الثانية معطوفة على جملة لها موضع من الإعراب^(١):

وذلك كقولنا: «مررت برجل خُلِّقه حسن وخُلِّقه قبيح»، فوجه الحاجة إلى الواو - هنا - ظاهر؛ إذ إنها أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وهو كونها في موضع جر بأنها صفة للنكرة.

فالجملتان - هنا - مترابطتان ترابطاً نحوياً ودالياً؛ نحوياً بالواو العاطفة، ودالياً بما أفادته تلك الواو من معنى الجمع بين الجملتين الذي هو هنا جعل الجملة الثانية تحمل دلالة (الصفة للنكرة) التي تحملها الجملة الأولى.

فالعطف إشراك بين شيئين، وهذا الإشراك يقتضي معنى يقع فيه؛ وهذا المعنى يتضح بجلاء في الجمل التي لها محل من الإعراب، وهو (النعت أو الحالية أو المفعولية... إلخ)، لذا أشار عبد القاهر في نهاية حديثه عنها إلى أن «نظائر ذلك تكثر، والأمر فيها يسهل»^(٢).

٢. الجملة الثانية معطوفة على جملة ليس لها موضع من الإعراب^(٣):

(١) الجمل التي لها محل من الإعراب سبع: (جملة الخبر - جملة الحال - جمل المفعول - جملة المضاف إليه - الجملة الواقعة جواباً لشرط جازم وهي مقرونة بالفاء أو إذا - التابعة لمفرد - التابعة لجملة لها محل من الإعراب) وأضاف ابن هشام: (الجملة المستثناة - الجملة المسند إليها). انظر: مغني اللبيب: ج ٢ ص ٤٧٢ - ٤٩٢.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٣.

(٣) الجمل التي ليس لها محل من الإعراب سبع: (الابتدائية - الاعتراضية - التفسيرية - الواقعة في جواب القسم - الواقعة جواباً لشرط غير جازم مطلقاً أو جازم ولم تقترن بالفاء أو إذا - جملة الصلة - التابعة لما لا محل له من الإعراب). انظر: المغني: ج ٢ ص ٤٤١ - ٤٧٢.

وهنا يعرض الإشكال في العطف بالواو دون غيرها من أحرف العطف؛ ذلك لأن (ثم والفاء وأو) تفيد بجانب الإشراك بين المعطوفين معنى يتم فيه ذلك الإشراك، أما (الواو) فلا تفيد سوى الإشراك، «ولا يتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه»^(١)؛ لذا ثبت إشكال المسألة، مما يبرر لنا الفصل بين الموضوعين:

(أ) العاطف (الفاء - ثم - أو):

مثل عبد القاهر للوصل بالفاء بقوله: «أعطاني فشكرته»، فالفاء ربطت بين الجملتين مشرقة بينهما في المعنى الذي هو - هنا - إتيان الشكر تالٍ للعتاء، وتَسْبِيْه عنه.

وفي قولنا: «خرجت ثم خرج زيد» ربطت (ثم) بين الجملتين مشرقة بينهما في المعنى وهو (أن خروج زيد قد جاء تالياً لخروج المتكلم، مع وجود مهلة بين الخروجين).

أما في قولنا: (يعطيك أو يكسوك) فـ (أو) قد ربطت بين الجملتين وأشركت بينهما في معنى هو أن الفاعل يفعل واحداً من الفعلين لا بعينه. وهكذا ترابطت هذه الجمل بتلك الروابط النحوية (الفاء - ثم - أو) بما تحمله من دلالات تم الإشراك فيها؛ فالجمل - هنا - مترابطة ترابطاً نحوياً دلالياً.

(ب) العاطف (الواو):

تدخل الواو العاطفة للربط بين جملتين بشرطين:

أولهما: أن تكون الجملتان متغايرتين؛ إذ العطف يقتضي المغايرة.

(١) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٤.

ثانيهما: وجود معنى يقع فيه ذلك الإشراف الذي تفيده الواو؛ وذلك بأن يكون المحدث عنه (المسند إليه) في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الأول^(١).

وقد تحقق هذان الشرطان في المثالين التاليين:

- (زيد كاتب وعمرو شاعر) إذا كان زيد بسبب من عمرو.
- العلم حسنٌ والجهل قبيح.

فإذا ما كان المخبر عنه (المسند إليه) في الجملتين واحدا كقولنا: هو يقول و يفعل، ويضر وينفع، ويسىء ويحسن، ويأمر وينهى ... وأشباه ذلك - ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورا، وذلك لأننا بذلك نوجب للمسند إليه كل فعلين متضادين، وكأنه يفعلهما معا^(٢).

وإذا ما وقع الفعلان في حيز الصلة ازداد (الاشتباك والاقتران) أيضا، وذلك كما في قولنا: «العجب من أني أحسنتُ وأسأتُ، وكيفيك ما قلتُ وسمعتُ»^(٣).

وهكذا تحقق الترابط بين هذه الجمل نحويا ودلاليا؛ نحويا بالعطف بالواو، ودلاليا بما بين كل جملتين من معنى جامع بينهما يقع فيه الاشتراك الذي تفيده الواو العاطفة، وذلك المعنى هو كون المسند إليه في الجملة الثانية (يناظر أو يشابه أو يناقض) المسند إليه في الجملة الأولى، أو هو نفسه في كلتا الجملتين، وكذلك الحال في المسند.

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ص ٢٢٤.

(٢) انظر: السابق: ص ٢٢٦.

(٣) انظر: السابق: الصفحة نفسها.

فإذا ما اختل شرط من شرطي العطف بالواو على الجمل التي لا لها محل من الإعراب - تُركَّ العطف، وهو ما يعرف بـ (الفصل).

ثانيا: الفصل:

١. الفصل لاختلال شرط المغايرة:

في هذه الحالة يترك العطف (الرابط النحوي)، وترابط الجملتان دلاليا إذ يستغني الكلام «بصلة معناه عن واصل يصله ورابط يربطه»^(١)، وذلك بأحد المعاني الآتية:
أولا: التوكيد:

وذلك كما في قوله تعالى: «الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ»^(٢)، فقوله تعالى: «لَا رَيْبَ فِيهِ» بيان وتوكيد وتحقيق لقوله عز وجل: «ذَلِكَ الْكِتَابُ» وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية لتثبته^(٣).

لقد أتت الجملة الثانية لتؤكد مضمون الجملة الأولى، ومن ثم تصبح شبيهة بها أو تكاد تكون هي، ولا يعطف الشيء على نفسه؛ إذ العطف يقتضي المغايرة؛ ولما لم يصح العطف سقط الرابط النحوي، وناب عنه الرابط الدلالي الذي هو - في هذا الموضع - التوكيد.

ثانيا: التقابل الدلالي:

وذلك بأن تكون الجملة الأولى استفهاما والثانية إخبارا، أو أن تكون الأولى خبرا والثانية حكاية، ففي قوله عز وجل: «قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»^(٤)، لم يعطف عز وجل بين جملة: (اللَّهُ

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ص ٢٢٧.

(٢) ١، ٢ / البقرة.

(٣) انظر: دلائل الإعجاز: ص ٢٢٧.

(٤) ١٥، ١٤ / البقرة.

يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ) وما قبلها؛ ذلك لأن قوله: (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) حكاية عنهم أنهم قالوا ذلك وليس بخبر من الله تعالى، وقوله عز وجل: (اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ) خبر من الله تعالى أنه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم؛ ذلك لأنه لو عطف لكان المعنى أنهم قد شهدوا على أنفسهم بأنهم مؤخذون، وذلك لم يحدث^(١).

وهنا أمر آخر، وهو أن الاستئناف كان أيضا لأن الحكاية عنهم بأنهم قالوا كذا وكذا تحرك السامعين لأن يسألوا: وما مصيرهم إذ قالوا ذلك؟ فيأتي الجواب: (اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ...؟) فهناك سؤال مقدر مجاب عنه بالجملة الثانية.

هذا التقابل الدلالي بين الجمل يستغني به الكلام عن الرابط النحوي الذي لا يصح وقوعه هنا؛ إذ لا يعطف الجواب على السؤال، ولا الحكاية على الخبر.

٢. الفصل لعدم وجود جامع بين الجملتين:

وذلك بأن تكون الجملة الثانية بالنسبة إلى الأولى لا هي إياها، ولا هي مشاركة لها في المعنى، ولا يجمعها معها سبب، وهنا يترك العطف ألبتة، ولا تترايط الجملتان لا نحويا ولا دلاليا. وفي هذه الحالة تكون الجملة الثانية مستأنفة يبتدأ بها كلام جديد، ومثال ذلك قولنا: زيد كاتب. عمرو طويل.

ويشير عبد القاهر إلى أننا لو قمنا بربط مثل هذه الجمل نحويا لقلنا كلاما غير مستقيم، «فلو قلت: (خرجت اليوم من داري)، ثم قلت: (وأحسن الذي يقول بيت كذا)، قلت ما يضحك منه»^(٢).

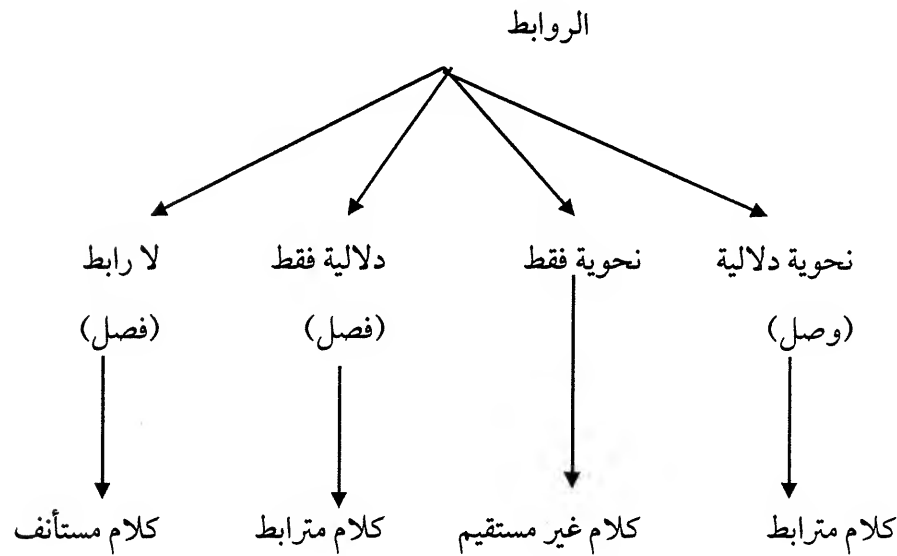
ويؤكد السكاكي هذا الكلام فيضرب مثلا طويلا لهذا الكلام الذي ترايط نحويا دون وجود رابط دلالي (جهة دلالية جامعة)، فيقول: «متى قال قائل: (زيد منطلق، ودرجات الحمل ثلاثون، وكم الخليفة في غاية الطول، وما أحوجني إلى الاستفراغ، وأهل الروم نصارى، وفي عين الذباب جحوظ، وكان جالينوس ماهرا في

(١) انظر: دلائل الإعجاز: ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٢٥.

الطب، وختم القرآن في التراويح سنة، وإن القرد لشبيه بالآدمي)، فعطف، أخرج من زمرة العقلاء، وسجل عليه بكمال السخافة، أو عُدَّ مسخرة من المساخر، واستطرف نسقه هذا إلى غاية، ربما استودع دفاتر المضاحك»^(١).

نتهي من (الفصل والوصل بين الجمل) إلى أنها (أي الجمل) قد تترايط إما نحويا وداليا، أو دلاليا فحسب، أو لا تترايط لا نحويا ولا دلاليا فيختلف الكلام ويصبح الثاني مستأنفا، ويمكن تمثيل ذلك كما يلي:



(١) مفتاح العلوم: ص ٢٧١.

وهذا يؤكد أن النص يمكن أن يأتي مسبوكا نحويا محبوكا دلاليا، أو أن يأتي محبوكا دون تحقق لعناصر السبك النحوي . فقد يكون حَبْكُ Coherence ولا سَبْكُ Cohesion، لكنه لا يكون سبْكُ دون حَبْك. ولو جاء النص مسبوكا دون حَبْك لكان كلاما غير مستقيم.

٣. ترابط أجزاء البيت:

يشرح الجاحظ البيت الذي أنشده خلف الأحمر:

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَوْلَادُ عَلَّةٍ * * * يَكِيدُ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ^(١)

بقوله: «إنه يقول: إذا كان الشعر مستكرها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة»^(٢).

ثم يعلق على قول أبي البيداء الرياحي:

وَشِعْرٌ كَبْعَرِ الْكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ * * * لِسَانُ دَعِيٍّ فِي الْقَرِيضِ دَخِيلِ^(٣)

بقوله: «وأما قوله: (كبعر الكبش) فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤلف ولا متجاوز، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة مُلْسًا ولينة

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين

العاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية سلسلة النظام خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد»^(١).
لقد توقف الجاحظ عند أمرين:

أولهما: الكلمة: لابد أن تكون سهلة المخارج، غير مستكرهة تشق على اللسان وتكده، حتى كأنها حرف واحد، وفي هذا مراعاة لتناسب حروف الكلمة صوتيا.

ثانيهما: البيت: لابد أن يكون متلاحم الأجزاء حتى كأنه كلمة واحدة.

ولم يتعد الجاحظ البيت إلى (الجزء / القطعة) الذي يتكون من مجموعة من الأبيات، فضلا عن النص كاملا.

لقد توقف الجاحظ عند هذا الحد، فهل معنى ذلك أننا لو أتينا بمجموعة أبيات تحقق لكل بيت منها ذلك الترابط الذي أشار إليه دون أن يجمعها جامع، ولا أن يربط بينها رابط إلا الوزن والقافية - هل معنى ذلك أنها تكون نصا؟! لاشك أن الجاحظ يتهم من يفعل ذلك بالخبال ونقصان العقل.

فليس معنى توقف الجاحظ عند هذا الحد أنه لا يقول بضرورة تماسك أجزاء النص؛ إلا أننا لا نجزم بذلك ونتوقف عند ما ذكره؛ غير أن البيت الواحد قد يكون جملة واحدة، أو أكثر من جملة، أو بعض جملة لا يتحقق لها معناها إلا بما يسبقها أو يتلوها من أبيات.

فلو أننا انتزعنا بيت الحارث بن حلزة التالي من سياق معلقته:

(١) السابق: ج ١ ص ٦٦، ٦٧.

* * * لم أسبأ: لم أشتر، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.

(١) البيان والتبيين: ج ١ ص ٦٦.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

* * * لم أسبأ: لم أشتر، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.

(٣) البيان والتبيين: ج ١ ص ٦٦.

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ ** رَبِّ نَاوِ يُمَلِّ مِنْهُ الثَّوَاءُ^(١)

لوجدنا أنه قد انتهى بانتهاه جملة مفيدة ولم يُبين على شيء سابق؛ فتحققت له سمة الترابط بين أجزائه التي اشتراطها الجاحظ.

ولكن ماذا عن هذين البيتين؟

فَالْمَحْيَاةُ فَالضَّفَاحُ فَأَعَنَّا (م) قُ فِتَاقٍ فَعَاذِبُ فَاَلْوَفَاءُ

فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَةُ الشَّرِّ (م) بُبٍ فَالشُّعْبَتَانِ فَالْأَبْلَاءُ

لاشك أنهما بعيدا عن سياقهما النصي لم يفيدا معنى واضحا؛ لأنهما يرتبطان بالأبيات السابقة ارتباطا نحويا وداليا وثيقا.

بل إننا لو انتزعنا بيتا آخر يبدأ بجملة جديدة وينتهي بنهاية جملة، وليكن قوله:

لَا أَرَى مَنْ عَهْدْتُ فِيهَا فَأَبْكِي أَلْ ** يَوْمَ دَهْلًا وَمَا يُحِيرُ الْبُكَاءُ^(٢)

لوجدنا أنه ورغم عدم كونه جزءا من جملة سابقة، ورغم ترابط أجزائه ارتباطا قويا، إلا أنه لا يتحقق له معناه النهائي؛ لوجود ضمير المفردة المؤنثة في قوله: (فيها) وهو يحيلنا إلى شيء في بيت سابق هو قوله (ديارها) قبل ثلاثة أبيات من هذا البيت، ثم يحيلنا الضمير في كلمة (ديارها) إلى (أسماء) في البيت السابق... وعن طريق تلك الإحالة يتحقق الترابط بين هذه المجموعة من الأبيات التي تكون جزءا من أجزاء النص.

لقد توقف الجاحظ عند حدود البيت، إلا أن عبد القاهر جاء بعده، فأدرك

ضرورة ترابط أجزاء القطعة / الجزء من النص.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

(*) الإيذان: الإعلام، البين: الفراق، الثواء: الإقامة.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

(*) الدله: ذهاب العقل، يحير: يرد.

٤. التماسك على مستوى (الجزء / القطعة):

يقول عبد القاهر الجرجاني في سياق حديثه عن (التشبيه المقلوب):

«ومن لطيفه قول علي بن محمد بن جعفر:

دِمْنٌ كَأَنَّ رِيَاضَهَا ** يُكْسِنُ أَعْلَامَ الْمَطَارِفِ

وَكَاثِمًا غُذْرَانَهَا ** فِيهَا عُشُورٌ مِنْ مَصَاحِفِ

وَكَاثِمًا أَنْوَارَهَا ** تَهْتَرُ فِي نَكَبَاءِ عَاصِفِ

طُرُرُ الْوَصَائِفِ يَلْتَقِي ** نَ بِهَا إِلَى طُرُرِ الْوَصَائِفِ

وَكَاثِمًا لَمْعَ بُرُوقِهَا ** فِي الْجَوِّ أَسْيَافُ الْمُثَاقِفِ^(١)

المقصود البيت الأخير، ولكن البيت إذا قُطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب؛ فيظهر فيها ذل الاعترا، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين، وأملأ بالزین، منها إذا أفردت عن النظائر، وبدت فذة للناظر»^(٢).

لقد شبه الشاعر لمع البروق بالأسياف، وهذا من (التشبيه المقلوب)، ولكن الذي يعيننا - هنا - أن عبد القاهر أدرك أنه لو أورد البيت الأخير وحده لما فهم المتلقي المقصود بمرجع الضمير في (بروقها)؛ لذا أورد القطعة كاملة كي يعلم أن الضمير يعود على (دِمْن) في البيت الأول.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خرا، الإجفال: الانهزام والإفلاق عن الموضع بسرعة.

(١) الدمن: جمع (دمنة) وهي هنا: الموضع القريب من الدار، والمطارف: جمع (مطرف) وهو: رداء

من الخنز فيه أعلام. والمثاقف: الملاعب بالسلاح (اسم فاعل).

(٢) أسرار البلاغة: ص ١٧٩.

وعن طريق الإحالة تماسكت أجزاء القطعة تماسكا نحويا دلاليا قويا، وعن طريق ذلك التشبيه - الذي جمع أطراف القطعة - تماسكت تماسكا دلاليا.

ويتضح الأمر أكثر بمثال آخر: يقول عبد القاهر: «ومن حد ما يقع في هذا الباب قول التنوخي في قطعة وهي قوله:

أَمَّا تَرَى الْبَرْدَ قَدْ وَاثَتْ عَسَاكِرُهُ * * * وَعَسْكَرُ الْحَرِّ كَيْفَ أَنْصَاعٍ مُنْطَلِقًا
فَالْأَرْضُ تَحْتَ ضَرْبِ الثَّلَجِ تَحْسِبُهَا * * * قَدْ أُلْبَسَتْ حَبَكًا أَوْ عُشِيَتْ وَرِقًا
فَانْهَضْ بِنَارٍ إِلَى فَحْمٍ كَأَنَّهُمَا * * * فِي الْعَيْنِ ظُلْمٌ وَإِنْصَافٌ قَدْ اتَّفَقَا
جَاءَتْ وَتَحْنُ كَقَلْبِ الصَّبِّ حِينَ سَلَا * * * بَرْدًا قَصْرًا كَقَلْبِ الصَّبِّ إِذْ عَشِقَا
المقصود (فانْهَضْ بنار إلى فحم)، فإنه لما كان يقال في الحق أنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة، وفي الظلم خلاف ذلك - تخيلهما شيئين لهما ابيضاض واسوداد وإنارة وإظلام، فشبه النار والفحم بهما^(١).

كان يمكن إذن أن يذكر عبد القاهر البيت الثالث (موطن الشاهد) دون بقية الأبيات، ولكن إدراكا منه - كما أدرك أبيات محمد بن جعفر - مدى تماسك أجزاء القطعة، وأنه لا يمكن فهم أي بيت فهما صحيحا إلا بالرجوع إلى بقية أبيات القطعة، إدراكا منه لهذا كله أورد القطعة كاملة.

* * * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
* * * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
* * * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
* * * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.
(١) أسرار البلاغة: ص ٢٠٠ - ٢٠١.

فالبيت الثالث نتيجة طبيعية للبيتين الأول والثاني، ولو أن الشاعر ابتداء بقوله: (فانْهَضْ ... البيت) لفهم المخاطب؛ اعتمادا منه على سياق الحال. ولكن ماذا عن المتلقي الذي لم يكن حاضرا مع الشاعر؟! لقد أدرك الشاعر أنه لن يعتمد هذا المتلقي البعيد مكانا وزمانا إلا على السياق اللغوي؛ لذا ابتداء بوصف قدوم البرد وانتهاء فصل الحر، ثم صور مدى قسوة هذا البرد الذي غطى الأرض بالثلج، وكأنها قد ألبست بالدروع أو غطيت بالفضة؛ ومن ثم يأتي الطلب مسبقا بفاء السرعة (فانْهَضْ).

كما أن البيت الأخير لن يفهم إلا في ضوء القطعة أيضا، وهذا ما أدركه عبد القاهر فأورده على الرغم من أن الصورة قد اكتملت بالوقوف عند البيت الثالث (موطن الشاهد)، ولكنه لم يعزل البيت الرابع إدراكا منه - أيضا - مدى تماسكه مع بقية أجزاء القطعة؛ ذلك لأن الضمير المستتر في (جاءت) يعود على (عساكر البرد) في البيت الأول.

بذلك يكون عبد القاهر قد أدرك مدى التماسك النحوي عن طريق الربط بالفاء الدالة على السرعة في قوله: (فانْهَضْ) بالبيت الثالث، وعن طريق الإحالة بالضمائر كما في (جاءت) بالبيت الرابع، هذا بجانب التماسك الدلالي عن طريق ترتب البيت الثالث على البيتين الأول والثاني ترتب النتائج على المقدمات؛ إذ العلاقة بين هذا البيت وما قبله علاقة سببية.

لقد أدرك عبد القاهر ضرورة تماسك أجزاء القطعة، إلا أنه وقف عند هذا الحد ولم يتعداها إلى النص كاملا؛ فيجب ألا تفهم إشارات عبد القاهر - كما فهمها

بعض الباحثين - على أنها إشارة إلى ترابط النص الشعري كله^(١)، ولو أن عبد القاهر أراد ذلك لمثل القصيدة كلها، لكنه اكتفى بقطعة، ولم يتعد ذلك إلى مجموعة من الأجزاء المتوالية (النص).

وليس معنى ما سبق أن عبد القاهر كان مدركا للتماسك على مستوى القطعة كما يفهمه علماء النص في عصرنا الحاضر، فأكثر ما جاء عند عبد القاهر كان حديثا عن (الفصل والوصل)، أو عن (التمثيل) وأثره في النفس.

٥. التماسك النصي:

(أ) الإرهاصات الأولى:

تعد أول إشارة إلى تلاحم أجزاء النص إشارة الأصمعي التي أوردها الجاحظ في تعليقه على بيتي خلف الأحمر وأبي البداء الرياحي آنفي الذكر؛ إذ يقول الجاحظ: «قال (يعني الأصمعي): وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان»^(٢).

(١) قال بذلك الدكتور مصطفى عراقي في بحثه: الوحدة السياقية للقصيدة العربية: رؤية نحوية في تماسك النص الشعري: ص ٢٣١، ٢٣٢ (صحيفة دار العلوم العدد ١٢ السنة السادسة).

(٢) البيان والتبيين: ج ١ ص ٦٦. (نسب الدكتور محمد خطابي هذا الكلام إلى الجاحظ، ولم يلتفت إلى قول الجاحظ في بداية كلامه: (قال) يعني "الأصمعي"؛ إذ إننا لو عدنا إلى الصفحات السابقة سنجد الجاحظ ينص على ذلك بقوله: "قال الأصمعي"، والناظر في "البيان والتبيين" يجد الجاحظ كثير الرواية عن الأصمعي، وأنه يأخذ بالكثير من آرائه). انظر: ما قاله الدكتور خطابي في: لسانيات النص: ص ١٤٢ - ١٤٤.

لقد فسر الجاحظ قول الأصمعي بأنه (تلاحم أجزاء البيت) مع أن الأصمعي لم ينص على ذلك، كما أن كلامه يشير من طرف خفي إلى أنه يريد أجزاء النص لا أجزاء البيت؛ إذ يقول: (أجود الشعر)، كما أن الأصمعي رجل راوية للشعر، فلا شك أنه وقف على شعر العرب وعلم جيده من رديئه، والراوي عندما يحكم إنما يحكم على نصوص مكتملة لأنه يروي النصوص لا الأبيات المفردة، إلا في القليل النادر، فهو عندما يقول: (أجود الشعر) إنما يريد (أجود النصوص).

وإذا كنا قد تأولنا كلام الأصمعي فهناك إشارة أوضح منها وأعمق، هي إشارة ابن طباطبا العلوي، والتي تنم عن ناقد خبير بالشعر وطبيعة بنائه.

يقول ابن طباطبا: «وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاوزها أو قبحة، فيلائم بينها لتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها»^(١).

ويفضّل ابن طباطبا ذلك الإجمال في موضع آخر فيقول: «وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قُدّم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً ... حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا ... في الجودة والحسن

(١) عيار الشعر: ص ١٢٩.

واستواء النظم لا تناقض في معانيها، ولا وَهْيَ في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها^(١).

لقد احتوت هذه الإشارة على أن النص يتماسك على المستويين النحوي

والدلالي:

- فعلى المستوى النحوي: لا بد أن تكون القصيدة صائبة التأليف، مستوية النظم، تقتضي كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها. والتأليف، أو النظم، أو السبك، أو الاتساق، كلها تقابل مصطلح (Cohesion) في الإنجليزية، وهو ما اصطلحت عليه بـ (التماسك النحوي).

- وعلى المستوى الدلالي: لا بد أن يكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً، فلا تتناقض القصيدة في معانيها. وهو ما يعرف عند علماء النص الغربيين بـ (البنية الكلية للنص).

وبواسطة التماسك النحوي والتماسك الدلالي تخرج القصيدة كأنها كلمة واحدة في اشتباه أولها وآخرها، فإذا تقدم بيت على بيت أدى ذلك إلى حدوث خلل بالقصيدة.

ويلاحظ ابن طباطبا تحقق الوحدة التي دعا إليها في القصيدة القصصية؛ فيقول: «وعلى الشاعر إذا اضطر إلى اقتصاص خبر في شعر دبره تدبيرا يسلس له معه القول، ويطرده فيه المعنى ... كقول الأعشى فيما اقتصه من خبر السموأل:

كُنْ كَالسَّمَوَالِ إِذْ طَافَ الْهَمَامُ بِهِ ** فِي جَحْفَلٍ كَرَّهَاءِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ^(٢)

(١) السابق: ١٣١.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.

(٢) عيار الشعر: ص ٤٧ - ٤٨. ورَّهَاءُ الليل: سواده.

ثم يقول: «فانظر إلى استواء هذا الكلام ... وتأمل لطف الأعشى فيما حكاها، واختصره في قوله:

أَقْتُلْ ابْنَكَ صَبْرًا أَوْ نَجِيءَ بِهَا **

فأضمر ضمير الهاء في قوله:

وَاخْتَارَ أَدْرَاعَهُ أَلَا يُسَبِّ بِهَا **

فتلافى ذلك الخلل بهذا الشرح، فاستغنى سامع هذه الأبيات عن استماع القصة فيها؛ لاشتغالها على الخبر كله، بأوجز كلام، وأبلغ حكاية، وأحسن تأليف، وألطف إيحاءة^(١).

لقد أشار ابن طباطبا - خلال كلامه - إلى وسيلة نحوية مهمة من

(وسائل التماسك النحوي) على مستوى النص كله هي (الإحالة بالضمائر).

ولسنا نزعم أن ابن طباطبا كان مدركاً لوسائل التماسك النصي كما يدركها (علماء النص) الآن، ولكنه بحسه النقدي استطاع أن يصل إلى ضرورة تماسك النص على مستوى التراكيب، وألا تكون المعاني متناقضة متنافرة على مستوى الدلالة.

(ب) الدراسة المنهجية:

يعد حازم القرطاجني - من بين القدماء - نسيج وحده في تناوله للتماسك النصي؛ إذ تناول علاقة أبيات (القطعة / الفصل) مبينا مدى ترابطها، والعلاقة

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.

** لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضع بسرعة.

(١) السابق: ص ٤٩.

بين (أجزاء النص / الفصول) مبينا طريقة وصل الفصول بعضها ببعض، ولم يقف عند حدود التنظير، بل طَبَّق ذلك على قصيدة للمتنبى.

يقول حازم القرطاجني - فيما يشبه أن يكون تمهيدا للحديث عن التماسك النصي - «إن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف، والقصائد المؤلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من الألفاظ. فكما أن الحروف إذا حسنت حسنت الفصول المؤلفة منها، إذا رتبت على ما يجب ووضع بعضها من بعض على ما ينبغي، كما أن ذلك في الكلم المفردة كذلك. وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان، كما يحسن اتلاف الكلام من الألفاظ الحسان، إذا كان تأليفها منها على ما يجب»^(١).

في هذا النص يقارن حازم القرطاجني بين ترابط الجملة بأجزائها، وبين ترابط النص بأجزائه، فالمتوالية التي تتكون منها الجملة هي:

(حروف / كلمات / جملة)

والمتوالية التي يتكون منها النص هي:

(الأبيات "جملة أو مجموعة من الجمل" / الفصول "الأجزاء" / النص)

فالأبيات نظائر الحروف، والفصول نظائر الكلمات، والنص نظير الجملة.

وإنما ساق القرطاجني ذلك التمثيل، لأنه يريد أن يدل على مدى تماسك أجزاء النص، فلم يجد أدل على ذلك من أن يقارن النص بالجملة؛ لأن ترابط مكونات

(١) منهاج البلاغ: حازم القرطاجني: ص ٢٨٧.

الجملة من المسلمات، وهو يريد أن يجعل من ترابط أجزاء النص مسلمة من المسلمات كذلك.

فالقرطاجني يرى أن النص مكون من مجموعة من الفصول (الأجزاء)، ثم بيّن مدى ترابطها، ومدى ترابط أجزاء الفصل الواحد (الجزء)، وسوضح ذلك فيما يلي:

أولاً: التماسك على مستوى الفصل (الجزء):

يعرض القرطاجني مجموعة من القوانين التي لابد أن تجتمع في (الفصل)؛ كي يأتي متماسكا، مترابط الأطراف، جيد النظم.

يقول القرطاجني: «فأما القانون الأول في استجادة مواد الفصول وانتقاء جواهرها، فيجب أن تكون متناسبة المسموعات والمفهومات، حسنة الاطراد، غير متخاذلة النسيج، غير متميز بعضها عن بعض التمييز الذي يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية يتنزل بها منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر. والقصائد التي نسجها على هذا مما تستطاب، وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل مناسبا للغرض، فيعتمد فيه الجزالة في الفخر مثلاً، والعدوبة في النسيب»^(١).

ويعلق الدكتور محمد حماسة على هذه الفقرة مبينا المراد من (البنية اللفظية) و(البنية المعنوية) بقوله: «فالترابط الذي يتم به سبك الأبيات في القصيدة ضربان: أحدهما بنية لفظية ويقصد به التماسك النحوي، والآخر: بنية معنوية ويقصد به التماسك الدلالي»^(٢).

(١) منهاج البلاغ: ص ٢٨٨.

(٢) الجملة في الشعر العربي: ص ١٩١.

ثم بين الدكتور حماسة أن القرطاجني يفضل التماسك الدلالي القائم على تماسك نحوي، مشيراً إلى قول حازم: «ويشترط في المذهب المختار أن يكون لمعنى البيت - مع كون أوله مبدأ كلام ومُصَدَّرًا بكلمة لها معنى ابتدائي - علاقة بما قبله، ونسبة إليه»^(١).

أما القانون الثاني: فيقول فيه القرطاجني: «ويجب أن يرد في البيت الأول من الفصل بما يكون لا ثقاً به من باقي معاني الفصل، مثل أن يكون مقابلاً له على جهة من جهات التقابل، أو بعضه مقابلاً لبعض، أو أن يكون مقتضياً له؛ مثل أن يكون مسبباً عنه، أو تفسيراً له، أو محاكياً بعض ما فيه بعض ما في الآخر، أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر. وكذلك الحكم فيما يتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل»^(٢).

ونلاحظ أن القرطاجني قد انصب حديثه - هنا - على (معاني الفصل)؛ فاقصر على ذكر (وسائل التماسك الدلالي) مثل: التقابل الدلالي، وعلاقة السببية، وعلاقة التفسير.

ونجده يخص القانون الثالث - كذلك - بالحديث عن الترابط بين (معاني الفصل)؛ وذلك لأن «الناقد - كما يقول الدكتور محمد خطابي - يميل إلى المتعة الشعرية الناتجة عن لذة القراءة الكاشفة المكتشفة، ولا يمكن لقارئ الكتاب (المنهاج) إلا أن يسلم بهذا، خاصة وأنه يلح على التذاذ النفس باكتشاف العلة غير المتوقعة بين الأشياء أو بين المعاني»^(٣).

(١) منهاج البلغاء: ص ٢٨٩، وانظر: الجملة في الشعر العربي: ص ١٩١.

(٢) السابق: ص ٢٩٠.

(٣) لسانيات النص: ص ١٥٧.

يرى القرطاجني في هذا القانون أنه يجب أن يبدأ الشاعر من أبيات الفصل «بالمعنى المناسب لما قبله، وإن تأتى مع هذا أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل، والذي له نصاب الشرف، كان أبهى لورود الفصل على النفس، على أن كثيراً من الشعراء يؤخرون المعنى الأشرف ليكون خاتمة الفصل»^(١).

إنه يشترط أن يحتوي كل فصل (معنى رئيسياً) يجمع أبيات الفصل حوله، فتتماسك أجزاؤه دلالياً، أو يحتوي «على الأقل مركزاً معنوياً تشكل بقية المعاني المرتبطة به محيطه»^(٢).

ثم يورد القرطاجني وسيلتين لهما دور كبير في التماسك الدلالي على مستوى الفصل (الجزء) وأحياناً على مستوى النص كاملاً، هما (التسويم) و(التحجيل). و«التسويم» يعني العناية باستفتاحات كل فصل (جزء)، فتصبح الجملة الأولى من كل جزء باباً يفتحه القارئ، ليلج منه إلى عالم ذلك الجزء.

والقرطاجني يرى أن الخذاق من الشعراء قد «اعتنوا باستفتاحات الفصول، وجهدوا في أن يهيئوها بهيئات تحسن بها مواقعها من النفوس وتوقظ نشاطها لتلقي ما يتبعها ويتصل بها، وصَدَّروها بالأقاويل الدالة على الهيئات التي من شأن النفوس أن تنتهيها عند الانفعالات والتأثيرات لأمر سارة أو فاجعة أو شاجية أو معجبة، بحسب ما يليق بغرض الكلام من ذلك، وقصدوا أن تكون تلك الأقاويل مبادئ كلام من جهة ما نحى بها من أنحاء الوضع، أو محكوماً لها بحكم المبادئ، وإن وصلها بما قبلها واصل؛ لكونها مستقلة بأنفسها من جهة الوضع الذي يخصها»^(٣).

(١) منهاج البلغاء: ص ٢٨٩.

(٢) لسانيات النص: ص ١٥٤.

(٣) منهاج البلغاء: ص ٢٩٦.

ومن الافتتاحيات الشاجية بالمعلقات افتتاحية امرئ القيس:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ * * بِسْفَطِ اللَّوَى يَبْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ

فتعد هذه الافتتاحية تسويبا للجزء الأول من القصيدة، ثم للقصيدة كلها؛ إذ إنها إجمال أعقبه الشاعر بتفريع دلالي شمل القصيدة كلها، كما بينا ذلك في حديثنا عن (التفريع الدلالي) من قبل.

والقرطاجني يرى أن أحسن التسويات ما جاء مشتملا على معاني جزئية، ثم أُردفَ بمعاني كلية عامة تدلل عليه أو نحو ذلك^(١)، وهو يعني بقوله: (أو نحو ذلك) كل العلاقات الدلالية التي تجمع بين مفتتح الجزء وما يليه من أبيات، كالإجمال ثم التفصيل، أو السببية أو التفسير إلخ.

ثم يشير القرطاجني إلى أن المتنبي كان ممن يحسنون الاطراد في تسويم رؤوس الفصول على النحو الذي ذكره؛ كما في قوله:

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ * * وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْهَجْرُ أَعْجَبُ^(٢)
(القصيدة)

أما الوسيلة الثانية من وسائل التماسك الدلالي على مستوى الفصل فهي (التحجيل) الذي يقول عنه القرطاجني: «وإذا ذيلت أواخر الفصول بالأبيات الحِكْمِيَّة والاستدلالية، واتضحت شيات المعاني التي بهذه الصفة على أعقابها - فكان

لها ذلك بمنزلة التحجيل - زادت الفصول بذلك بهاء وحسنا، ووقعت في النفوس أحسن موقع»^(١).

ثم يشير القرطاجني إلى أن زهيراً كان ممن سبق إلى وضع هذه المعاني المدهوب بها مذهب الحكمة والتمثيل في نهايات الفصول ومقاطع القول فيها، وسببك القول فيها أحسن سبك، على نحو ما تمثل به من أبيات الحكمة في آخر معلقته:

أَمِنْ أَمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ * * بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَلَمِّمْ^(٢)

ثانيا: التماسك بين الفصول / الأجزاء (على مستوى النص):

يشير القرطاجني إلى ضرورة أن تأتي فصول النص (أجزاؤه) مرتبة؛ فيقدم ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود من الكلام، ويتلوه الأهم فالأهم «إلى أن تتصور التفاتة ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم. فهناك يترك القانون الأصلي في الترتيب»^(٣).

إن مراعاة (الترتيب المنطقي بين موضوعات الفصول) تعد وسيلة أساسية من وسائل التماسك الدلالي على مستوى النص، إلا أن القرطاجني لا يقف عند هذا الإجمال؛ إذ يفصل الحديث فيرى أن الفصول لابد أن تكون متصلة (متناسكة) على مستوى العبارة (التماسك النحوي)، أو على مستوى الغرض (التماسك الدلالي)، أو على المستويين معا؛ ومن ثم قسم النصوص أربعة أضرب:

١. ضرب متصل العبارة والعرض (متناسك نحويا ودلاليا):

(١) السابق: ص ٣٠٠.

* * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضوع بسرعة.

(٢) انظر: السابق: ص ٣٠١. والدمنة: ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما.

(٣) السابق: ص ٢٨٩.

* * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضوع بسرعة.

(١) انظر: السابق: ص ٢٩٥.

* * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجفال: الانهزام والإقلاع عن الموضوع بسرعة.

(٢) انظر: منهاج البلغاء: ص ٢٩٨.

ويعرفه القرطاجني بقوله: «يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقه من جهة الغرض وارتباط من جهة العبارة، بأن يكون بعض الألفاظ التي في أحد الفصلين يطلب بعض الألفاظ التي في الآخر من جهة الإسناد والربط»^(١).

٢. ضرب متصل الغرض منفصل العبارة (تماسك دلالي):

وهو «الذي يكون أول الفصل فيه رأس كلام، ويكون لذلك الكلام علقه بما قبله من جهة المعنى»^(٢).

ويرى أن هذا الضرب «أفضل الضروب الأربعة، لكون النفوس تنبسط ويتجدد نشاطها بإشعارها بالخروج من شيء إلى شيء، واستئناف كلام جديد لها مع ما يشفع به إليها في قبول الكلام»^(٣).

والحق أن الضرب الأول - من وجهة نظري - هو أفضل الضروب؛ إذ تحقق له التماسك على المستويين النحوي والدلالي، ويبدو أن ولوع القرطاجني بالبحث عن العلاقات الخفية، وتفضيله لأن تخفي القصيدة شيئاً عن أعين المتلقين - كانا (هذا الولوع وذلك التفضيل) وراء تفضيله هذا الضرب دون السابق.

٣. ضرب متصل العبارة دون الغرض (تماسك نحوي):

ويكتفي القرطاجني في حديثه عن هذا الضرب بقوله: «هذا الضرب منحط عن اللذين قبله»^(٤).

والناظر في تناوله قصيدة المتنبي:

(١) السابق: ص ٢٩٠.

(٢) منهاج البلغاء: ص ٢٩١.

(٣) السابق: الصفحة نفسها.

(٤) السابق: الصفحة نفسها.

أَعَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ * * وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْهَجْرُ أَعْجَبُ
يجد أن حديثه عن التماسك فيها يكاد يقتصر على بيان الجوانب الدلالية لما في هذه الجوانب من لذة اكتشاف غير المتوقع بين المعاني، ومن ثم فالضرب الذي تتصل عبارته ولا يتصل دلالياً يعد منحطاً عن الضريين السابقين؛ لما في ذلك من ميل إلى اعتبار الأمور الظاهرة التي تلتقطها العين دون جهد كبير، وإهمال الأمور الخفية التي ينبغي مراعاتها والجمع بين جوانبها.

٤. ضرب منفصل الغرض والعبارة:

وهو ضرب «لا توصل فيه عبارة بعبارة، ولا غرض بغرض مناسب له، بل يهجم على الفصل هجوماً من غير إشعار به مما قبله، ولا مناسبة بين أحدهما والآخر، فإن النظم الذي بهذه الصفة مشتت من كل وجه»^(١).

لقد تدرج القرطاجني من أشد هذه الأنماط تماسكا إلى أشدها تفككا، مما يعني... أن الأصل هو التماسك، بينما التفكك ليس إلا حالة شاذة ينبغي أن يعمل من أجل إرجاعها إلى القاعدة^(٢).

ثم يشير القرطاجني إلى أن هذا الكلام إجمال «مقنع لمن له فكر متصرف، يستدل به بما ذكر على ما لم يذكر»^(٣).

لقد فتح القرطاجني الباب أمام تناول النصوص وبيان ضرورة تماسكها نحويًا ودلاليًا، عسى أن يلجأ آخرون، لكن حاد من جاء بعده عن طريقه حتى كان العصر الحديث، وظهور علم لغة النص الذي سلك ذلك الطريق الذي سلكه

* * * لم أسبأ: لم أشتري، الرق: المملوء خمرًا، الإجمال: الانهزام والإقلاع عن الموضوع بسرعة.

(١) منهاج البلغاء: ص ٢٩١.

(٢) انظر: لسانيات النص: ص ١٨٥.

(٣) منهاج البلغاء: ص ٢٩١.

القرطاجني، بعد أن مهد له السابقون أمثال ابن طباطبا والجرجاني والأصمعي والجاحظ.

* التماسك النصي عند المحدثين:

أولا: إسهامات علماء النص الغربيين:

١. الاتساق النصي ووسائله:

تعد دراسة «هاليداي ورقية حسن» (الاتساق في الإنجليزية Cohesion in English) (*) أهم الدراسات التي تناولت وسائل التماسك النصي؛ لأنها - فضلا عن كونها محاولة مبكرة في علم النص حيث صدرت عام ١٩٧٦ م - قد اقتصرت على بيان تلك الوسائل مُحَصَّصة لكل وسيلة فصلا كاملا، ثم طبقت ما قيل على مجموعة من النصوص المتنوعة في فصل كامل من فصول الكتاب.

وقبل بيان وسائل الاتساق النصي حدد الباحثان في مدخل الكتاب مجموعة من المفاهيم هي: (النص Text، والنصية Texture، والروابط Ties، والاتساق Cohesion)؛ ويهمننا من ذلك حديث الباحثين عن (النص) وطبيعة بنائه، وعن كيفية تحقق الاتساق داخل بنية النص.

(*) استفدت كثيرا - قبل الرجوع إلى النص الإنجليزي - من عرض الدكتور محمد خطابي لهذه الدراسة في كتابه: (لسانيات النص)، وكذلك من تناول براون ويول لدراسة هاليداي ورقية حسن في كتابهما: (تحليل الخطاب) الذي ترجمه إلى العربية د. محمد الزليطي ود. منير التريكي. انظر: لسانيات النص، الفصل الأول: ص ١١-٢٥، و: تحليل الخطاب، الفصل السادس: ص ٢٢٧-٢٦٥.

فالنص - كما يرى الباحثان - وحدة لغوية في الاستخدام، وليس وحدة نحوية كما هو الحال في العبارة أو الجملة^(١)؛ وأفضل ما ينظر إلى النص أن ينظر إليه على أنه «وحدة دلالية - A semantic unit : وحدة ليست في الشكل، بل في المعنى»^(٢)؛ والنص - أيضا - ليس مجموعة من الجمل، فما الجمل إلا وسيلة يتحقق بها النص *It is realized by sentences* ^(٣).

ولكي تكون مجموعة من الجمل نصا لابد أن يتحقق لها ما يسمى بـ

(الترابط النصي / الاتساق Cohesion)؛ فمفهوم الاتساق هو الذي «يفسر وجود العلاقات المعنوية الأساسية التي بموجبها يمكن أن نعتبر أي مقطع منطوق أو مكتوب نصا»^(٤).

وكما نظرا إلى النص على أنه وحدة دلالية - عدا مفهوم الاتساق «مفهوما دلاليا يحيل إلى العلاقات المعنوية داخل النص؛ والتي هي معيار النصية»^(٥)، وليس معنى ذلك أن الاتساق لا يتحقق إلا في المستوى الدلالي؛ فهما ينصان على أن الاتساق يتحقق في جميع مستويات اللغة: الدلالي، والنحوي - المعجمي lexicon - grammatical (الأشكال)، وعلى مستوى الصوت والكتابة Phonological and orthographic (التعبير)؛ ذلك لأن المعاني تتحقق في تعبير مؤلف في نظام نحوي معجمي (نحو ومفردات)، والكلمات إما منطوقة أو مكتوبة^(٦).

(١) See: Cohesion in English, p.1

(٢) Ibid, P.2

(٣) See: Ibid, P.2

(٤) Cohesion in English, p. 4.

(٥) Ibid, P. 4.

(٦) Ibid, P. 5.

فالاتساق يتحقق خلال المستوى الدلالي؛ ذلك لأن «العلاقات المعنوية الضمنية The underlying semantic relation هي التي تملك قوة الترابط في الواقع»^(١)؛ لكن (العلاقات الدلالية / المعنوية) لا تتحقق إلا بـ (العلاقات النحوية المعجمية) وما تحويه من روابط نصية بين الجمل و«التي تعد (أي العلاقات النحوية المعجمية) المصدر الوحيد لخاصية النصية The only source of texture»^(٢)؛ فالاتساق رابط دلالي، لكنه يتحقق - مثل جميع المكونات في النظام الدلالي - عبر النظام النحوي المعجمي»^(٣).

ولما كان الاتساق النصي لا يتحقق إلا «بالعلاقات النحوية المعجمية» تحدث المؤلفان عن «الاتساق النحوي» Grammatical cohesion، و«الاتساق المعجمي Lexical cohesion» وقسما وسائل الاتساق إلى^(٤):

١. وسائل نحوية: (الإحالة Reference - الاستبدال Substitution - الحذف Ellipsis).
 ٢. وسائل معجمية.
 ٣. وسائل نحوية معجمية: (الوصل Conjunction).
- وسنوجز القول في هذه الوسائل في الصفحات الآتية:

وسائل الاتساق النصي:

أولا: الوسائل النحوية:

(١) الإحالة Reference:

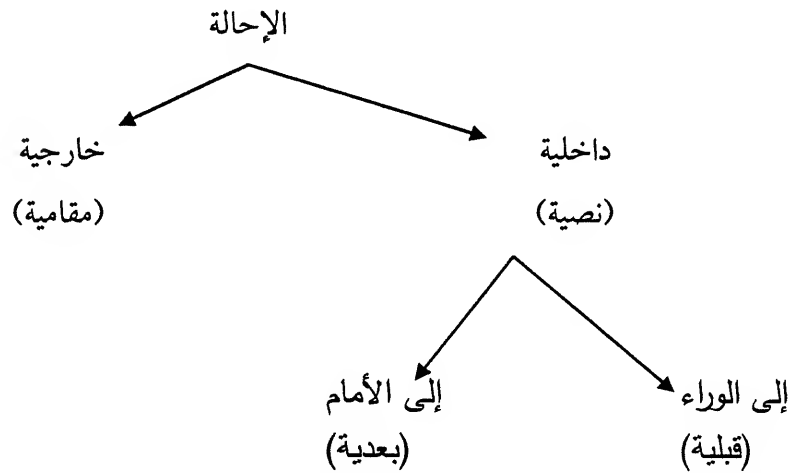
(١) Ibid, P. 229.

(٢) Ibid, P. 9.

(٣) Ibid, P. 6.

(٤) Cohesion in English, p. 6.

الإحالة تعني - عند الباحثين - وجود عنصر يحيل إلى عنصر آخر في النص ويشير إليه؛ ويجب أن تتطابق الخصائص الدلالية لكل من المحيل والمحال إليه^(١).
ويقسم الباحثان الإحالة إلى «إحالة مقامية Situational» تحيل إلى شيء خارج النص Exophora، و«إحالة داخلية Textual» تحيل إلى شيء داخل النص Endophora؛ ويقسمان الإحالة الداخلية إلى إحالة تشير إلى شيء سابق (إلى الوراء) وتسمى «قبلية Anaphora» وإحالة إلى شيء لاحق (إلى الأمام) وتسمى «بعدية Cataphora» ووضحا ذلك بالمخطط التالي^(٢):



وأن لكنها يريان أن «الإحالة المقامية لا تؤدي دورا في ترابط أجزاء النص»^(٣)،
"الإحالة النصية - وحدها - هي التي تعمل على ترابط أجزاء النص، بينما تقوم الإحالة المقامية بالإسهام في خلق النص ... لكنها لا تسهم في اتساقه بشكل مباشر" ^(٤) ويمثل
« براون ويول » لهذه الأنواع بما يأتي^(٥)

(١) See: Ibid, P. 31.

(٢) Ibid, P. 33.

(٣) Cohesion in English, P. 18.

(٤) Ibid, P. 37.

(٥) تحليل الخطاب: ص ٢٢٠.

١. الإحالة الخارجية: انظر إلى ذلك الشيء (ذلك الشيء: —).

٢. الإحالة الداخلية:

أ) إلى الورا: (انظر إلى الشمس. إنها تغرب بسرعة)، فالضمير (ها) يعود إلى الورا على الشمس.

وقد مثل «هاليداي ورقية حسن» لهذا النوع بمثالهما المشهور:

- اغسلي ونقي ست تفاحات للطبخ، وضعيها في إناء يتحمل حرارة النار.

ثم علقا على ذلك المثال بقولهما: «من الواضح أن الضمير (ها) في الجملة الثانية (يحيل إلى الورا) على التفاحات الست في الجملة الأولى. هذه الوظيفة الإحالية إلى ما سبق للضمير (ها) تضيفي ترابطا على الجملتين بحيث نفهمهما على أنها كل لا يتجزأ، يكوننا معانصا»^(١).

ب) إلى الأمام: (إنها تغرب بسرعة. الشمس)، فالضمير (ها) يعود إلى الأمام على الشمس.

وقد ذكر المترجمان (الدكتور لطفي الزليطي والدكتور منير التريكي) من ذلك قول فرعون: «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَابُكُمْ أَجْمَعِينَ...»^(٢)، حيث يحيل التهديد في (لَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) إلى الأمام، إلى محتوى العذاب^(٣).

(١) Cohesion in English, P. 2.

وانظر: تحليل الخطاب ص ٢٢٨.

(٢) ١٢٤ / الأعراف.

(٣) تحليل الخطاب: ص ٢٣٠، حاشية (١).

أما «وسائل الإحالة النصية» فيذكر الباحثان أن الإنجليزية تحتوي على أنواع ثلاثة هي: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة.

يُبين المؤلفان كل نوع في جدول^(١)؛ فاحتوى الجدول الأول على الضمائر التي تشمل: أنا I, me، وأنت / أنتم / أنتن you، ونحن we, us، وهو he، him، وهي she/her وهم / هن they/them وهو / هي لغير العاقل it. ومنها ضمائر الملكية (ياء المتكلم mine وكاف الخطاب أ yours و(نا) الدالة على الجمع ours، وضمير الغائب his والغائبة hers، والضمير المتصل الدال على جمع المذكر أو المؤنث theirs، والضمير الدال على غير العاقل its. واحتوى الجدول الثاني على أسماء الإشارة، وتشمل: هذا / هذه this، وهؤلاء these، وذلك / تلك that، وأولئك those، وهنا here، وهناك there، ولاحقا then، ثم الإشارة بـ (أل the) التي يتحقق معناها حسب ما يتضام معها من كلمات.

واحتوى الجدول الثالث على أدوات المقارنة التي تشمل: نفس same، ومشابه similar، وآخر other، وأفضل better، وأكثر more.

(٢) الاستبدال Substitution :

الاستبدال يعني - لدى الباحثين - «تعويض عنصر بعنصر آخر داخل النص»^(٢).

أما أنواع الاستبدال فتلاثة^(٣):

(أ) استبدال اسمي Nominal Substitution^(٤) :

ويتحقق بأن تحل كلمة (Same - Ones - One) في الجملة الثانية

محل اسم في الجملة الأولى، مثال ذلك:

(١) Cohesion in English, pp. 38 - 39.

(٢) Ibid, P. 88.

(٣) Ibid, P. 90.

(٤) Ibid, Pp. 19 - 112.

- **My axe is too blunt. I must get a sharper one.**

- فأسي مثلومة جدا. يجب أن أقتني أخرى حادة.

فكلمة (one) حلت محل (axe)؛ ومن ثم ربطت بين الجملتين.

(ب) استبدال فعلي^(١) Verbal Substitution:

ويمثله في الإنجليزية الفعل (Do) الذي يحل محل فعل في الجملة السابقة

ويحمل معناه، مثال ذلك:

- **The words didn't come the same as they used to do.**

- الكلمات لم تأت كالمعتاد.

فالفعل (Do) حل محل الفعل (Come) فربط بين الجملتين.

(ج) استبدال قولي^(٢) Clausal Substitution:

وفيه يتم استبدال مجموعة من الكلمات ليحل محلها أحد العنصرين (So, Not)

مثال ذلك:

- If you've seen them so often, of course you know what they're like.
- I believe so, Alice replied thoughtfully.

- لو أنك رأيتهم مرة أخرى، ستعرفين مؤكدا ماذا يحبون.

- أعتقد ذلك (ردت « أليس » بلطف).

فكلمة (So) حلت محل قوله: I'll know what they're like

فعملت على ترابط أجزاء الكلام فضلا عن اختصاره.

(٣) الحذف Ellipsis:

يقرر الباحثان أن الحذف مثل الاستبدال، فهو علاقة داخل النص، وفي معظم

الأحيان يوجد العنصر المفترض في النص السابق، وهذا يعني أن الحذف - عادة -

(١). See: Cohesion in English, Pp. 112 – 129.

(٢). Ibid, Pp. 130 – 141.

(١) An anaphora علاقة قبلية

ويتمثل الاختلاف بين الحذف والاستبدال في أن العنصر المفترض في

الاستبدال « لا يُحذف إلا إذا استُبدل به عنصر آخر، بينما تظل قيمة ذلك العنصر في

الحذف فارغة، أي أنه استبدال بالصفري^(٢) Substitution by zero.

ويقسم الباحثان الحذف - كما فعلا في الاستبدال - إلى:

(أ) حذف اسمي Nominal Ellipsis^(٣):

ومثلاً لذلك بعدة أمثلة منها:

Which hat will you wear?	This is	a. the best.
		b. the best hat.
		c. the best of the hats.
		d. the best of the three.
		e. the best you have. ⁽⁴⁾

أ- الأفضل.	هذه هي	أي قبعة ستلبس؟
ب- أفضل قبعة.		
ج- أفضل القبعات.		
د- أفضل الثلاث.		
هـ- أفضل ما تلبس.		

(١). Ibid, P. 144.

(٢). Cohesion in English, P. 145.

(٣). Ibid, Pp. 147 – 166.

(٤). Ibid, P. 149.

ثانيا: وسائل نحوية معجمية Lexicon grammatical:

- الوصل Conjunction:

يشير الباحثان إلى أن الوصل علاقة دلالية / معنوية ضمنية، وتلك «العلاقات المعنوية الضمنية The underlying semantic relation هي التي تملك قوة الترابط في الواقع»^(١)، وأن هذه العلاقات تتحقق بواسطة مجموعة من الروابط العامة المختلفة.

ويقسم الباحثان روابط الوصل إلى أربع مجموعات^(٢):

(أ) الوصل الإضافي Additive:

وتمثله الأداة (and, or = «أو»، «و») اللتان قد تأتيان في جمل مثبتة أو منفية على النحو الآتي:

(or else, or, nor... and, and else, and)

(ب) الوصل الاستدراكي Adversative:

وهو أن تأتي الجملة الثانية لتثبت عكس ما أثبتته الجملة الأولى، وتمثله أداة رئيسية هي (بالرغم من yet)، ومجموعة من الأدوات الأخرى مثل (فقط only، رغم ذلك though، لكن but، غير أنه nevertheless، وعلى كل حال however، على الرغم من ذلك despite this).

(ج) الوصل السببي Causal:

كأن تكون بين الجملتين علاقة سبب بمسبب؛ فتكون إحداهما سببا والأخرى نتيجة لها، وتمثله الأدوات الآتية:

(لذا so وإذا / ثم then ومن ثم hence وبسبب هذا because of this ولهذا السبب for this reason لهذا therefore).

(د) الوصل الزمني Temporal:

(١) Cohesion in English, p. 229.

(٢) See: Ibid, pp. 241 – 242.

ويشير الباحثان إلى أن الحذف وقع في الجمل (a - d - e) وهي ما تقابل

(أ، د، هـ) دون الجملتين الأخريين؛ إذ حذفت في تلك الجمل كلمة (hat =

قبة) ولم يعوض عنها بشيء؛ أي ظلت القيمة التي تقابلها في الجمل الفرعية فارغة.

(ب) حذف فعلي Verbal Ellipsis^(١):

مثال ذلك:

- What have you been doing? – Swimming.

- ماذا تفعل / تفعلون؟ أسبح / نسبح.

فالرد لم يأت: I've been swimming أو We've been swimming

ففي الرد المذكور حذفت تلك العناصر، ولم يُستبدل بها عنصر آخر؛ أي ظلت قيمتها فارغة، وذلك من الحذف الفعلي؛ لأن المحذوف هو الفعل المساعد (have been).

(ج) حذف قولي Clausal Ellipsis^(٢):

مثال ذلك:

- What were they doing? – Holding hands.

- ماذا يفعلون؟ يقبضون أيديهم.

يشير الباحثان إلى أن في الجملة الثانية حذفاً؛ لأنها لو قيلت هكذا دون الجملة الأولى لبدت ناقصة، ولما تم المعنى، وهذا يؤكد أنها مرتبطة بالجملة الأولى عن طريق حذف القول الذي هو They are (الفعل المساعد + الفاعل) لذكره في الجملة الأولى.

(١) See: Ibid, pp. 167 – 196.

(٢) See: Ibid, Pp: 225 – 169.

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين

يقسم الباحثان الربط المعجمي إلى قسمين:

١- التكرار **Reiteration** ^(١):

والتكرار يعني - لدى الباحثين - شيئاً مما يلي ^(٢):

أ. إعادة «العنصر المعجمي نفسه» **The same item repeated**

ب. وجود «مرادف» للعنصر السابق في الجملة الأولى **Synonym**

ج. وجود «اسم مطلق» **Super ordinate**

د. وجود «اسم عام» يندرج تحته العنصر- المعجمي السابق **General noun**

ويشمل: اسم إنسان **Human noun**، واسم مكان **Place noun**، واسم

حقيقة **Fact noun**، وما أشبه ذلك.

هـ. ضائير الإشارة **Personal reference items**

ومثال ذلك:

I turned to the ascent of the peak	the ascent	Is perfectly easy.
	the climb	
	the task	
	the thing	
	It	

سهل للغاية.	الصعود	بدأت الصعود إلى القمة
	التسلق	
	العمل	
	الشيء	
	(هو)	

See: Cohesion in English, pp. 277 – 284. (١)

Ibid, P. 279. (٢)

وذلك بأن تتابع الجملتان زمنياً، أو أن تحدثا في نفس الوقت؛ ويمثل ذلك

الأدوات الآتية: (التالي **next** و**ثم** **then** وفي نفس الوقت **at the same time** وبعد ذلك **after that** أخيراً **finally** وفي النهاية **at last** وقبل ذلك **before that** النهاية (...).

ويتضح الأمر بذلك المثال الذي ساقه المؤلفان في مطلع حديثهما عن أنواع

روابط الوصل:

- For the whole day he climbed up the steep mountainside, almost without stopping.

a- **and** in all this time he met no one. (additive)

b- **yet** he was hardly aware of being tired. (adversative)

c- **so** by night time the valley was far below him. (causal)

d- **then**, as dusk fell, he sat down to rest. (temporal)

- قضى اليوم كله في تسلق الجبل الشديد الانحدار، دون أن يتوقف تقريباً.

أ) وطوال هذا الوقت لم يلق أحداً. (إضافي)

ب) مع ذلك لم يشعر بالتعب. (استدراكي)

ج) وهكذا كانت الواحة - في المساء - تبدو له هاوية. (سببي)

د) ثم - في الغسق - جلس ليستريح. (زمني)

وهكذا ترابطت هذه الجمل بالجملة الرئيسية عن طريق الوصل الإضافي في

الجملة الأولى ومثله الأداة «و» (= **and**)، ثم بالوصل الاستدراكي عن طريق الأداة

(مع ذلك = **yet**) وذلك في الجملة الثانية، أما الجملة الثالثة فترابطت مع الجملة

الرئيسية عن طريق الوصل السببي ومثله الأداة (وهكذا = **so**)، ثم ترابطت الجملة

الأخيرة بالوصل الزمني ومثله الأداة (ثم = **then**).

ثالثاً: الربط المعجمي **Lexical Cohesion**

فكلمة (الصعود) إعادة للعنصر المعجمي، وكلمة (التسلق) مرادف له، وكلمة (العمل) اسم عام يندرج تحته (الصعود)، وكلمة (الشيء) اسم مطلق يندرج تحته (الصعود)، وكلمة (هو) إشارة إلى (الصعود)؛ وعن طريق هذه الكلمات تحقق الربط المعجمي بين الجملتين.

٢. التضام Collocation^(١):

يشير الباحثان إلى أن التضام لا يتحقق عبر تكرار الوحدات المعجمية المتلازمة فحسب، بل يتحقق كذلك عبر الوحدات المعجمية المتضادة والتي تربط الجملة الثانية بالجملة الأولى ربطا دلاليا^(٢).

ويورد الباحثان المثال الآتي للتوضيح:

- Why does this little boy wriggle all the time? Girls don't wriggle.

- ما لهذا الولد الضئيل يتلوى طوال الوقت؟ البنات لا تتلوى !!

ثم يعلق الباحثان على هذا المثال بقولهما: « (الولد) و (البنات) ليسا مترادفين بالفعل، ولا يمكن بحال أن يكون لهما نفس المحال إليه، وبرغم ذلك فإن ورودهما في خطاب ما يسهم بشكل فعال في النصية^(٣) أي ترابط أجزاء ذلك الخطاب.

عند هذا الحد يتبين لنا أن « هاليداي ورقية حسن » ينظران إلى الاتساق Cohesion على أنه علاقة دلالية تُحقق للنص نصيَّته، بواسطة مجموعة من الروابط النحوية والمعجمية التي لا يكاد يخلو منها نص.

٢. ترابط قضايا التابعات والأبنية الكبرى:

(١) See: Cohesion in English, p. 284 – 292.

(٢) See: Ibid, P. 284.

(٣) Ibid, P. 285.

يبدأ «فان دايك» كتابه «علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات» ببيان دور الوحدات الصرفية والنحو والدلالة؛ فيرى أن الوحدات الصرفية هي أصغر وحدات حاملة للمعنى في النظام اللغوي؛ لذا فهي تقدم الأساس لكل الوظائف النحوية (النحو) والمعاني (الدلالة)^(١).

ثم يحدد دور النظام النحوي في أنه يحدد إمكانات ربط الكلمات في جملة ما، من خلال إمكانات ربط المقولات النحوية التي تتبعها الكلمات أو المركبات؛ فالنحو (باعتباره نظاما قاعديا) يربط الصور الصوتية (عبر أشكال الجملة) بمعاني^(٢).

أما علم الدلالة فيقوم بدورين مهمين هما^(٣):

أولاً: تحديد المعاني العامة والمفهومية للكلمات والمركبات والجملة؛ أي أنه يصف كل تصورات المعنى الممكنة (الأبنية المفهومية) التي يمكن أن تعبر عنها جمل ما. وهذا ما يمكن أن يطلق عليه (علم الدلالة المفهومي).

ثانياً: تحديد العلاقات الإحالية بين المعاني العامة والواقع الخارجي، وهو ما يمكن أن يطلق عليه (علم الدلالة الماصديقي)؛ أي أنه يقوم ببيان ما تحيل إليه هذه المعاني الإدراكية العامة من ماصدقات في الواقع الخارجي.

مما سبق يتبين أن «فان دايك» يرى أن الترابط بين الجمل إنما هو وظيفة علم الدلالة، وقد نص على ذلك في موضع آخر إذ يقول: «وعلى الرغم مما قيل أيضا من

(٤) انظر: علم النص - مدخل متداخل الاختصاصات، فان دايك، ترجمة د. سعيد بحيري: ص ٤١.

(دار القاهرة للكتاب ٢٠٠١ م).

(٢) انظر: السابق: ص ٤١، ٤٣.

(٣) انظر: علم النص - مدخل متداخل الاختصاصات: ص ٤٢، ٤٤.

ورود علاقات مورفولوجية وتركيبية بين جمل التابع، فإنه يتضح أن العلاقات بين الجمل ذات طبيعة دلالية في الغالب، ومن ثم يستند فيها إلى معنى الجمل والإحالة^(١). ومعاني الجمل هي (المفهومات)؛ أي المعاني المفهومة من الجمل، والإحالة هي (المصادقات)؛ أي ما تشير إليه تلك المعاني من مصادقات في العالم الخارجي^(٢). فعلم الدلالة يحدد مفهوم ومصدق الكلام، وعن طريقهما يتم الترابط بين قضايا تتابعات الجمل، ثم بين موضوعات البنى الكبرى (موضوعات النص).
* الترابط بين قضايا تتابعات الجمل:

يفرق «فان دايك» بين (التتابع الجُملي) و(الجمل المركبة)^(٣)؛ فيرى أن بعض التتابعات تكون جملاً مركبة (جمل كبرى) تحتوي في داخلها مجموعة من الجمل الصغرى، وتقوم إحدى الجمل الصغرى بوظيفة الجملة الأساس، وبقية الجمل الصغرى بوظيفة الجمل التابعة المرتبطة بها، ويضرب «فان دايك» لذلك أمثلة، نورد منها:

١. لأن الطقس كان جميلاً، ذهبنا إلى الشاطئ.

فيجوز في مثل هذه الجمل أن تستقل كل جملة بذاتها نحويًا، وسيتبع ذلك خلل في الدلالة، وهو أن كل جملة ستؤدي دلالة مستقلة، ولن يتحقق ذلك الترتب الدلالي الموجود بين الجملتين.

لكن بعض التتابعات الأخرى لا تكون جملاً مركبة، مثال ذلك:

٢. هنا الجو حار جداً! هلا فتحت النافذة.

فكل جملة من الجملتين مستقلة بذاتها نحويًا، وإن كانت مرتبطة بالأخرى دلاليًا؛ ومن ثم لم يكونا جملة مركبة. وعلى العكس من ذلك، هناك جمل مركبة لا يمكن أن يعبر عنها بوصفها تتابع جُملي؛ مثال ذلك:
٣. لو كنت غنيا لاشتريت لنفسك خبزاً.
فلا يمكن أن تستقل إحدى الجملتين عن الأخرى؛ فهناك (تلازم) نحوي دلالي بينهما.

يمكننا إذن أن نبين أنواع الجمل المترابطة كما يلي:

١. جمل مترابطة نحويًا ودلاليًا مع جواز الاستقلال ————— جمل مركبة أو تتابع جُملي (انظر المثال ١).

٢. جمل مترابطة دلاليًا فحسب ————— تتابع جُملي (انظر المثال ٢).

٣. جمل مترابطة نحويًا ودلاليًا مع امتناع الاستقلال

(وجوب التلازم) ————— جمل مركبة (انظر المثال ٣).

ولما كان الترابط بين أجزاء الجمل المركبة واضحاً لا يحتاج إلى كبير عناء لاكتشافه وبيانه، اقتصر «فان دايك» على بيان الترابط بين (المتتابعات الجُملية)؛ ومن ثم حكم على العلاقات بين تلك التتابعات (وكذلك بين الجمل المركبة) بأنها علاقة ذات طبيعة دلالية، وجعل العلاقات النحوية تابعة لها أحياناً^(١).

ولما كان الأمر يتعلق بأوجه ترابط دلالية (علاقات معنوية وعلاقات إحالية)، لم يتحدث عن «العلاقات بين الجمل»، بل تحدث عن «العلاقات بين قضايا تلك

(١) انظر: علم النص: ص ٤٨.

(١) السابق: ص ٤٦.

(٢) انظر: السابق: ص ٤٤.

(٣) انظر: السابق: ص ٤٦ - ٤٧.

الجملة"، وهو يعني بالقضية (معنى جملة مفردة)^(١)، وبمعنى آخر: القضية هي (المعنى النحوي الدلالي للجملة) أو (مفهوم الجملة)؛ ومن ثم فالقضايا ترتبط بالوقائع ولا ترتبط بالحقيقة والكذب؛ فالجملة صادقة إذا وُجدت واقعة تحيل إليها تلك الجملة، وحين لا توجد واقعة تحيل إليها فهي كاذبة^(٢).

وقبل بيان العلاقات الدلالية الرابطة بين القضايا - يصوغ «فان دايك» قاعدة عامة تحكم ذلك الترابط وهي: «ترتبط قضيتان بعضهما ببعض حين ترتبط معانيهما الإحالية: أي الوقائع التي تحيل إليها في تفسير ما مرتبطة ببعضها ببعض»^(٣). أما العلاقات الدلالية الرابطة بين قضايا التتابعات فيذكر منها «فان دايك» ما يلي^(٤):

١. علاقة السببية:

ترتبط الواقعتان «أ» و «ب» بعضهما ببعض ارتباطا سببيا، حين يكون «أ» سببا أو تعليلا لـ «ب»، ولذا تكون «ب» نتيجة لـ «أ». ولما كان الترابط النحوي تابعا للترابط الدلالي^(٥) - أشار «فان دايك» إلى أن هذه العلاقة تشكل الأساس لاستخدام أدوات ربط (سببية) مثل: لأن، وإذ، وهكذا، وأن، ومن ثم، وعلى ذلك، وإذن، وتبعاً لذلك... إلخ، وكل هذه الروابط - وغيرها مما يحمل معنى السببية - روابط نحوية تابعة لعلاقة السببية التي هي بطبيعتها علاقة دلالية.

(١) انظر: السابق: ص ٤٩.

(٢) انظر: السابق: الصفحة نفسها.

(٣) علم النص: ص ٥٣.

(٤) انظر: السابق: ص ٥٥ - ٥٨.

(٥) انظر: السابق: ص ٤٨.

فإذا ما توافرت الروابط النحوية دون جامع السببية (الدلالي) لم يصح الترابط كما في تمثيل «فان دايك»:

- عذرا لأنني تأخرت هكذا، غير أنني ذو شعر أحمر.

فالمستمع يرفض ذلك الاعتذار ويعدده هراء؛ لأن صاحب الشعر الأحمر لا يكون عادة علة اعتذار عن أوجه التأخير.

٢. علاقات منطقية ومفهومية:

وذلك كأن تكون «أ» على نحو حتمي (منطقياً وتصورياً) جزءاً من «ب» أو على العكس، كما في الجمل المترادفة مثل:

- ليس لبيتر زوج، لأنه عزب.

فمفهوم (عزب) يتضمن أن (هذا ليس له زوج)، ومن ثم ترابطت الجملتان دلالياً عن طريق الترادف الذي هو أحد الوسائل الدلالية المنطقية للربط بين قضايا الجمل.

٣. الأزواج الزمنية:

وذلك إذا كانت «أ» و «ب» تحدثان في الموقف ذاته، ومن ثم يسوغ الآتي:

١. «أ» متزامنة مع «ب».

٢. «أ» تقع في فترة جزئية من «ب» أو على العكس.

٣. «أ» و «ب» متتابعان (كما في علاقة السببية).

٤. «أ» و «ب» متداخلان.

يوضح ذلك المثال الآتي:

- كنا على الشاطئ، ولعبنا كرة القدم.

- اشتغلت ماريا بالإبرة. لعب جورج على البيانو.

ففي المثال الأول كانت فترة لعب كرة القدم قد تبعت فترة البقاء على الشاطئ، ولا يخفى وجود رابط نحوي (الواو) تابع للرابط الدلالي ومؤكده. وفي المثال الثاني يقع الحدثان في الوقت نفسه تقريبا مما سوغ تتابعهما. أما في قولنا مثلاً:

- اشتغلت ماريا بالإبرة، والأرض تدور حول الشمس.

فلا يسوغ مثل هذا التابع؛ إذ الأرض تدور حول الشمس على كل حال مصاحبة جميع الأحداث.

أما إذا لم ترابط قضيتان في تابع جملتين، فيرى «فان دايك» أنه لابد من الاستناد حيثئذ إلى قضية ثالثة أو إلى مجموعة من القضايا - تفسر هاتين القضيتين^(١)؛ أي الاستناد إلى البنى الكبرى (موضوعات النص)، وذلك موضوع الصفحات الآتية.

* الترابط بين الأبنية الكبرى (موضوعات النص):

يشير «فان دايك» إلى أن التتابعات يجب أن تلتزم قيود (الترابط الأفقي)، أما الأبنية الكبرى فيجب ألا تقف عند هذا الحد، بل تتعدى ذلك إلى وجوب وجود (ترابط كلي) على مستوى النص (الترابط الرأسي)؛ وذلك لأن النصوص إذا ما اقتصرت على الترابط الأفقي بدت وكأنها تتابعات جملية، والتتابعات الجملية لا تشكل نصاً في كل الأحوال^(٢).

أما العلاقات التي تحكم الترابط بين الأبنية الكبرى فهي ذاتها التي تربط القضايا بين التتابعات الجملية؛ وهي - كما أسلفنا - أوجه ترابط دلالية بين القضايا (المفاهيم)^(٣).

(١) انظر: علم النص: ص ٥٧.

(٢) انظر: السابق: ص ٥٧.

(٣) انظر: السابق: ص ٧٦.

أما كيفية الوصول إلى الأبنية الكبرى للنصوص فيشير «فان دايك» إلى أربع قواعد تمكننا من ذلك، أسماها (القواعد الكبرى) وهي^(١):

١. الحذف.

٢. الاختيار.

٣. التعميم.

٤. التركيب أو الإدماج.

ويشير إلى أن القاعدتين الأولى والثانية (للإلغاء)، والأخيرتين (للاستبدال) وذلك على النحو الآتي:

١. (أ، ب، ي) ← ب.

٢. (أ، ب، ي) ← س.

ويشير إلى أن البنية الكبرى التي نصل إليها من خلال هذه القواعد الكبرى، يجب أن تكون متضمنة في جملتها داخل سلسلة القضايا (معاني التتابعات الجملية) التي تطبق عليها القاعدة^(٢)؛ أي أن البنية الكبرى يتوصل إليها من خلال النص، وليست مفروضة عليه من الخارج.

فوفق القاعدة الأولى (الإلغاء) يمكن الوصول إلى البنية الكبرى من هذا

التابع^(٣):

- مرت فتاة، ترتدي ثوبا، كان الثوب أصفر.

(١) انظر: السابق: ص ٨٠، ٨١.

(٢) انظر: علم النص: ص ٨١.

(٣) انظر: السابق: ص ٨١، ٨٢.

كما يلي: مرت فتاة، ترتدي ثوبا، ونوجزها أكثر إلى:

- مرت فتاة.

ووفق القاعدة الثانية (الاستبدال) يمكننا الوصول إلى البنية الكبرى من هذا

التتابع^(١):

- على الأرض دمية، على الأرض قطار خشبي، على الأرض مكعبات.

كما يلي: على الأرض لُعب.

وهكذا يتضح لـ «فان دايك» أن لـ «لأبنية الكبرى» و «القواعد الكبرى»

وظائف دلالية نوجزها فيما يلي^(٢):

أولا: بناء وحدات (أجزاء) من سلاسل القضايا (معاني الجمل).

ثانيا: إقامة علاقة بين سلسلة من القضايا بوصفها كلا (جزءا) بسلسلة أخرى، مثل

علاقة (ق ٢١ - ق ٤٠) بـ (ق ١١ - ق ٢٠) مثلا؛ ولم نكن - كما يقول «فان دايك» -

لنستطيع دون القواعد الكبرى في حقيقة الأمر إلا إقامة علاقة (ق ٢٠ بـ ق ٢١) من

كلتا السلسلتين؛ أي آخر قضية من الجزء السابق بأول قضية من الجزء اللاحق؛ وربما

لا يكون بين هاتين القضيتين أية علاقة، برغم تجاورهما وتواليهما؛ لذا فالقواعد

الكبرى هي المعول عليه في إقامة علاقة بين الجزأين.

(١) انظر: السابق: ص ٨٤.

(٢) انظر: السابق: ص ٧٨، ٧٩.

ثالثا: تحدد الأبنية الكبرى إذا ما كانت المتوالية نصا، أم ليست نصا، وإن التزمت قيود

الربط الأفقي.

مما سبق كله يتضح أن النص - من وجهة نظر «فان دايك» - مجموعة من

الوحدات (الأجزاء) المكونة من الجمل الكبرى، أو التتابعات الجمالية التي ترتبط فيما

بينها بعلاقات دلالية (مفهومية وماصدقية)؛ وكل جزء يحتوي بنية كبرى (موضوع

الجزء)، وهذه الموضوعات ترتبط على مستوى النص (رأسيا) بنفس العلاقات

الدلالية السابقة، لتنتج في النهاية (بنية كبرى) هي

(موضوع النص كاملا).

٣. انسجام التأويل:

ينطلق «براون ويول» في تناولهما التماسك النصي من مبدأ يعتبر دور المتلقي؛

فهو الذي ينظر إلى النص على أنه متماسك أو غير متماسك، وأن هذا التماسك تماسك

معنوي، يتحقق وإن لم توجد أدوات رابطة بين أجزاء النص. يقول «براون ويول»:

«ونحن نعتمد كذلك على مبدأ يقول بأن تجاور مقاطع لغوية يؤدي بنا إلى فهمها على

أنها مترابطة حتى في غياب أدوات رابطة بينها»^(١).

فالعبارة - هنا - بالتماسك المعنوي الناتج عن تأويل المتلقي؛ فهو كما يقول

الدكتور محمد خطابي (انسجام تأويل) وليس (انسجام خطاب)^(٢).

(١) تحليل الخطاب: ص ٢٦٨.

(٢) انظر: لسانيات النص: ص ٥١.

ووفاء منهما لهذا المبدأ نقدا دراسة «هاليداي ورقية حسن» نقدا شديدا^(١)؛ لتعويل «هاليداي وحسن» على التماسك النحوي، ونظرهما إلى التماسك على أنه شيء معطى في النص، وليس من تأويل المتلقي؛ لذا نجد «براون ويول» يقولان: «من السهل أن نجد نصوصا، أي جملا متلاصقة، نفهمها بكل تلقائية على أنها مترابطة، لا تُظهر إلا قليلا - إن وجد - من الأدوات الظاهرة المعبرة عن علاقات الترابط»^(٢)، ويضربان لذلك عدة أمثلة منها:

١. (أ) هذا جرس الباب يرن.

(ب) إنني في الحمام^(٣).

٢. محاضرة اللسانيات الإبتيمية: الخميس ٣ يونيو الثانية ظهرا. ستيف هارلو (قسم اللسانيات: جامعة يورك) «نحو لغة بلاد الغال والنحو المعمم لبنية الجملة»^(٤). ثم يعلقان على المثال الثاني لإثبات مدى الترابط المعنوي الذي تأوله المتلقي - برغم غياب الروابط الشكلية (النحوية) - بقولهما: «ومع أن المعلومات الآتية غير مصرح بها علنا في هذا المقطع الخطابي، فنحن نعلم أن ستيف هارلو (وليس رجلا آخر يدعى محاضرة اللسانيات الإبتيمية) سيلقي محاضرة (بدلا أن يكتب أو يغني أو يعرض شريطا) تم إبراز عنوانها بعلامات تنصيص، و(جامعة يورك هي الجامعة القادم منها) في الثالث من يونيو الأقرب من تاريخ الإعلان المعلق، وهكذا...»^(٥).

(١) انظر: تحليل الخطاب، الفصل السادس: ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٢) السابق: ص ٢٣٤.

(٣) انظر: تحليل الخطاب: ص ٢٣٤.

(٤) السابق: ص ٢٦٨.

(٥) السابق: ص ٢٦٨.

إن القارئ العادي - من وجهة نظر «براون ويول» - «يفترض بكل تلقائية أن تتالي هذه الجمل يشكل نصا (بما أننا نعرض هذه الجمل وكأنها نص)، وهذا القارئ سيفهم الجملة الثانية في ضوء الجملة الأولى، فهو سيفترض وجود (علاقات معنوية) قائمة بين الجمل في غياب أي تقرير معلق عن وجود مثل هذه العلاقة...

وهكذا إن (خاصية النص) بمعنى التحقق السطحي المعلن للعلاقات المعنوية ليست شرطا للتعرف على النصوص وفهم أجزائها بالرجوع إلى البعض الآخر^(١).

ثم ينتهيان إلى أن «المستمع أو القارئ لن يدخر جهدا لفرض فهم منطقي داخل مقاطع لغوية تعرض عليه تقليديا على أنها نصوص؛ أي أنه يتعامل مع اللغة المعروضة عليه بهذه الطريقة على أنها تمثل «نصا». لهذا لا نرى فائدة في تحديد عدد من الخصائص النحوية الأساسية (وما زال الكلام لهما) التي لابد أن تتوافر في النص حتى يكون النص «نصا». فالنصوص هي ما يعده المستمعون والقراء «نصوصا»^(٢).

لقد استبعد «براون ويول» أن يترابط النص على المستوى السطحي (النحوي)، وتبع ذلك استبعادهم جميع الأدوات النحوية التي يتحقق بها ذلك الترابط؛ حيث يقولان: «إن المستمعين والقراء لا يعتمدون على الأدوات النحوية للربط حتى يسموا النص نصا، فكما لاحظ هاليداي وحسن (والكلام لبراون ويول) محققين: (نحن نصر على فهم أي مقطع على أنه نص طالما كان ذلك ممكنا إلى أبعد الحدود). فكلما تجاوز الكلام زمانيا ومكانيا فإننا نحاول أن نفهم بعضه على ضوء بعضه الآخر»^(٣).

(١) السابق: ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) السابق: ص ٢٣٨.

(٣) تحليل الخطاب: ص ٢٣٧. وانظر: Cohesion in English, p.23.

إن عبارة (أبعد الحدود) التي قالها «هاليداي ورقية حسن» لن تكون بالطبع - من وجهة نظرهما - خلو النص من الأدوات النحوية الرابطة، ولا أظن أنهما يوافقان على الاستشهاد بنصهما السالف وفهمه على وجه غير هذا الوجه الذي أراداه.

وعلى أية حال، فالتوقع الطبيعي - كما يقول «براون ويول» - «أن يكون الخطاب متماسكا معنويا»^(١)، ولكن غير الطبيعي أن يغض الطرف عن الأدوات النحوية التي هي مصدر ذلك الترابط، والتي عن طريقها يتحقق ذلك التماسك المعنوي؛ فالترابط الدلالي تابع للترابط النحوي في كثير من الأحيان.

لكن ما وسائل ذلك التماسك المعنوي (الانسجام) الذي عول عليه الباحثان؟ يشير الباحثان إلى أن الترابط النصي يتحقق بواسطة مجموعة من العلاقات بين المفردات والتراكيب هي^(٢):

١. علاقة الكل بالجزء: (فالنرجس ضرب من الورد).
٢. ارتباط الجزء بالكل: (فالذراع جزء من الإنسان).
٣. حسن الجيرة: (ارتباط يوم الاثنين بيوم الثلاثاء).
٤. الاستبدال التركيبي: مثل قولنا: (إن سارة شديدة الإعجاب برايتشل، وكذلك الحال بالنسبة لي).
٥. المقارنة: نحو قولنا: (إن إيهامي أقوى من تلك المطرقة).
٦. تكرار النظام نفسه: مثال ذلك قولنا: (دخلنا ودخلوا).
٧. اتحاد الزمن اللغوي.

(١) تحليل الخطاب: ص ٨٠.

(٢) انظر: السابق: ص ٢٣١-٢٣٢.

٨. اختيار الأسلوب (الخبر والإنشاء).

وهناك وسيلة أخرى هي (الإحالة)، وطبيعتها تختلف من وجهة نظر «براون ويول» عنها لدى «هاليداي ورقية حسن»؛ فيستبعد «براون ويول» استخدام (الإحالة) للدلالة على معنى مفردة معينة مثل معنى (دجاجة: أي حيوان، له ريش إلخ)، ويخصص الباحثان الإحالة بأنها «تلك الوظيفة التي تمكّن المتكلمين (الكُتّاب) من الإشارة من خلال استعمالهم لعبارة لغوية إلى الأشياء التي يتحدثون (يكتبون) عنها»^(١)؛ فالإحالة - بعبارة أخرى - هي الإشارة بعبارة لغوية إلى الشيء المتحدّث عنه.

ويشكك «براون ويول» في صحة تمييز «هاليداي ورقية حسن» بين الإحالة خارج النص والإحالة داخل النص؛ ذلك لأن القارئ - من وجهة نظر «براون ويول» - مهما غاص في النص فإن أية إحالة لاحقة على شيء ما، لا بد أن تحيل بالعودة إلى الوراء عن طريق سلسلة الإحالات، حتى نصل إلى العبارة الأولى التي تملك بمفردها القوة التي تسمح للقارئ بالإفلات من قبضة النص، وربط ما يقرأه بالعالم الحقيقي (الخارجي)^(٢).

فالإحالة بنوعها (داخلية وخارجية) مرجعها - من وجهة نظر «براون ويول» - هو التصوّر العقلي لمحلل النص، فهي ليست إحالة لغوية نصية - كما هو الحال عند «هاليداي ورقية حسن» - وذلك أن «المحلل يثبت مرجعا في تصوّره العقلي للخطاب، ثم يربط الإحالات اللاحقة لهذا تصوّره العقلي، لا بالصيغة الأصلية في النص. ولو اعتبرنا هذا الرأي صحيحًا - والكلام لبراون ويول - فإن التمييز بين

(١) تحليل الخطاب: ص ٢٤٥.

(٢) انظر: السابق: ص ٢٣٨، ٢٣٩.

الإحالة داخل النص والإحالة خارجه يصبح أمرًا أكثر صعوبة. فنحن مضطرون إلى افتراض أن المحلل في كلتا الحالتين يملك تصورًا عقليًا. فهو في إحدى الحالات يملك تصورًا عقليًا كما هو موجود في العالم (وذلك في الإحالة الخارجية^(*)) وهو في الحالة الأخرى يملك تصورًا عقليًا عن عالم خلقه الخطاب في ذهنه (وذلك في حالة الإحالة الداخلية^(*)).

وعليه في كلتا الحالتين أن يعود إلى تصوره العقلي لتحديد موضع الإحالة^(١). فالإحالة في النهاية - من وجهة نظرهما - عمل يقوم به المتكلم / الكاتب، لا الكلمات^(٢)، أو بعبارة أخرى: الذي يحيل هو المتكلم / الكاتب باستعماله الكلمات المحيلة، فالمعيار هو مقصد المتكلم / الكاتب.

والعبرة لدى «براون ويول» ليست بالإحالة الصحيحة (الحقيقية)، ولكن بالإحالة الناجحة (حقيقية أو مجازية)، «ويعتمد نجاح عملية الإحالة على قدرة المستمع على التعرف على المسمى الذي قصده المتكلم باستعمال العبارة المحيلة، وذلك لفهم الرسالة اللغوية الموجهة إليه»^(٣).

ثم يؤكد الباحثان - في نهاية الأمر - أن الضمائر المحيلة لا تحيل إلى الصيغة الاسمية السابقة فحسب، بل تحيل إليها بجميع ما أسند إليها من صفات^(٤)، ويضربان لذلك المثال الآتي:

(*) زيادة مني للتوضيح.

(١) تحليل الخطاب: ص ٢٤٠.

(٢) انظر: السابق: ص ٣٦.

(٣) السابق: ص ٢٤٦.

(٤) انظر: السابق: ص ٢٥٨.

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين

- فرغت لتوي من تسريح شعري على شكل تموجات، بحيث يبدو دائها للناظر وكأنه تعرّض لزخات الريح.

فالضمير في (كأنه) لا يحيل إلى كلمة (شعري) فحسب، بل يحيل إلى (هذا الشعر في حال تموجه).

إن هذا يؤكد أن الإحالة فوق كونها وسيلة من وسائل الترابط القوي بين أجزاء النص - وسيلة من وسائل الاختصار اللغوي؛ فالضمير (ها) في قول طرفة:

عَلَى مِثْلِهَا أَمْضِي إِذَا قَالَ صَاحِبِي

يعود على تلك الناقاة الموصوفة بكل تلك الصفات التي احتلت ثلاثين بيتًا، وكأنه يجمع - بهذه الإحالة - هذه الأبيات الثلاثين في بيت واحد، بل في كلمة واحدة: (مثلها)، «فاستعمال المتكلمين للضمائر يتأثر فعلاً بالمسندات الملحقه بالضيغ الاسمية السابقة»^(١).

عند هذا الحد يتضح أن «براون ويول» يعتبران دور المتلقي في بيان انسجام النص، ولا يعولان على الروابط النحوية كما عول عليها «هاليداي ورقية حسن» ثم «فان دايك» من بعدهما.

ثانيا: إسهامات عربية معاصرة:

١. التشاكل والتباين وسيلتا الانسجام النصي:

((١) تحليل الخطاب: ص ٢٥٩.

يشير الدكتور محمد مفتاح إلى أن الدراسات اللسانية الحديثة عندما تناولت (النص) وضعت مجموعة متنوعة من الأطر النظرية، ثم يقرر أنه يمكن استخلاص قواسم مشتركة بينها، يجمّلها في مفهومين عامين^(١):

أولهما: الالتحام:

ويشتق منه التنضيد والتنسيق، ويعني بالتنضيد: «الجميل التي نجد فيها أدوات العطف ومختلف الروابط الأخرى التي تعلق جملة بجملة»^(٢)، وهو ما يوازي (التماسك النحوي).

ويعني بالتنسيق: «العلاقات المعنوية والمنطقية بين الجمل، حيث لا تكون هناك روابط ظاهرة بينها»^(٣)، وهو ما يوازي (التماسك الدلالي).

ثم يقرر أن هذا الالتحام، وما يقتضيه من تنضيد وتنسيق، هو ما يدعى - غالبا - بانسجام النص لدى الدارسين البنيويين المحافظين والمحللين للخطاب من اللسانيين^(٤).

ثانيهما: الانسجام:

ويقرر أن «كل نص منسجم مهما تراءت فوضويته وعشبيته وعدم التماس أجزاءه»^(٥)، ويؤكد ذلك في مواضع أخرى؛ ذلك لأن «الشاعر الموهوب ذا الفطرة السليمة يحقق الانسجام بين أشياء مختلفة، تظهر لغير الشاعر وكأن لا علاقة بينها»^(٦).

(١) دينامية النص: ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) السابق: ص ٤٤.

(٣) السابق: ص ٤٤.

(٤) انظر: السابق: ص ٤٤.

(٥) السابق: ص ٤٤.

(٦) انظر: السابق: ص ٥٧.

لقد أشار الدكتور محمد مفتاح - كما أسلفنا - إلى أن مفهوم (الانسجام) عند محلي الخطاب هو نفسه مفهوم (الالتحام)، دون أن يؤيد قولهم أو أن يرفضه، لكننا إذا تتبعنا حديثه عن الانسجام النصي نجد أنه يشير في موضع آخر من كتابه (دينامية النص) إلى مجموعة من وسائل ذلك الانسجام تشمل وسائل نحوية تعمل على (الانسجام على مستوى سطح النص)، ووسائل دلالية غير ظاهرة تعمل على (الانسجام على المستوى العميق للنص)، هذه الوسائل هي^(١):

١. أدوات عطف النسق.

٢. التراكيب المترابطة، مثل: قالت الثار كذا، وقالت الجداول كذا، قال العشب ..

٣. التراكيب المتوازية المتشابهة.

٤. الشرط.

٥. السببية:

التي «قد تكون ظاهرة، وحينئذ تبرز بالعطف ... على أنها تكون غير ظاهرة، وحينئذ يجب التماسها عن طريق السؤال والجواب المصرح بهما، أو الجواب عن سؤال مضمّر، أو تقدير المشاهد المفقودة»^(٢).

إن الوسائل الأربع الأولى وسائل نحوية خالصة، أما الوسيلة الخامسة

(السببية) فوسيلة دلالية، قد تبرز بوسيلة نحوية هي (العطف)، أو لا تبرز بها فيصبح الانسجام دلاليا خالصا عند اعتياده عليها في هذه الحال.

(١) دينامية النص: ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) السابق: ص ١٦٥.

إن الأمر يتضح أكثر في دراسة أخرى للدكتور محمد مفتاح يتحدث فيها عن (التشاكل والتباين)^(١)؛ إذ يرى أن التشاكل «هو الذي يحصل به الفهم الموحد والموحد للنص المقروء، وهو الضامن لانسجام أجزائه وارتباط أقواله»^(٢)، وهذا «التشاكل ينتج عن التباين»^(٣)؛ إذ «التشاكل يتضمن - بالضرورة - تبايناً وتوتراً»^(٤)، «فالتشاكل والتباين إذن لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر»^(٥)، فهما معاً ضامنان لانسجام أجزاء النص.

ثم يقسم التشاكل إلى^(٦):
(أ) تشاكل التعبير:

ويحتوي التشاكلات الصوتية، والمعجمية، والتركيبية.

(ب) تشاكل المعنى.

يمكننا إذن أن نقول إن (تشاكل التعبير) يوازي (التنضيد) المشار إليه آنفاً، وهما يوازيان (التماسك النحوي). كما أن (تشاكل المعنى) يوازي (التنسيق)، وهما يوازيان (التماسك الدلالي).

فالتشاكل والتباين على المستويين (النحوي والدلالي) يعملان معاً على تماسك أجزاء النص، أو (انسجامه) كما اصطلح على ذلك الدكتور محمد مفتاح. وسنجد القول في (التشاكل والتباين) عند الدكتور محمد مفتاح فيما يأتي:

(١) انظر: تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناص: ص ١٩ - ٧٩.

(٢) السابق: ص ٢١.

(٣) السابق: ص ٢١.

(٤) السابق: ص ٧٣.

(٥) السابق: ص ٢١.

(٦) انظر: السابق: ص ٢٦ - ٢٧.

يشير الدكتور محمد مفتاح إلى أن أول من نقل مفهوم التشاكل من ميدان الفيزياء إلى ميدان اللسانيات هو (كرياص) الذي يعرفه بأنه: «مجموعة مترابطة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية، كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل إبهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة»^(١).

ويأخذ الدكتور محمد مفتاح على هذا التعريف أمرين^(٢):

١. أنه لا يشمل إلا التشاكل المعنوي.

٢. أنه اقتصر على (الحكاية)، في حين أن التشاكل موجود ملاصق لكل تركيب معنوي. ثم يشير الدكتور مفتاح إلى أن هذا التضييق في التعريف هو الذي حدا بـ (راستي) أن يحدد التشاكل بأنه: «كل تكرار لوحدة لغوية مهما كانت»^(٣).

هذا التعريف الموسع الذي رأيناه إنما صاغه (راستي) عند دراسته لقصيدة شعرية.

ثم عرّف التشاكل في مرحلة تالية بأنه: (تكرار مقنن لوحداث الدال نفسها «ظاهرة أو غير ظاهرة»، صوتية أو كتابية أو تكرار لنفس البنيات التركيبية «عميقة أو سطحية» على امتداد قولي)، وهذا التحديد يسير في نفس الاتجاه التوسيعي السابق^(٤).

ويأخذ الدكتور محمد مفتاح على ذلك التعريف الأخير أنه «لا ينطبق إلا على الخطاب العلمي أو على ما شاكلة، وأما الخطاب الشعري وما أشبهه من خطاب

(١) تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناص: ص ٢٠.

(٢) انظر: السابق: ص ٢٠.

(٣) السابق: ص ٢١.

(٤) انظر: السابق: ص ٢١.

ويأخذ الدكتور محمد مفتاح على ذلك التعريف الأخير أنه «لا ينطبق إلا على الخطاب العلمي أو على ما شاكله، وأما الخطاب الشعري وما أشبهه من خطاب أسطوري وإعلاني فإنه يتمرد كل التمرد على أن يقبل تلك الشروط، فالخطاب الشعري يرحب بتركيب مثل: (الليل هو النهار)، و(أحمد أسد)، و(الدهرجلي)، لأن الشاعر ومن يسير في نهجه يجمع بين المتناقضين، وفي ذلك الجمع غرابة هي سر قبول الشعر والتلذذ به»^(١).

ثم يعرف التشاكل بأنه: «تنمية لنواة معنوية سلبياً أو إيجابياً بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداولية، ضماناً لانسجام الرسالة»^(٢).

وهذا التعريف يضيف إلى التعريفات السابقة عنصرين هما:

١. التداول: ويعني به الدكتور مفتاح: «علاقة المتكلم باستعمال اللغة، وعلاقته بالمخاطب وبالسباق الضامن لنجاعة عملية التواصل ووجهاتها»^(٣).

٢. التناس: أي اشتراك النص اللاحق مع السابق في بعض المقومات التي تمثل إركاماً (تراكماً)، وتكراراً لنواة معنوية موجودة من قبل.

وبهذا التوسيع يصبح النص منسجماً، لا في حد ذاته فحسب، بل مع جنسه الأدبي، ومع ثقافة الأمة التي استقى من تقاليد مادته وصورته^(٤).

ومن ثم فالانسجام عند الدكتور مفتاح قسمان:

(١) تحليل الخطاب الشعري: ص ٢٤.

(٢) السابق: ص ٢٥.

(٣) السابق: ص ٢٥.

(٤) انظر: السابق: ص ٢٥-٢٦.

والذي يعنينا من هذين القسمين إنها هو القسم الأول، ومن ثم لا يعنينا - هنا - ذلك التناس (إركام وتكرار المقومات التي احتوتها النصوص السابقة)؛ ذلك لأننا إنما نُعنى - في هذه الدراسة - بالتماسك بين أجزاء النص ومكوناته، ولا نتعدى إلى ما وراء النص.

* أقسام التشاكل:

(أ) تشاكل التعبير:

١. التشاكل الصوتي:

يؤكد الدكتور مفتاح أنه يجب التسليم بأن «الظواهر الصوتية جميعها تستعصي على الدراسة العلمية الدقيقة، وأن كثيراً من أصحاب الأبحاث في هذا المجال بدءوا يتشاءمون ويرون محاولات دراستها مضيعة للوقت»^(١)، ويؤكد أن دراسة الأصوات مستقلة عن الكلمة والسياق الذي وردت به يؤدي إلى أحكام جائرة؛ إذ إن التشاكل الصوتي يتحقق في الكلمة، ولكنه لا يؤدي وظيفته كاملة إلا إذا تجلّى في تركيب^(٢). وعلى الرغم من ذلك يرى الدكتور مفتاح أنه يجب رصد بعض المؤشرات الصوتية، ومنها^(٣):

١. التراكم الصوتي.

٢. مؤشرات مواكبة (صرفية ومعنوية وتداولية).

٣. سياق ملائم خاص وعام.

٢. التشاكل المعجمي:

(١) السابق: ص ٥٥ بتصرف.

(٢) انظر: تحليل الخطاب الشعري: ص ٥٥-٥٦.

(٣) السابق: ص ٣٦.

٣. سياق ملائم خاص وعام.

٢. التشاكل المعجمي:

ويتم عن طريق بعض الآليات الأساسية وأهمها^(١):

١. علاقة (العموم / الخصوص): فالدهر لفظ عام جامع تدخل ضمنه ألفاظ متعددة مثل: الليالي، والأيام. ويشير الدكتور مفتاح إلى أن (رائية ابن عبدون) - التي تناولها بالتحليل - خير شاهد على هذا؛ فهي تبدأ بلفظ (الدهر) الذي هو محور القصيدة، ثم تُكرر مرة أخرى بنفسه، وتارات أخرى عن طريق ألفاظ خاصة يشملها مثل: الليالي والأيام.

٢. التعبير بالجزء عن الكل أو بالسبب عن المسبب.

٣. الترابط المقيد أو الحر: فـ «الأثر» في (رائية ابن عبدون) يدعو «العين» تقييدا، وهكذا عندما نكتب كلمة أو نقرأها «نتوقع أن تتلوها كلمات أخرى، مما يكون متتالية كلامية تحتوي على لفظين أو ألفاظ متقابلة»^(٢).

٣. التشاكل التركيبي:

ويشمل التشاكل في: الصيغة الصرفية، ومقولة الزمن، والنفي، والمكان، والضائر... ويظهر ذلك جليا في قول ابن عبدون:

وَمَا أَقَالَتْ ذَوِي الْهَيْئَاتِ مِنْ يَمَنِ وَلَا أَجَارَتْ ذَوِي الْغَايَاتِ مِنْ مُضَرٍ

إذ يوضح الدكتور مفتاح (التشاكل التركيبي) بين شطري هذا البيت كما يلي^(٣):

(١) انظر: السابق: ص ٦٠-٦١.

(٢) السابق: ص ٦١.

(٣) انظر: السابق: ص ٧٢.

ذوي: ذوي	(مطابقة تامة)
الهيئات: الغايات	(في الصيغة الصرفية)
من: من	(مطابقة تامة)
يَمَنِ: مُضَرٍ	(في الصيغة الصرفية والعلمية)

وقد لا يتحقق هذا التشاكل على مستوى شطري البيت، ويتحقق في جزء منه، مثل:

فبعضنا قائل = وبعضنا ساكن^(١)

وقد يرد التشاكل على المستوى الرأسي بالنص، «ومغزى هذا التشاكل التركيبي هو دلالة على التكرار والإلحاح والدوران من حيث الفعل النحوي... على أن التشاكل يتضمن - بالضرورة - تبايناً وتوتراً، فلا تشاكل لفظية أختها تماماً، وإن ظهر أنها متطابقان»^(٢).

(ب) تشاكل المعنى:

يقرر الدكتور مفتاح أننا «مهما أعرنا الاهتمام إلى التعبير فإن المضمون يبقى قطب العملية التواصلية... والتشاكل المعنوي يقوم بوظائف عديدة... من أهمها ضمان نوع التشاكل المعنوي الذي يجعل المتلقي يفهم الخطاب - القول -، وهو ينتج عن تكرار المقومات السياقية.

وتوضح هذا أن (الدهر يفجع) يمكن أن يحلل إلى:

- الدهر: (+ اسم)، (+ مجرد)، (+ دال على زمان غير محدد)، (+ معتقد ضرره)...
- يفجع: (+ فعل)، (+ محمول إلى فاعل حي أو مجرد)، (+ دال على الضرر).

(١) تحليل الخطاب الشعري: ص ٧٣.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

- يفع: (+ فعل)، (+ محمول إلى فاعل حي أو مجرد)، (+ دال على الضرر).

فالموضوع والمحمول بينهما مقوم مشترك، وهو (+ الدلالة على الضرر). وهذا المقوم سيتراكم على طول القصيدة (يعني رائية ابن عبدون) بنفسه أو بمرادفاته، مما يجعل التشاكل عاملاً أساسياً في ضمان وحدة الخطاب^(١).

ثانياً: التباين^(٢):

يشير الدكتور مفتاح إلى أن التباين قد يكون:

١. مختفياً (أي على مستوى الدلالة).

٢. واضحاً (أي على المستوى النحوي).

ويشير إلى أن (القسم الأول من رائية ابن عبدون) يهيمن عليه الصراع المتجلي

في التباين التركيبي التالي:

الخبر / الإنشاء.

الجملة الاسمية / الجملة الفعلية.

الخطاب / الغيبة.

الإثبات / النفي.

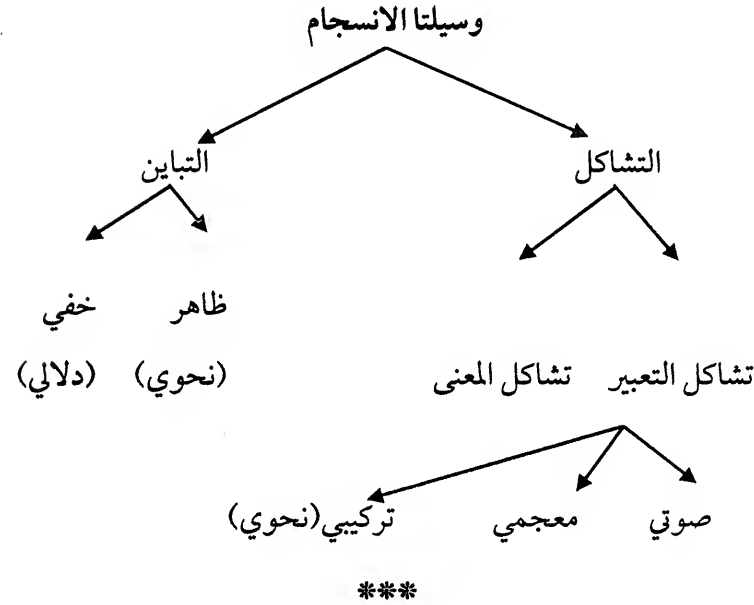
النهي / الأمر.

الشيء / مقابله.

(١) السابق: ص ٢٧.

(٢) انظر: السابق: ص ٧١.

ويتحقق هذا الانسجام عن طريق (التشاكل والتباين) على المستويين (النحوي والدلالي). ويمكن تمثيل ذلك في المخطط الآتي:



٢. وسائل انسجام النص الشعري:

جاءت دراسة الدكتور محمد خطابي إجابة عن ذلك السؤال الذي طرحه في مقدمة هذه الدراسة وهو: كيف ينسجم الخطاب الشعري؟ وهل تكفي الأدوات والمفاهيم المقدمة من قبل الغربيين لدراسة أو وصف انسجام الخطاب الشعري الحديث؟

يقرر الدكتور محمد خطابي أن الإجابة عن هذا السؤال قد اقتضت قطع

مسيرة ثلاثة أبواب:

والمفاهيم المقدمة من قبل الغربيين لدراسة أو وصف انسجام الخطاب الشعري الحديث؟

يقرر الدكتور محمد خطابي أن الإجابة عن هذا السؤال قد اقتضت قطع مسيرة ثلاثة أبواب:

- أما الباب الأول فقد خصّه لعرض مجمل لمقترحات الغربيين أمثال « هاليداي ورقية حسن »، و « فان دايك »، و « براون ويول »، وغيرهم.

- وأما الباب الثاني فقد عرض فيه المحاولات العربية القديمة التي أسهمت في انسجام النص، وقصر اهتمامه على ثلاثة علوم عربية هي علوم البلاغة والنقد الأدبي والتفسير.

- أما الباب الثالث والأخير فيعد تحليلاً لنص لـ « أدونيس » بعنوان: (فارس الكلمات الغريبة)، وأشار الدكتور خطابي إلى أن الهدف من هذا التطبيق هو اختبار المفاهيم التي اقترحها الغربيون لوصف انسجام النص.

فعل الدكتور محمد خطابي هذا كله « من أجل صياغة إطار نظري يمكننا من مقارنة (هكذا) انسجام الخطاب الشعري »^(١)، وقبل صياغة ذلك الإطار يقوم الدكتور خطابي بتصنيف المفاهيم المقترحة من قبل الغربيين، وكذلك المستخلصة من الجهود العربية^(٢):

- أما المقترحات الغربية فيصفنها إلى أربعة مستويات:

(١) لسانيات النص: ص ٨. يستخدم كثير من الباحثين مصطلح (مقاربة النص) استخداماً غير صحيح؛ ذلك لأن اللغة العربية تحتوي على ما يعرف بأفعال المقاربة، كما أنه يقال: قارب فلان في أموره: أي اقتصد وترك المبالغة. وليس ذلك مرادهم من هذا المصطلح، إنما المراد (تناول النص). فالصواب إذن (تناول) لا (مقاربة).

(٢) انظر: السابق: ص ٢٠٩ - ٢١٠.

أ - التكرار. ب - التضام. ج - الأسماء العامة.

٣. المستوى الدلالي:

أ - موضوع الخطاب. ب - ترتيب الخطاب.

ج - التغريض^(١). د - البنية الكلية.

٤. المستوى التداولي:

أ - السياق وخصائصه. ب - المعرفة الخلفية.

- أما المعطيات المستخلصة من المباحث العربية فيصنفها على الشكل نفسه:

١. المستوى النحوي:

أ - العطف. ب - الإحالة. ج - الإشارة

٢. المستوى المعجمي:

أ - المطابقة. ب - رد العجز على الصدر.

ج - التكرير: البناء، والمناسبة.

٣. المستوى الدلالي:

أ - مبدأ الاشتراك. ب - الجامع العقلي والوهمي.

ج - العلاقات: التأكيد والبيان، والإجمال والتفصيل، العموم والخصوص، والاقتضاء،

الجزء / الكل، السبب والمسبب ...

د - موضوع الخطاب. هـ - تنظيم الخطاب.

٤. المستوى التداولي:

أ - التضام النفسي. ب - الجامع الخيالي.

(١) أي: جعل موضوع النص غرضاً له، (انظر: لسانيات النص: ص ٥٩).

ج - العلاقات: التأكيد والبيان، والإجمال والتفصيل، العموم والخصوص، والاقتضاء، الجزء / الكل، السبب والمسبب ...

د - موضوع الخطاب. هـ - تنظيم الخطاب.

٤. المستوى التداولي:

أ - التضام النفسي. ب - الجامع الخيالي.

ج - السؤال المقدر. د - الأفعال الكلامية.

من هذين التصنيفين (الغربي والعربي) يصوغ الدكتور محمد خطابي الإطار النظري الذي يسير على هديه في تحليل النص وبيان انسجامه «وهو إطار مستخلص بعد إدماج الاقتراحين معا»^(١):

١. المستوى النحوي:

أ - الإحالة. ب - الإشارة. ج - أدوات المقارنة.

د - العطف. هـ - الحذف. و - الاستبدال.

٢. المستوى المعجمي:

أ - التكرير (البناء، المناسبة، رد العجز على الصدر).

ب - التضام. ج - المطابقة.

٣. المستوى الدلالي:

أ - مبدأ الاشتراك (الجامع العقلي والوهمي).

ب - العلاقات: الإجمال / التفصيل، العموم / الخصوص.

ج - موضوع الخطاب.

(١) لسانيات النص: ص ٢١١.

٥. المستوى البلاغي:

- الاستعارة (التعاليق الاستعاري).

ولنا على هذا الإطار المستخلص مجموعة ملاحظات:

أولاً: أنه يمكن إدماج (الإشارة) مع (الإحالة)؛ لأن الإحالة تعني أن يحيل عنصر لغوي لاحق - غالباً - إلى عنصر آخر سابق ويشير إليه، والإحالة تتحقق بالضمان، أو (أل) العهدية، كما تتحقق بأسماء الإشارة.

ثانياً: أن وسيلة (الاستبدال) يمكن إرجاعها إلى (الحذف أو التكرار أو الإحالة بالإشارة)، ويتضح ذلك فيما يلي:

- في الاستبدال الاسمي يتم الاستبدال عن طريق كلمة (One) التي تعني (آخر/ أخرى)، أو كلمة (Same) التي تعني (الشيء نفسه)، والمثال الذي ذكره الدكتور محمد خطابي هو:

- My axe is too blunt. I must get a sharper one.

وترجمه كما يلي: (فأسي جد مثلومة، يجب أن أقتني أخرى حادة).

والانساق في هذا المثال تم عن طريق (الحذف والنعت) أي حذف (فأساً) لدلالة (فأس) الأولى عليها، كما أن كلمة (أخرى) بها إشارة إلى (الفأس الأولى). كما تؤكد الترابط بالإخبار عن الأولى بأنها (مثلومة) ووصف الثانية بأنها (حادة)، وبين الكلمتين (طباق) أدى إلى ذلك الترابط وبيان مغايرة الفأس الثانية للأولى.

كما أننا يمكن أن نترجم المثال كما يأتي: (فأسي جد مثلومة، يجب أن أقتني فأساً حادة)، وعندئذ يتم الترابط بين الجملتين بتكرار كلمة (فأس)، ويتأكد بالتطابق بين (مثلومة) و (حادة).

تؤكد الترابط بالإخبار عن الأولى بأنها (مثلومة) ووصف الثانية بأنها (حادة)، وبين الكلمتين (طباق) أدى إلى ذلك الترابط وبيان مغايرة الفأس الثانية للأولى.

كما أننا يمكن أن نترجم المثال كما يأتي: (فأسي جد مثلومة، يجب أن أقتني فأسا حادة)، وعندئذ يتم الترابط بين الجملتين بتكرار كلمة (فأس)، ويتأكد بالتطابق بين (مثلومة) و (حادة).

- أما الاستبدال الفعلي فقد أشار «هاليداي ورقية حسن» أنه يتم بأن يحل الفعل (Do) محل الفعل السابق ذكره في الجملة الأولى، وهذا الفعل معناه العام (يفعل)، أما معناه الخاص فيتضح من خلال السياق، فهو في مثال «هاليداي ورقية حسن» الذي أورده الدكتور خطابي:

- You think Joan already knows? I think every body does.
وترجمته: هل تعتقد أن جون يعرف شيئا؟ أعتقد أن كل شخص يعرف.

ترجم بـ (يعرف) لدلالة الفعل (يعرف) - في الجملة الأولى - عليه؛ ومن ثم يترجم هذا الفعل بـ (يأكل) إذا كانت الجملة الأولى تحتوي على الفعل (Eat)، وبـ (بجل) إذا احتوت على الفعل (Dignified) ... وهكذا.

هذا كله يؤكد أن الترابط تم بالترادف أو التكرار، فليس هناك استبدال.

- وأما الاستبدال القولي، فقد أشار «هاليداي ورقية حسن» إلى أنه يتم بأحد عنصرين هما (not - so)، وهذان العنصران يحملان - في السياق - معنى الإشارة إلى شيء سابق؛ ومن ثم فالترابط قد يتم - هنا - بـ (الإحالة) وليس بالاستبدال.

ويؤكد لنا أن (الاستبدال) إن صدق في الإنجليزية بصورة ما، فلا يصدق على العربية بالصورة نفسها - أن الدكتور محمد خطابي عندما تناول نص أدونيس (فارس

ثالثا: ينبغي ألا يفصل المستوى المعجمي عن المستوى النحوي؛ إذ المفردات المعجمية لا تعمل في الفراغ، بل تصب في الأبنية الصرفية التي تشغل الوظائف النحوية؛ ومن ثم فالنحو والمعجم يعملان معا على اتساق النص وتماسكه على المستوى السطحي (الظاهري). وعلى الرغم من ذلك يمكننا اعتبار فصل هذين المستويين ممكنا لغرض الدرس والبيان.

رابعا: في المستوى التداولي:

ليس للمعرفة الخلفية دور مباشر في تماسك أجزاء النص الشعري؛ فالشعر (وهو ضرب من النصوص اللغوية) إنما يبنى من الكلمات لا من الأفكار - على حد التعبير المشهور (المالارميه) - فلا يجوز أن يتحكم فيه ما ليس من طبيعة بنائه. أما إذا كان التناول لنص شفهي منطوق فعندئذ يصبح للمستوى التداولي دور بالغ الأهمية في بيان مدى اتساق ذلك الضرب من الخطابات.

خامسا: يمكن إرجاع المستوى البلاغي الذي يحتوي (الاستعارة) إلى المستوى النحوي المعجمي كذلك؛ إذ الاستعارة نوع من أنواع «المجاز» الذي هو ناتج من نتائج التفاعل بين الوظائف النحوية والمعاني المعجمية للمفردات التي تشغلها^(١)، مثله في ذلك ك «الحقيقة» تماما.

٣. السبك والحبك معيارا التماسك النصي:

(١) لمزيد من التوضيح، انظر: العلاقات النحوية بين المفردات في الجملة ودورها في تشكيل المجاز، محروس السيد بريك، (رسالة دكتوراه، مكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨م).

خامساً: يمكن إرجاع المستوى البلاغي الذي يحتوي (الاستعارة) إلى المستوى النحوي المعجمي كذلك؛ إذ الاستعارة نوع من أنواع « المجاز » الذي هو ناتج من نتائج التفاعل بين الوظائف النحوية والمعاني المعجمية للمفردات التي تشغلها^(١)، مثله في ذلك كـ « الحقيقة » تماماً.

٣. السبك والحبك معيارا التماسك النصي:

أشركنا من قبل إلى أن الدكتور سعد مصلوح قد اختار مجموعة من المعايير التي قدمها (دي بوجراند ودريسلر)، والتي تتحقق بها مجتمعة نصية النص، وقد صنف الدكتور مصلوح تلك المعايير السبعة كما يلي^(٢):

(١) ما يتصل بالنص في ذاته Text – Centered وهما معيارا السبك والحبك.

(٢) ما يتصل بمستعملي النص، سواء أكان المستعمل منتجاً أم متلقياً User

Centered؛ وهو ما يشمل معياري القصد والقبول.

(٣) ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنص؛ وهي معايير الإعلام والمقامية والتناص.

(١) لمزيد من التوضيح، انظر: العلاقات النحوية بين المفردات في الجملة ودورها في تشكيل المجاز، محروس السيد بريك، (رسالة دكتوراه، مكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨ م).
(٢) انظر: نحو أجرومية للنص الشعري، د. سعد مصلوح: ص ١٥٤ (فصول، ع ١، ٢، سنة ١٩٩١ م).

أثر الصنعة في الثوب. يقال: حَبَكَه يَحْبِكُه ويَحْبِكُه واحْتَبَكَه، أحكمه وأحسن عمله فهو حبيك ومحبوك^(١).

ثم يشير الدكتور مصلوح إلى وجود شيء من التفاعل المستمر بين وسائل السبك ووسائل الحبك؛ وذلك أن الحبكة المضمونية تتجلى «في بنية ظاهر النص، كما يعين ظاهر النص على تحقيق الحبكة المضمونية. وبكليهما تتحقق استمرارية النص صياغة ومضمونا»^(٢).

إن (استمرارية النص) لم تكن لتتحقق إلا إذا كان النص متماسكاً نحوياً (مسبوكة) ودلالياً (محبوكاً)، ولكل من السبك والحبك وسائل أشار الدكتور مصلوح إلى بعضها.

وقبل تناولنا لتلك الوسائل نبين أن الدكتور مصلوح قد بين أن السبك والحبك يتحققان في (بنية هرمية) هي المتوالية المنهجية في علم النص، والتي تبدأ من الجملة لتتحقق على الوجه الآتي^(٣):

- | | |
|--------------------------------|------------------|
| ١. الجملة | Sentence |
| ٢. ما بين الجمل | Inter Sentential |
| ٣. الفقرة أو المقطوعة | Paragraph |
| ٤. ما بين الفقرات أو المقطوعات | Inter Paragraph |
| ٥. النص | Text |

(١) انظر: السابق: ص ١٦٦ حاشية (١٠)، وانظر: تاج العروس، الزبيدي، تحقيق: علي شيري، مادتي (سبك - حبك) ج ١٣ ص ٥٣٤، و ٥٧٨ (دار الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م).

(٢) السابق: ص ١٥٥.

(٣) انظر: السابق: ص ١٥٤. والعربية من نحو الجملة إلى نحو النص، د. سعد مصلوح: ص ٤٠٧، ٤٣١ (الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكويت، دراسات مهداة إلى روح عبد السلام هارون، ١٩٩٠ م).

وقبل تناولنا لتلك الوسائل نبين أن الدكتور مصلوح قد بين أن السبك والحبك يتحققان في (بنية هرمية) هي المتوالية المنهجية في علم النص، والتي تبدأ من الجملة لتتحقق على الوجه الآتي^(١):

الجملة	Sentence
٢. ما بين الجمل	Inter Sentential
٣. الفقرة أو المقطوعة	Paragraph
٤. ما بين الفقرات أو المقطوعات	Inter Paragraph
٥. النص	Text

ومعنى هذا أن «جميع المكونات في مستوى ما قبل الجملة داخل على وجه التدرج الهرمي في نحو الجملة»^(٢)، ويتحقق التدرج الهرمي في نحو الجملة على النحو الآتي^(٣):

١ - الكلمة	Word
٢ - العبارة	Phrase
٣ - الجملة الصغرى	Clause
٤ - الجملة	Sentence

(١) انظر: السابق: ص ١٥٤. والعربية من نحو الجملة إلى نحو النص، د. سعد مصلوح: ص ٤٠٧، ٤٣١ (الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكويت، دراسات مهداة إلى روح عبد السلام هارون، ١٩٩٠ م).

(٢) العربية من نحو الجملة إلى نحو النص: ص ٤١٩.

(٣) انظر: السابق: ص ٤٣١. (معنى هذا أن نحو الجملة ينتهي عند النقطة التي يبدأ منها نحو النص وهي "الجملة"، فالجملة نقطة التقاء بين النحويين، ويمكن تمثيل ذلك كما يلي:

الكلمة - العبارة - الجملة الصغرى - الجملة - ما بين الجمل - الفقرة - ما بين الفقرات - النص.
نحو النص

(أ) التكرار الخالص:

ويشير الدكتور مصلوح إلى أن هذا النوع من التكرار هو «أظهر وسائل السبك وأدناها إلى الملاحظة»^(١)، والشاعر إنما يلجأ إلى التكرار الخالص «ليؤكد نصية نصه، وكأنه بذلك يضع القصيدة كلها بين قوسين»^(٢).

وفي قصيدة المرقش يتجلى التكرار في لفظين (ابنة عجلان - الدهر)؛ أما اسم الحبيب (ابنة عجلان) فيذكره في صدر البيتين الأولين متحدثاً عنها في صيغة الغائب، ثم مخاطباً إياها خطاباً مباشراً في صدر البيت الخامس، ثم يختفي اسم المحبوبة ويستبدل به الضمير، ولا يفجؤنا بالظهور الصريح إلا في البيت الأخير؛ ليؤكد الشاعر بذلك على نصية نصه، وكأنه بذكر اسم المحبوبة في أول القصيدة وآخرها يضعها (القصيدة) بين قوسين تأكيداً على مدى تماسكها^(٣).

أما لفظ (الدهر) فيتكرر في الأبيات (الثاني والثالث والثالث عشر والسادس عشر)، ثم يعبر الشاعر في البيت الخاتم بلفظ مفسر عن الدهر «في تسمية مبهمة تجمع كل ما سبق»^(٤) وتعمل على تماسك أجزاء القصيدة، ذلك اللفظ المفسر هو: (غائل) في قوله:

وَلِلْفَتَى غَائِلٌ يَغُولُهُ يَا ابْنَةَ عَجْلَانَ

ثم يشير الدكتور مصلوح إلى وجود مظهرين من مظاهر التكرار المحض^(٥):

(١) السابق: ص ١٥٧.

(٢) السابق: ص ١٥٧ بتصرف.

(٣) انظر: نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٥٧.

(٤) السابق: الصفحة نفسها.

(٥) انظر: السابق: ص ١٥٨.

بذلك على نصية نصه، وكأنه بذكر اسم المحبوبة في أول القصيدة وآخرها يضعها (القصيدة) بين قوسين تأكيداً على مدى تماسكها^(١).

أما لفظ (الدهر) فيتكرر في الأبيات (الثاني والثالث والثالث عشر والسادس عشر)، ثم يعبر الشاعر في البيت الخاتم بلفظ مفسر عن الدهر «في تسمية مبهمه تجمع كل ما سبق»^(٢) وتعمل على تماسك أجزاء القصيدة، ذلك اللفظ المفسر هو: (غائل) في قوله:

وَلِلْفَتَى غَائِلٌ يَغُوْلُهُ
يَا بَنَّةَ عَجَلَانَ

ثم يشير الدكتور مصلوح إلى وجود مظهرين من مظاهر التكرار المحض^(٣): أولهما: التكرار مع وحدة المرجع: أي والمسمى واحد، كتكرار اسم المحبوبة أو لفظ الدهر، وما إلى ذلك.

ثانيهما: التكرار مع اختلاف المرجع: أي والمسمى متعدد، وهو ما يعرف بالجناس التام.

(ب) التكرار الجزئي: Partial Recurrence

«ويقصد به تكرار عنصر سبق استخدامه، ولكن في أشكال وفئات مختلفة»

^(٤)، ومثل الدكتور مصلوح لذلك من قصيدة المرقش بما يأتي:

١١، ٩ أرقني الليل، وليلة بتها.
١١، ١٠ أشعري الهم، كررتها... الهموم.
١٣ تبكي على الدهر... أبكاك.

(١) انظر: نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٥٧.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

(٣) انظر: السابق: ص ١٥٨.

(٤) السابق: ص ١٥٨.

صرفيات (هكذا) الإعراب... ويتحقق شبه التكرار غالباً في مستوى التشكيل الصوتي^(١).

ويمثل الدكتور مصلوح لما ورد من هذا النوع في قصيدة المرقش كما يأتي^(٢):

٥، ٤ أصبحت، أصبرني.
١٣، ٦ الدن، الشن. نش، شن.
٧، ٦ كأن فاهاً، فيها بكاء.
١٨، ١٧ منعة، نعمة.
١٩، ١٨ شقوة، شقة.

ومن وجهة نظر الدكتور مصلوح، يكتسب شبه التكرار - هنا - في المنظور النصي «بعداً خطيراً في تأسيس نصية النص، حين تتجاوز حدوده أسوار الجملة أو الشاهد أو المثال... إلى النظر إليه في النص»^(٣)؛ ومن ثم يصبح وسيلة من وسائل السبك النصي.

٢. التوازي:

ويعرفه الدكتور مصلوح بأنه «نوع من التكرار، ولكنه ينصرف إلى تكرار المباني مع اختلاف العناصر التي يتحقق فيها المبني»^(٤).

ولم يمثل له الدكتور مصلوح من القصيدة لخلوها منه، إلا أن هذا التوازي يتضح جلياً في أبيات الحكمة التي ختم بها زهير معلقته؛ إذ تتكرر الوظائف النحوية

(١) نحو أجرومية للنص الشعري: الصفحة نفسها.

(٢) السابق: ص ١٥٨.

(٣) السابق: ص ١٥٩.

(٤) السابق: ص ١٥٩.

أ) روابط الوصل	Conjunction .
ب) روابط الفصل	Disjunction .
ج) الربط المنعكس	Contra junction .
د) الربط بالتبعية	Subordination .

ولا يتناول الدكتور مصلوح هذه الأنواع بالتوضيح، كما لم يبين مواطنها في قصيدة المرقش، ولعل ضيق المقام كان السبب الرئيسي وراء ذلك الإجمال.

٥. الاستبدال بين الصيغ:

ويقف الدكتور مصلوح عند حدود تبين أن التوافق والتخالف بين المباني مرتبط بمرجعية الضمائر، وإدراكا منه بأنه يجمل دون تفصيل يشير إلى أن كل ذلك «ما يزال في حاجة إلى كلام شديد التحصيل والتفصيل»^(١).

* وسائل الحبك:

لم يفصل الدكتور مصلوح القول في وسائل الحبك، كما فعل في تناوله لوسائل السبك، إلا أنه يمكننا - من خلال فهمنا لكلامه - أن نستنتج وسيلتين هما:

١- العلاقات الضمنية بين المفاهيم:

يقول الدكتور مصلوح: «إذا كان معيار السبك مختصا برصد الاستمرارية المتحققة في ظاهر النص، فإن معيار الحبك يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص Textual world، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم Concepts والعلاقات Relations الرابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجا وإبداعا أو تلقيا واستيعابا، وبها يتم حبك المفاهيم من خلال قيام العلاقات (أو إضافتها عليها إن لم

ومن وجهة نظر الدكتور مصلوح، يكتسب شبه التكرار - هنا - في المنظور النصي «بعدا خطيرا في تأسيس نصية النص، حين تجاوز حدوده أسوار الجملة أو الشاهد أو المثال ... إلى النظر إليه في النص»^(١)؛ ومن ثم يصبح وسيلة من وسائل السبك النصي.

٢. التوازي:

ويعرفه الدكتور مصلوح بأنه «نوع من التكرار، ولكنه ينصرف إلى تكرار المباني مع اختلاف العناصر التي يتحقق فيها المبني»^(٢).

ولم يمثل له الدكتور مصلوح من القصيدة لخلوها منه، إلا أن هذا التوازي يتضح جليا في أبيات الحكمة التي ختم بها زهير معلقته؛ إذ تتكرر الوظائف النحوية مع اختلاف الدلالات المعجمية للمفردات التي شغلت هذه الوظائف، وذلك على مدى أحد عشر بيتا، وتلك البنى النحوية تكررت على الوجه الآتي:

أداة شرط + فعل شرط + جواب شرط

ويتضح ذلك التوازي كذلك في معلقة عمرو بن كلثوم، إذ تتكرر البنى النحوية الآتية على مدى مجموعة من الأبيات كذلك:

و + مبتدأ (ضمير متكلمين) + خبر (اسم فاعل)

يمكننا إذن أن نقول إن (التوازي التركيبي) تكرار لجانب من جانبي «المعنى النحوي الدلالي» هو الجانب التجريدي؛ فإذا ما تم تكرار الجانبين معا عد ذلك «تكرار محضا».

٣. الحذف: Ellipsis

(١) السابق: ص ١٥٩.

(٢) السابق: ص ١٥٩.

(١) السابق: ص ١٥٩.

* وسائل الحبكة:

لم يفصل الدكتور مصلوح القول في وسائل الحبكة، كما فعل في تناوله لوسائل السبك، إلا أنه يمكننا - من خلال فهمنا لكلامه - أن نستنتج وسيلتين هما:

١- العلاقات الضمنية بين المفاهيم:

يقول الدكتور مصلوح: «إذا كان معيار السبك مختصا برصد الاستمرارية المتحققة في ظاهر النص، فإن معيار الحبكة يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص Textual world، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم Concepts والعلاقات Relations الرابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجا وإبداعا أو تلقيا واستيعابا، وبها يتم حبكة المفاهيم من خلال قيام العلاقات (أو إضفائها عليها) إن لم تكن واضحة مستعلنة على نحو يستدعي فيه بعضها بعضا، ويتعلق بواسطته بعضها ببعض» (٢).

فعن طريق (العلاقات) الرابطة بين (المفاهيم) يتم حبكة النص، ولكن ما هي المفاهيم؟ وما هي تلك العلاقات؟

يعرفها الدكتور مصلوح بقوله: «ويمكن تعريف المفهوم Concept بأنه محتوى مدرك Cognitive content، يمكن استعادته أو تنشيطه بدرجات متفاوتة من الوحدة والاتساق في العقل، أما العلاقات Relations فهي حلقات الاتصال بين المفاهيم. وتحمل كل حلقة اتصال نوعا من التعيين للمفهوم الذي ترتبط به؛ بأن تحمل عليه وصفا أو حكما، أو تحدد له هيئة أو شكلا، وقد تتجلى في شكل

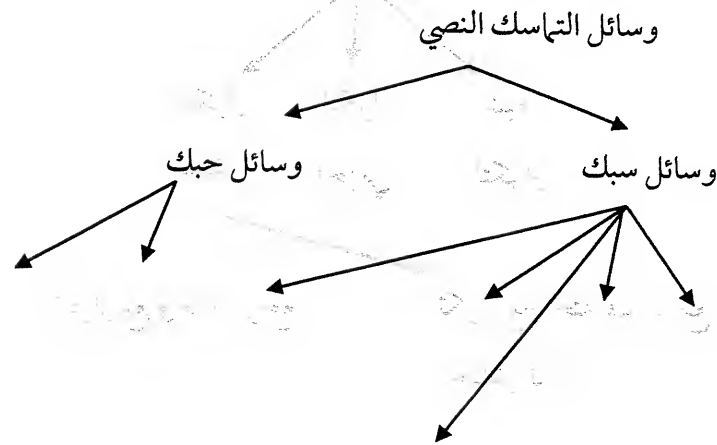
(١) السابق: ص ١٥٩.

(٢) نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٥٤.

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين

يشير الدكتور مصلوح إلى أن ذكر ابنة عجلان في نهاية القسم الأول من أقسام قصيدة المرقش الأصغر «كان شرارة الارتداد إلى الباطن في لحظة لاتقاس بزمان الناس، فبرزت ابنة عجلان من المخزون الذهني النشط لتكون مناط العقل والانفعال وهو ارتداد يبدو فجأة، وما هو بفجأة، إنه ارتداد على سنة استدعاء الضد للضد؛ فالغفلة وفراغ البال وطول النوم من صفات المحبوبة، هي التي أنتجت حديث الأرق والنصب طول الليل والجفن القريح وتغيير جهة الضمير في القسم الثالث. وهذه هي التي أنتجت حديث البكاء على الدهر ومن الدهر في القسم الرابع. وهكذا يبدو منطق التداعي في النفس صادقا ومفهوما على نحو يشكل حركة المفاهيم في عالم النص، ويتجلى من ثم في ظاهر النص» (١). مما سبق يتبين لنا أن الارتداد إلى الظاهر أو الباطن نوع من التداعي الذي يشكل حركة المفاهيم (دلالات الأجزاء والجملة) داخل النص، ويربط بينها؛ فالتداعي وسيلة من وسائل الحبكة النصي.

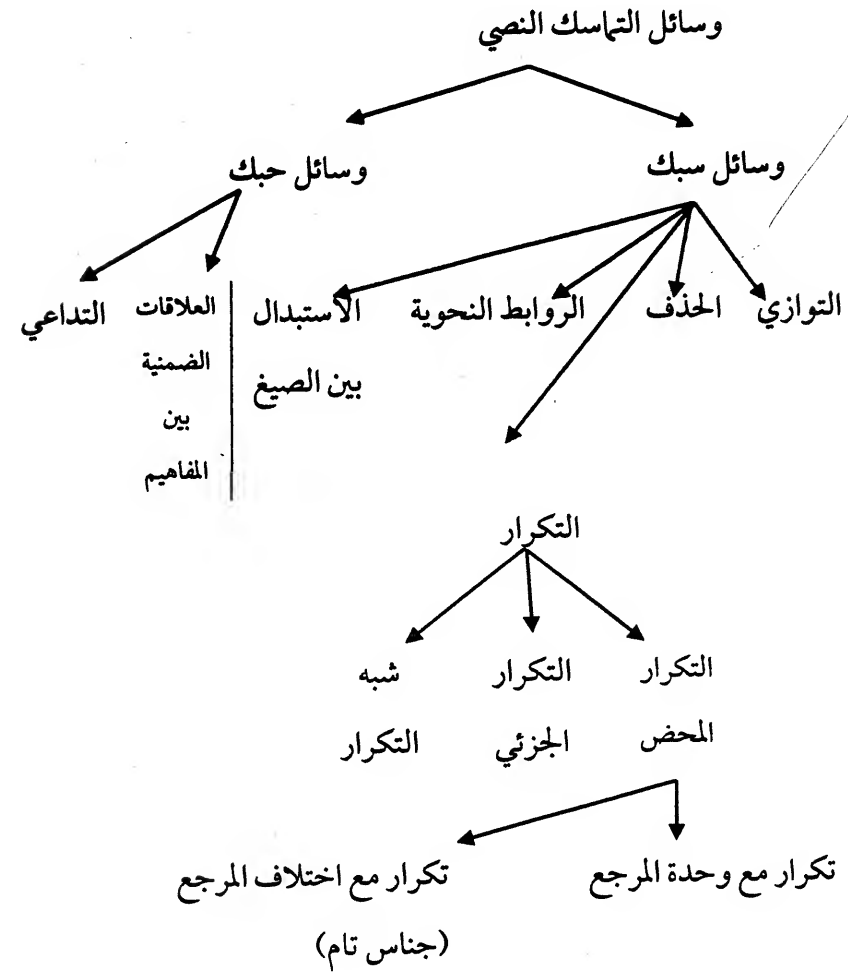
يمكننا توضيح وسائل التماسك النصي عند الدكتور سعد مصلوح - بعد ذلك العرض الموجز - بالمخطط الآتي:



(١) نحو أجرومية للنص الشعري: ص ١٦١.

نوع من التداعي الذي يشكل حركة المفاهيم (دلالات الأجزاء والجمل) داخل النص، ويربط بينها؛ فالتداعي وسيلة من وسائل الحبكة النصية.

يمكننا توضيح وسائل التماسك النصي عند الدكتور سعد مصلوح - بعد ذلك العرض الموجز - بالمخطط الآتي:



٤. التماسك النحوي الدلالي:

يرى الدكتور محمد حماسة أن النص «لا يمكن أن يتنصص إلا بفتل جديدة من البنية النحوية والمفردات»^(١)، ويؤكد هذه الفكرة في موضع آخر فيقول: «والنص اللغوي وحدة متلاحمة من صورته المنطوقة ونظامه النحوي الذي يحكمه، وصورته المنطوقة هي (مفرداته) المصوغة في الجملة... ونظامه النحوي هو الهيئة التركيبية التي توجد عليها هذه المفردات في الجملة»^(٢).

ولا يخفى ما في قوله: «فتل جديدة»، و«وحدة متلاحمة» من تأكيد على أن الأصل في النص اللغوي أن يكون متماسكا تماسكا محكما.

وقبل بيان ذلك التماسك المحكم ووسائله - ينبغي أن نوضح أنه ينظر إلى القصيدة على أنها ليست مجموعة من الجمل المتتابعة، بل هي مجموعة من الأجزاء؛ كل جزء يمثل عنصرا من عناصرها وصورة من صورها، وأنه غالبا ما يكون الجزء الواحد من القصيدة جملة واحدة كبرى، تتكشف عن طريق تقييد أحد عناصرها أو مقيداتها بقيود أخرى^(٣).

أما كيفية تحقق ذلك التماسك في النص الشعري؛ فيرى الدكتور حماسة أن النص يتماسك على مستويين:

أولهما: مستوى أفقي: والمقصود به ترابط الجملة الواحدة في داخلها بواسطة العلاقات النحوية المعروفة على مستوى الجملة (علاقات الإسناد ومتعلقاته) من

(١) اللغة وبناء الشعر: ص ٧.

(٢) النحو والدلالة: ص ١٦٦.

(٣) انظر: اللغة وبناء الشعر: ص ٣٧، ٣٨.

الابتدائية والخبرية في الجملة الاسمية، والفعلية والفاعلية في الجملة الفعلية، إلى آخره^(١).

ثانيهما: مستوى رأسي: والمقصود به ترابط أجزاء القصيدة فيما بينها^(٢).

وهذا التماسك النصي ليس تماسكا كيفما جاء واتفق، بل هو - كما يرى الدكتور حماسة - ضربان^(٣):

أحدهما: بنية لفظية ويقصد به (التماسك النحوي).

والآخر: بنية معنوية ويقصد به (التماسك الدلالي).

«فالقصيد كله نص واحد، ولا بد - بحكم كونها نصا واحدا - أن يكون بين أبياتها تماسك نحوي دلالي، وكل منها له وسائله اللغوية التي يستعملها لأداء وظيفته»^(٤).

فهناك إذن تماسك نحوي دلالي على المستوى الأفقي، و تماسك نحوي دلالي على المستوى الرأسي.

أما التماسك النحوي الدلالي على المستوى الأفقي فيتم بين مكونات الجملة الواحدة، وقد خصص الدكتور حماسة لدراسة الجملة كتابا كاملا أسماه (بناء الجملة العربية)، وجعل فصلا كاملا منه خاصا بـ «ترابط أجزاء الجملة ووسائله»^(٥) تحدث فيه عن الترابط بين عنصري الإسناد، ثم كيفية ترابط العناصر غير الإسنادية، ثم ترابط الترتب. ويبيّن أن العناصر غير الإسنادية تترابط بأحد عنصري الإسناد وتدور في

(١) السابق: ص ٣٢، ٣٣، والجملة في الشعر العربي: ص ٧١، ٧٢.

(٢) اللغة وبناء الشعر: ص ٣٨، والجملة في الشعر العربي: ص ٧٢.

(٣) الجملة في الشعر العربي: ص ١٩١.

(٤) الجملة في الشعر العربي: ص ١٩٠.

(٥) انظر: بناء الجملة العربية: الفصل الثاني: ص ٧٤ - ١٨٣.

التماسك النصي بين القدماء والمحدثين

فلكه، وأن الجملة الواحدة قد تطول طولا عظيما عن طريق تلك المكملات (المقيدات) لتكون جزءا من أجزاء النص، ومثل لذلك بأجزاء من قصائد قديمة، نذكر منها تمثيله بجزء من معلقة طرفة حيث يقول: «وفي البيت الحادي عشر من هذه القصيدة بدأ جملة ظلت تستطيل حتى نهاية البيت الثامن والثلاثين من القصيدة». وإذن صارت هذه الجملة الواحدة الطويلة وحدها ثمانية وعشرين بيتا، أي أكثر من ربع أبيات القصيدة، وليس غريبا أن تكون هذه الجملة الطويلة في وصف الناقة التي يمضي بها الهم عند احتضاره. يقول طرفة:

وَإِنِّي لَأَمْضِي أَلْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ * * * بِعَوَجَاءِ مَرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
..... * * * (الآيات)^(١)

وبعد أن يورد هذه الآيات يعلق قائلا: «ولم ينس طرفة - مع طول هذه الجملة - ما قاله في صدرها: (وإنني لأمضي الهم عند احتضاره...)، فقال بعد نهاية هذه الجملة الطويلة: (على مثلها أمضي إذا قال صاحبي....)، فربط أول الجملة بما بعدها ليشعر قارئه بأن هذا كله جملة واحدة وصف فيها ناقته»^(٢).

وأما التماسك النحوي الدلالي على المستوى الرأسي فيورد الدكتور حماسة مجموعة من الوسائل تحقق ذلك التماسك؛ فيجمل القول في مواضع ويفصله في مواضع آخر، ويمكننا أن نجتمع هذه الوسائل فيما يلي^(٣):

١. التدرج والانتقال في الدلالات الزمنية:

(١) السابق: ص ٣١٣.

(٢) السابق: ص ٣١٧.

(٣) انظر: اللغة وبناء الشعر: ص ٣٨، ٣٩. والإبداع الموازي: ص ١٧٧، ١٩٠، وانظر: أمثلة تطبيقية في موضعه من الكتاين المشار إليهما.

وذلك على مستوى القصيدة كلها، وهذه الدلالات تنبع من:

أ) دلالة صيغ الأفعال: (فعل - يفعل - افعل).

ب) الأدوات الداخلة على الجمل وتحمل دلالة على الزمن، وكذا الداخلة على بعض عناصر الجمل.

ج) ظروف الزمان: (أمس - غدا - ليلا ... إلخ).

د) الكلمات الدالة على الزمن وتشغل وظيفة غير الظرفية: (يوم - شهر - ليلة ... إلخ).

٢. الضمائر:

وتقوم بدور في التماسك النصي من حيث الإحالات المتطابقة أو غير المتطابقة، أو التبادل بين الظاهر والمضمر، أو العكس.

٣. توازي الجمل الفرعية أو تجاورها مع الجملة المحورية (جملة الانطلاق):

ويشير الدكتور حماسة إلى أن «هذه الجملة المحورية تأخذ صورا شتى قد تتنوع

بتنوع النصوص نفسها، منها ما نجده في قصيدة أبي ذؤيب الهذلي التي مطلعها:

أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَبِّهَا تَوَجَّعُ
وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مَنْ يَجْزَعُ

حيث تبدأ القصيدة في البيت السادس عشر منها بجملة هي: (والدهر لا يبقى على

حدثانه)، وتنوع فاعل الفعل (لا يبقى) تنوعا محسوبا، تستمر القصيدة في وصفه

بصفات شتى، حتى ينتهي نهاية مفاجئة في كل مرة.

جَوْنُ الشَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَزْيَعُ (١٦)

شَبَبٌ أَفَزَتْهُ الْكِلَابُ مُرَوَّعُ (٣٧)

مُسْتَشْعِرٌ خَلَقَ الْحَدِيدَ مُقَنَّعُ (٥١)

- وَالدهر لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ

... كل فاعل من هذه الثلاثة يلقي النهاية نفسها، وهي الموت بعد مجالدة طويلة»^(١).

٤. التوازي التركيبي:

مثال ذلك أبيات الحكمة في نهاية معلقة «زهير بن أبي سلمى»، حيث صيغت

في صياغة نحوية واحدة هي أسلوب الشرط ذو الأداة الواحدة (مَنْ) فتماثلت هذه

الجمل، وتوازت تراكيبها النحوية (البنية العميقة) على هذه الصورة:

أداة شرط (في الغالب «مَنْ») + فعل شرط + جواب شرط

٥. التكرار:

وظاهرة التكرار تأخذ أشكالا مختلفة، منها:

أ - التكرار الصوتي. ب - التكرار الصرفي. ج - التكرار التركيبي.

د - التكرار الجُملي. هـ - تكرار البنية العميقة.

٦ - دلالة المفردات:

وذلك بأن تنتمي المفردات إلى حقل دلالي واحد، أو متقارب، أو متضاد؛

ومن ذلك أسماء الزمان، والأفعال وصيغها وتقييدها، والنعوت المتكررة، وأسماء

الأعلام، وأسماء الإشارة ... إلخ.

(١) الإبداع الموازي: ص ١٧٩ - ١٨٠.

٧- «المرتکز الضوئي» أو «موضوع النص»^(١):

يشير الدكتور حماسة إلى أنه في كل قصيدة «نقطة ارتكاز ضوئي» تكشف بنية القصيدة كلها، وعلى المتلقي أن يعاود قراءة القصيدة حتى يمسك بالخيط الذي يوصله إلى البنية العميقة لها (يعني البنية الدلالية للنص).

بعد هذا العرض الموجز يتبين لنا أن أستاذنا الدكتور محمد حماسة ينظر إلى النص على أنه وحدة متماسكة نحويًا ودلاليًا، وأن هذا التماسك يتحقق على مستويين: المستوى الأفقي (بين أجزاء الجملة)، والمستوى الرأسى (بين أجزاء النص).

الفصل الخامس

من وسائل التماسك النصي

(١) انظر: اللغة وبناء الشعر، ص ٧٦.

* مدخل:

إن التناول الحقيقي للتماسك النصي ووسائله لن يؤتي ثماره إلا إذا اعتمدنا على النص، وفهمنا طبيعة بنائه ثم انطلقنا منه. وقد انتهينا في الفصول السابقة إلى أن النص - بوصفه حدثاً لغوياً - يتحقق بواسطة التفاعل المستمر بين المفردات بدلالاتها المعجمية مع الوظائف النحوية التي تشغلها. وعن طريق الاختيار الدقيق بين هذه المفردات وتلك الوظائف ينتج المعنى الذي هو مقصود اللغات، ويكون إما حقيقياً أو مجازياً.

وهذا المعنى هو ما اصطُِّلِحَ عليه بـ «المعنى النحوي الدلالي»، وتأكد لنا أن النص «حدث لغوي متماسك نحويًا ودلاليًا» على مستويين: المستوى الأفقي والمستوى الرأسّي.

ولما كان المستوى الأفقي يختص ببيان الترابط بين أجزاء الجملة، ولما كان النحاة قد أفاضوا في ذلك حتى غصّت المكتبة العربية النحوية بدراسات (نحو الجملة)، لما كان هذا كله كان من مُعاد القول أن نتناول (الترابط على مستوى الجملة)؛ لذا انصرف حديثنا في هذا الفصل إلى بيان (وسائل التماسك على المستوى الرأسّي «بين أجزاء النص»).

وبناء على فهم النص على أنه وحدة نحوية دلالية متماسكة، فسوف نتحدث عن:

١. وسائل التماسك النحوي (على المستوى السطحي للنص).

٢. وسائل التماسك الدلالي (على المستوى العميق للنص).

مستفيدين مما قدمه علماءنا القدماء والمحدثون، وعلماء النص الغربيون - من وسائل تعمل على تماسك أجزاء النص. مع الأخذ في الاعتبار أن عملنا في هذا الفصل ليس عملاً وصفيًا إحصائيًا، إنما هو عمل تأويلي في المقام الأول، وبعبارة أخرى: يعد حديثنا عن وسائل التماسك النصي ضربًا من التأويل النصّي.

Cohesion من وسائل التماسك النحوي

١. الإحالة:

ونُعنى هنا بـ «الإحالة الداخلية»، وهي التي يحيل فيها عنصر لغوي لاحق إلى عنصر آخر سابق في النص، بجميع ما أسند إلى المحال إليه من أحداث، وما قيده من مقيدات.

وتقوم الإحالة على ركنين كبيرين لهما دورهما الفعال في تماسك أجزاء النص، هما: الضمائر وأسماء الإشارة.

أما الضمائر فقد أكد الباحثون أنها جوهرية للغاية من أجل إثبات تأثير البنية النحوية في بناء النص الشعري وتماسكه؛ حتى إن «إيزنبرج» قد عد الإضمار الوسيلة الحاسمة في بناء النص، فنظر إلى الجمل التي يرتبط بعضها ببعض بسلاسل إضمار على أنها تكون نصاً، وأنه عندما يُستبدل الإضمار يبدأ نص جديد^(١).

وقد تعرضنا - من قبل - لتناول الدكتور محمد حاسة جملة «طرفة» الطويلة التي وصف فيها ناقلته، والتي احتلت ثمانية وعشرين بيتاً (أكثر من ربع القصيدة)، وكيف أن طرفة لم ينسَ في آخرها أن يحيل بالضمير في قوله: «على مثلها أمضي...» إلى تلك الناقة المذكورة في أول الجملة في قوله: «وإني لأمضي لهم ... بعوجاء...»؛ ليربط أول الجملة بآخرها، ويشعر القارئ بأن هذا كله جملة واحدة^(٢).

(١) انظر: تحليل النص الشعري، لوثمان: ص ١٢١، ١٢٣، ومدخل إلى علم اللغة النصي: ص ٢٧، ٢٨، وبلاغة الخطاب وعلم النص، ٥. صلاح فضل: ص ٢٦٨.

(٢) انظر: بناء الجملة العربية: ص ٣١٧.

من وسائل التماسك النصي

وقد تتضافر مجموعة من الضمائر لتحيل إلى شيء واحد في القصيدة؛ فتتماسك كل الجمل التي احتوت تلك الضمائر مع ذلك المحال إليه تماسكاً محكماً، وقد يتحقق ذلك على مستوى جزء من أجزاء النص؛ كما في جميع الأجزاء التي تتناول وصف الفرس أو الناقة أو المحبوبة... في المعلقات، وعلى سبيل المثال في قول امرئ القيس:

٧٠. أَصَاحُ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِیْضَهُ (إلى آخر القصيدة)

تحيل مجموعة من الضمائر إلى كلمة (برقا) على مدى أحد عشر بيتاً:

(٧٠) / وميضه، ٧١ / يضيء سناه، ٧٢ / قعدت له، ٧٣ / أيمُنْ صوبه وأيسره، ٧٤ / فأضحى (هو) يسحُ (هو).. يكبُ (هو)، ٧٥ / من نفيانه.. فأخرج (هو)، ٧٦ / لم يترك (هو)، ٧٧ / عرائن وبله، ٧٩ / وألقى (هو).. بعاعه، ٨١ / فيه.. بأرجائه.

وبذلك يتكوّن من هذه المجموعة من الأبيات جزء متماسك تماسكاً محكماً عن طريق تلك الإحالة.

وقد تتحقق الإحالة بالضمائر على مستوى النص كله فتتماسك بذلك أجزاؤه تماسكاً نحوياً محكماً، وتصبح القصيدة كأنها أفرغت إ فراغاً واحداً؛ والناظر في معلقة عنتره بأجزائها السبعة التي قسمناها إليها تبعا لحركة الضمائر - يجد الضمائر فيها تحيل إما إلى الشاعر، أو إلى المحبوبة، أو إلى شيء يتصل بالشاعر أو بالمحبوبة، أو بهما معا.

يتأكد ذلك للناظر في مطلع كل جزء فضلا عن بقية أبيات الجزء؛ إذ يحتوي مطلع الجزء الثاني على الضميرين معا (١٣ / إذ تستييك [هي])، وكذلك مطلع الجزء الثالث (٢٢ / هل تبلغني دارها..)، وكذلك مطلع الجزء الرابع (٣٥ / تغدفي دوني)، وكذلك مطلع الجزء الخامس (٥٩.. حلت [هي].. حرمت [هي] علي..)، وينفرد الجزء السادس بالإحالة إلى الشاعر دون المحبوبة؛ لأن الحديث حديث حرب، فهو من

خصوصيات الرجال (٦٣ / نبئت)، ثم يأتي الجزء السابع والأخير ليحيل إليهما معا (٧٨ / إني عداني أن أزورك..)؛ لتكتمل بذلك القصيدة، وتصبح كالدائرة من أي نقطة انطلقت أحالتك الضمائر إلى مطلعها (الجملة المنطوق) حيث «عبله» بالبيت الثاني، و«الشاعر» الذي يخاطب نفسه على سبيل التجريد (١ / عرفت..) بالبيت الأول.

وتقوم أسماء الإشارة بالدور الإحالي نفسه الذي تقوم به الضمائر، فيتماسك النص - بواسطتها - وترابط مجمله مكونة جزءا طويلا من أجزاءه. يؤكد ذلك أن ظهور اسم الإشارة (فتلك) - في البيت الثالث والخمسين من معلقة ليبد - قد أحال إلى الناقة في البيت الثاني والعشرين؛ ليجمع بذلك الأبيات الواقعة بينهما في جزء واحد متماسك، ويؤكد أنه لا أتان حقيقية (٢٥ - أو مُلْمِعٌ وَسَقَتْ..)، ولا بقرة وحشية حقيقية (٣٦ - أفتلك أم وحشية..). كذلك، وإنما هناك شيء واحد هو تلك الناقة (٢٢ - بطليح أسفار..) التي ارتبطت بالجملة الرئيسية (٢٠ - فاقطع لبانة من تعرّض وصله..) في أول أبيات هذا الجزء.

وبذلك يكون اسم الإشارة قد جمع تلك الصور المختلفة (صورة الناقة - صورة الأتان - صورة البقرة الوحشية)، ونسق بينها مكونا منها بناء فنيا محكما، هو ذلك الجزء الطويل من أجزاء القصيدة الذي بلغ أربعة وثلاثين بيتا؛ أي أكثر من ثلث القصيدة.

٢. أدوات التشبيه:

تعدّ الكاف التشبيهية الجارة أبرز أدوات التشبيه التي تربط أجزاء الجملة الواحدة، ولا تقف وظيفتها عند هذا الحد؛ إذ إن لها دورا كبيرا في تماسك أجزاء

النص، فتجد الكاف التشبيهية يُؤتَى بها في مطلع جزء من أجزاء النص؛ لتربط مضمونه بمضمون الجزء السابق، مثال ذلك قول امرئ القيس:

٧. كَذَابِكَ مِنْ أُمِّ الْخَوَيْرِثِ قَبْلَهَا ** وَجَارِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

فالكاف هنا وقعت في صدر الجزء الثاني من أجزاء المعلقة، لتربط مضمونه بالجزء الأول؛ وليقف الجزءان من بعضهما موقف المشبه من المشبه به.

لكن التشبيه يلزمه أن يجمع المشبه مع المشبه به «جامع دلالي» هو «وجه الشبه» الذي يسوّغ ذلك الربط بالكاف.

وقد احتوى الجزءان على ذلك الجامع؛ وهو أن التجربة التي خاضها الشاعر مع محبوبته في الجزء الأول قد انتهت برحيلها ولم يملك الشاعر أمام ذلك سوى البكاء، ونحو ذلك حدث في التجارب التي سبقت هذه التجربة (زمنيا) وتلتها في الذكر بالمعلقة (الجزء الثاني)؛ إنها تجاربه مع مَنْ كانوا قبلها (أم الخويرث وأم الرباب). فما يحدث الآن من رحيل المحبوبة المذكورة في أول القصيدة لم يكن جديدا، فقد سبقه ما يشبهه حتى أصبح ذلك (رحيل المحبوبة في مقابل بكائه) دأب الشاعر وعادته؛ لذا ينتهي «الجزء الثاني» بالدموع كما انتهى «الجزء الأول».

لقد ربط امرؤ القيس بين تجاربه المؤلمة مع المرأة - لما تشابهت نهايات تلك التجارب - بالكاف التشبيهية الجارة؛ ليتأكد التماسك النصي بين تلك الأجزاء المتشابهة.

٣. حروف العطف:

لحروف العطف دور أساسي في ترابط أجزاء الجملة، وكذلك أجزاء النص؛ ذلك «أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعتمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضها على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك»^(١).

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٤٥.

وهذا في المعلقة كثير، وبخاصة عندما يريد أن يعدد الشاعر شيئاً ما ويروح يُحصيه؛ يتضح ذلك في التسعة عشر بيتاً الأخيرة من معلقة الحارث بن حلزة التي تمثل الجزء الأخير منها، حيث راح الشاعر يعدد ويحصى «آيات الولاء وسوابق الفضل التي توجب لقومه - في مثل هذا الموقف - القضاء»^(١). ذلك بعد أن فرغ - في الأجزاء السابقة - من دحض موقف الخصم؛ حتى يوغر صدر عمرو بن هند عليهم، ويبدو أن ما يريده قد تحقق أو كاد، فاتجه في هذا الجزء إلى إحصاء تلك الآيات.

وقد فطن الشاعر إلى أن إحصاء الآيات وعدّها يحتاج بالضرورة إلى حروف العطف وبخاصة (الواو)؛ فجاء هذا الجزء معتمداً في بنائه على حروف العطف، وأدّت (الواو) من بين حروف العطف دوراً كبيراً في تماسك أجزاء هذه الأبيات. يقول الحارث بن حلزة:

أَيُّهَا الشَّانِي الْمُبْلَغُ عَنَّا	**	عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِدَاكَ أَنْتِهَاءُ
مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَكْمَلُ مَنْ يَمُ	**	شَيْءٍ وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الشَّنَاءُ
إِرْمِي بِمِثْلِهِ جَالَتِ الْجِ	**	زُنْ فَأَبَتْ لِحُضْمِهَا الْأَجْلَاءُ
مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا	**	تْ ثَلَاثٌ فِي كُلِّ هِنِّ الْقَضَاءِ
١ آيَةٌ: شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا	**	ءُوا جَمِيعًا لِكُلِّ حَيٍّ لَوَاءُ
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْتَمِينَ بِكَبْشٍ	**	قَرِظِي كَأَنَّهُ عَابِلَاءُ
وَصَيِّتٍ مِنَ الْعَوَاتِكِ مَا تَدُ	**	هَاءُ إِلَّا مُبَيَّضَةً رَعْلَاءُ
فَجَبَّهَنَاهُمْ بِضَرْبٍ كَمَا يَخْرُجُ	**	مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءُ
وَحَمَلْنَاهُمْ عَلَى حَزْمٍ نَهْلَا	**	نَ شِلَالًا وَدُمِّي الْأَنْسَاءُ

(١) جماليات القصيدة الجاهلية، د. صلاح رزق: ص ٢٨٣.

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ اللَّ	**	هُ وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ
٢. ثُمَّ حُجِرَا أَعْنِي إِبْنِ أُمِّ قَطَامٍ	**	وَلَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضَّ رَاءُ
أَسَدٌ فِي اللَّقَاءِ وَرَدُّ هُمُوسٍ	**	وَرَبِيعٌ إِنْ شَنَنْتَ عَبرَاءُ
فَجَبَّهَنَاهُمْ بِطَعْنٍ كَمَا تُنْ	**	هَزُّ عَنْ جَمَّةِ الطَّوِيِّ الدَّلَاءُ
وَفَكَّكْنَا غِلَّ امْرِئِ الْقَيْسِ عَنْهُ	**	بَعْدَ مَا طَالَ حَبْسُهُ وَالْعَنَاءُ
وَأَقْدَنَاهُ رَبَّ عَسَانَ بِالْمُنْ	**	ذِرِ كَرِهًا إِذْ لَا تُكَالُ الدَّمَاءُ
وَقَدِينَاهُمْ بِتِسْعَةٍ أَمَلَا	**	لِكَ نَدَامَى أَسْلَابِهِمْ أَغْلَاءُ
وَمَعَ الْجَوْنِ جَوْنِ آلِ بَنِي الْأَو	**	سِ عُنُودٌ كَأَنَّهُمْ دَفَوَاءُ
مَا جَزَعْنَا تَحْتَ الْعِجَاجَةِ إِذْ وَ	**	لَّتْ بِأَقْفَائِهَا وَحَرَ الصَّلَاءُ
٣. وَلَوْلَدْنَا عَمْرُوبَيْنِ أُمِّ أَنْاسٍ	**	مِنْ قَرِيبٍ لَمَّا أَتَانَا الْجِبَاءُ
مِثْلَهَا تُخْرِجُ النَّصِيحَةَ لِلْقَو	**	مِ قَلَاءُ مِنْ دُونِهَا أَفْلَاءُ ^(١)

هناك إذن ثلاث آيات لقوم الشاعر توجب له القضاء:

أولها: حين جاء بنو الشقيقة بكبش ... وصتيت من العواتك ...، إن الشاعر هنا يريد أن يعمق ويؤكد مدى تجمع هؤلاء القوم؛ فقيّد الجملة بقوله (جميعاً)، ثم قيد بالجار والمجرور (بكبش: آلة حربية تُقذف بها الحصون)، ثم عطف عليها

(١) الشانئ: المبغض، إرمي: منسوب إلى إرم وهو جد عاد، الشقيقة: أرض صلبة بين رملتين، وشارق: من الشروق وهو الطلوع والإضاءة، مستلتمين: يلبسون اللأمة وهي الدرع، كبش: سيد القوم، الصتيت: الجماعة، العواتك: الشواب الحرائر الخيار من النساء، الحزم: أغلظ من الحزن، ثهلان: مكان بعينه، حُجِر: قائد كتيبة ذات دروع فارسية، أقْدَنَاهُ: أعطيناه القود، عنود: كتيبة شديدة العناد، عمرو بن أم أناس: يعني عمرو بن هند، ويعني أنهم زوجوا أمه من أبيه لما أتاهم مهرها فهم أخواله.

(صتيت ...). بالواو؛ ليؤكد كثرة هذه الجماعات وتنوعها، وليبين مدى قوتها، ثم ليتحقق الترابط بين أجزاء الجملة بهذا العطف.

إن هذه القوة وتلك الجماعات تحتاج إلى رد فعل قوي رادع، وما دامت قد تنوعت قوتهم وتراكمت، كان لابد من أن يأتي رد الفعل - الذي هو دور قوم الشاعر - متنوعا كذلك؛ كي تتضح مدى قوتهم التي استطاعت أن ترد تلك الجموع الغاشمة. لهذا كله يستخدم الشاعر (فاء السرعة) التي تجسد مدى استجابتهم، وعدم تقاعسهم عن نصره عمرو بن هند وأخوته:

- فَجَبَّهْنَاهُمْ بِضَرْبٍ

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد توالى مجموعة من الأحداث، استطاع الشاعر أن يربط بينها مستخدما حرف العطف (الواو):

- وَحَمَلْنَاهُمْ ...

- وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ ...

فاستطاع الشاعر باستخدامه (الواو العاطفة) أن يرسم صورة متماسكة، تبين دورهم في مواجهة تلك القوى المجتمعة.

ثم يعطف الآية الثانية على الأولى بـ (ثم) التي تقتضي الترتيب مع التراخي: (ثم حُجِّرًا ...). لتوحي بوجود مساحة زمنية بين الآيتين، ولتشير من طرف خفي إلى أن قوم الشاعر لم يتقاعسوا عن نصره عمرو بن هند وأخوته، برغم مرور الزمان وتغيُّر الأحوال، وعن طريق هذا الحرف (ثم) تمَّ الترابط بين تلك الأحداث المتباعدة زمنياً (الآية الأولى والثانية)؛ لتتآلف وتتجانس وتتجاور في نص لغوي واحد، بل في جزء واحد من أجزاء ذلك النص.

ويستخدم الشاعر (فاء السرعة) مرة أخرى: (فجبهناهم بطعن ...). ليؤكد أن موقفهم لم يتغير فحسب، بل لم تتغير درجة حماسهم وسرعتهم في نصره عمرو بن هند وأخوته. ثم تتوالى الأحداث مترابطة بـ (الواو العاطفة):

- وَفَكَّكْنَا غِلَّ امْرِئِ الْقَيْسِ

- وَأَقْدَنَاهُ

- وَفَدَيْنَاهُمْ

- وَمَعَ الْجَوْنِ ... عَنُودٌ كَأَنَّهَا دَفَوَاءُ

- مَا جَزَعَنَا

لتترابط هذه الأبيات مؤلفة صورة أخرى من صور نصرتهم، ولتؤكد مدى قوتهم، وشدة بأسهم؛ حتى إنهم - في نهاية الأمر - ما وقع في قلوبهم الجزع من تلك الكتيبة الـ (عنود) أي: المحكمة التي تثير الجزع والهلع في النفوس.

ثم تأتي الآية الأخيرة متماسكة مع الآيتين السابقتين « بالواو العاطفة »:

(وولدنا عمرو بن أم أناس ...) لتُختم القصيدة بذلك الإيقاع الهادئ، فيما يشبه الرضا بالنتيجة التي ستحققها كل تلك الحجج والبراهين.

وهكذا، ترابطت أجزاء كل آية فيما بينها بالواو العاطفة، ثم تماسكت تلك الآيات الثلاث عن طريق عطف الآية الثانية على الأولى بـ (ثم)، ثم يعطف الآية الثالثة على الثانية (بالواو).

ثم إن هذه الآيات الثلاث مجتمعة تُعدُّ تفصيلاً لذلك الإجمال في قوله: (مَنْ لَنَا عِنْدَهُ ... آيات ثلاث ...) في البيت السابق على هذه الأبيات مباشرة. أما الضمير في قوله: (عنده) فيحيل إلى (عمرو) في مطلع ذلك الجزء:

أَيُّهَا الشَّانِي الْمُبْلَغُ عَنَّا ** عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِدَاكَ أَنْتِهَاءُ

وبذلك تماسكت أجزاء ذلك الجزء - من معلقة الحارث - فيما بينها بواسطة «حروف العطف»، ثم تأكد ذلك التماسك بالتفصيل بعد الإجمال (وهو رابط دلالي)، ثم بالإحالة بالضمير.

٤. التوازي التركيبي:

التوازي التركيبي يعني أن تتكرر الوظائف النحوية للجملة (البنية العميقة) مع اختلاف المفردات التي تشغلها.

وقد يتم التوازي التركيبي على مستوى جزء من أجزاء النص؛ فيعمل على تماسكه، وإن استقل كل بيت من أبيات ذلك الجزء بمعناه الخاص؛ مثال ذلك ما أورده الدكتور محمد حماسة من أبيات الحكمة في نهاية معلقة زهير، وقد أشرت إليها من قبل غير مرة؛ حيث تكررت البنية العميقة الآتية:

(أداة شرط + فعل شرط + جواب شرط)

على مدى ثلاثة عشر بيتاً؛ فعملت على تماسكها، وبناء جزء من أجزاء النص.

مثال آخر من معلقة عمرو بن كلثوم حيث تتكرر البنية النحوية الآتية:

واو استثنائية + مبتدأ (نحن) + خبر (اسم فاعل)

وَنَحْنُ عِدَاةٌ أَوْقَدَ فِي خَزَايَ	**	رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا
وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذِي أَرَاطَى	**	تَسَفُّ الْجِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا
وَنَحْنُ الْحَاكِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا	**	وَنَحْنُ الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
وَنَحْنُ النَّارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا	**	وَنَحْنُ الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا

(*) الرشد: الإعانة، خزاي: موضع بعينه، وهو يفخر بإعانة قومه بني مزار في محاربتهم اليمن،

الجلة: الكبار من الإبل، الخور: الكثيرة الألبان، الدرين: ما أسود من النبت وقدم.

وذلك في الجزء الرابع من أجزاء المعلقة؛ حيث يقول:

فتكرار تلك البنية النحوية العميقة «التوازي التركيبي» عمل على تماسك هذه الأبيات؛ على الرغم من أن الشاعر قد استأنف ست مرات. وأكد ذلك الترابط النحوي أن الأبيات تسير في إطار دلالي واحد، هو التأكيد على قصر هذه الأفعال عليهم دون غيرهم.

ويعود عمرو بن كلثوم مرة أخرى في «الجزء السادس» ليوازي بين التراكيب - بنفس الطريقة السابقة - على مدى أربعة أبيات، وقعت في إطار (المفعول الثاني) للفعل «علم» في البيت السابق على هذه الأبيات (مطلع الجزء السادس):

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ ** إِذَا قُبِّ بِأَبْطَحِهَا بَيْنِنَا
بِأَنَا الْمُطْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ** وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
وَأَنَا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا ** وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وَأَنَا النَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا ** وَأَنَا الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا
وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ** وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

لقد توازت التراكيب بنفس الطريقة السابقة، لكنه أكد الإسناد هذه المرة، فجاء بالضمير (نا) اسماً لـ (أن)، بدلاً من الضمير (نحن)؛ ومن ثم كانت البنية العميقة لتلك التراكيب المتوازية كما يلي:

أن + اسم أن (نا) + خبرها (اسم فاعل)

إن الشاعر - هنا - يكرر البنية مؤكداً الإسناد ليعمق تلك الدلالة السابقة في الجزء الرابع، والتي تشيع في النص كله، ألا وهي قصر كل تلك الأفعال - المشار

إليها - عليهم دون غيرهم، وكأنه - بمفهوم المخالفة - يسلبها من خصومهم «بني بكر».

إن هذا «التوازي التركيبي» قد عمل على تماسك تلك الأبيات وتربطها فيما بينها، ثم ربط بين الجزء الرابع والسادس. ولا شك أن القصيدة كلها مترابطة بوسائل أخرى يضيق المقام عن ذكرها هنا، وتكفي نظرة سريعة إلى حركة الضمائر على مستوى النص ليتأكد لنا مدى تماسك أجزائه، وبخاصة الضمائر التي تميل إلى قوم الشاعر «التغليبين»، والتي تميل إلى المخاطبين «بني بكر».

وربما لا يكون «التوازي التركيبي» ظاهراً؛ فيحتاج - إذن - إلى أناة في تناول النص وملاحظة بنيته النحوية؛ وذلك عندما تتوازي مطالع الأجزاء تركيباً دون بقية الأبيات، ويزيد الأمر خفاءً عندما تطول هذه الأجزاء وتتعدد وتتباعده. حدث ذلك في معلقة امرئ القيس؛ إذ توازت مطالع الجزء الثاني والجزء الرابع والجزء الخامس - تركيباً على الصورة الآتية:

١٠. رَبِّ + مجرورها. (مطلع الجزء الثاني).

٢٣. وَاوَرَبَّ المحذوفة + مجرورها. (مطلع الجزء الرابع).

٤٤. وَاوَرَبَّ المحذوفة + مجرورها. (مطلع الجزء الخامس).

وذلك في الأبيات الآتية على الترتيب:

١٠. أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ ** وَلَا سَيِّمًا يَوْمَ بِدَارَةِ جُلْجُلٍ

٢٣. وَيَبْضِئُ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا ** تَمْتَعْتُ مِنْ هُوِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ

٤٤. وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ** عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لَيْتَلِي

والناظر في مواقع هذه الأبيات من القصيدة يجد أنها متباعدة، كما يوضح الترقيم على يمين كل بيت، لكنها برغم كل هذا التباعد قد صُبَّت في قالب نحوي

واحد هو «التوازي التركيبي»، فتماسكت أجزاؤها (أجزاء هذه الأبيات) لما توازت تلك المطالع تركيباً.

٥. التقابل التركيبي:

«التقابل التركيبي» هو ما اصطلاح عليه الدكتور محمد مفتاح بـ «التباين»^(١)، وهو يعني أن يُبنى النص على مجموعة من التقابلات التركيبية مثل:

- الخبر × الإنشاء.

- الجملة الاسمية × الجملة الفعلية.

- الإثبات × النفي.

- الخطاب × الغيبة.

وعن طريق تلك التقابلات التركيبية تتماسك أجزاء النص وتترابط؛ ذلك لأن «القواعد النحوية التي تُستخدم في اللغة العامة استخداماً عفوياً، وربما دون وعي، تتحول في الشعر، وعلى قلم المبدع، إلى بنية ذات مغزى؛ ومن ثم تحظى بما لم يكن معتاداً فيها من طاقة تعبيرية، وما ذلك إلا بفضل اندراجها فيما ليس معتاداً من التقابلات»^(٢).

ويتضح دور «التقابل التركيبي» في تماسك أجزاء النص عندما تتقابل مطالع الأجزاء (الجميل الأولى)؛ يبدو ذلك جلياً في معلقة ليبيد؛ فالناظر في هذه المعلقة يجد أنها قد بُنيت على مجموعة من التقابلات، وليس ذاك بمستغرب، إذ المعلقة تبدو مقابلة بين الشاعر ومحبوبته.

(١) انظر: تحليل الخطاب الشعري: ص ٧١.

(٢) تحليل النص الشعري، لوتمان: ص ١١٢.

تبدأ المعلقة بالأسلوب الخبري التقريري الذي يحمل كثيرا من معاني الحسرة:

- عَفَّتِ الدِّيَارُ

ثم يأتي الجزء الثاني ردَّ فعلٍ قوياً لرحيل المحبوبة، فاقتضى ذلك أن يقابل الجزء الأول تركيباً كما قبله دلالياً؛ فجاءت الجملة التي انطلق منها الجزء الثاني جملة إنشائية، حيث احتوت على فعل الأمر المسبوق بفاء السرعة؛ فالشاعر - هنا - يأمر نفسه أن تتخذ موقفاً إيجابياً، يقابل تلك السلبية التي غلّفت الجزء الأول:

- فاقطعُ لُبَّانَةً مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ ...

وعن طريق ذلك «التقابل التركيبي» يتماسك الجزءان، ويقف كل منهما بجوار الآخر، ليوضح موقفاً مناقضاً له.

ويأتي الجزء الثالث ليعمق دلالة الجزء السابق (الثاني)، فيبدأ بداية إنشائية باستخدام الاستفهام الاستنكاري الذي لا يفتأ يتلّغ بثوب من التهكم المقصود من فعل المحبوبة:

- أَوَلَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بَانِي * * * وَصَالُ عَقْدِ حَبَائِلِ جَدَّامُهَا

- تَرَاكَ أَمَكِيَّةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا * * *

إن هذا الجزء يُعد نتيجة طبيعية لمضمون الجزء السابق الذي أمر الشاعر فيه نفسه بأن تقطع جبل من تعرّض وصله، فها هو يقرر أنه قادر على القطع على جهة المبالغة والتكثير المستفادة من صيغ المبالغة المتكررة؛ ومن ثم يتقابل هذا الجزء دلالياً مع (الجزء الأول) حيث السلبية، فناسب هذا كله أن يتوازي مطلع هذا الجزء (الجزء الثالث) تركيباً مع مطلع الجزء السابق مباشرة (الجزء الثاني)، حيث إنه يقع منه موقع

النتيجة الدلالية، وأن يتقابل تركيباً مع مطلع الجزء الأول حيث السلبية في مقابل الإيجابية في هذا الجزء.

وبذلك تترابط هذه الأجزاء الثلاثة نحويًا بواسطة «التوازي الدلاليين».

ثم يأتي الجزء الرابع متصداً بأداة دالة على الإضراب هي (بل) إشارة من الشاعر أن هذا الجزء يثبت عكس مضمون الجزء السابق؛ فناسب ذلك كله أن يتقابل مطلعاً الجزأين تركيباً بواسطة (الإثبات) - الناتج عن الاستفهام الاستنكاري - في مقابل (النفي)، ويتعمق ذلك التقابل التركيبي بـ (الخطاب) في الجزء الرابع في مقابل (الغيبة) في الجزء الثالث:

٥٥. أَوَلَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ (إثبات + غيبة)

٥٧. بَلْ أَنْتِ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ ... (نفي + خطاب)

وبواسطة هذا «التقابل التركيبي» يتماسك الجزءان، ويقف كل منهما بجوار الآخر، مؤكدين دلالة واحدة هي أن تلك المحبوبة التي رحلت قد غابت عنها بعض الأمور (وهي الأمور التي تحدث ليلاً)، كما أنها تغافلت عن بعض الأمور، كما وضّح ذلك الجزء الرابع.

ويأتي الجزء الخامس متصداً بالأسلوب الخبري التقريري الذي يناسب سياق الفخر بقبيلته الذي هو موضوع ذلك الجزء:

- إِنَّا إِذَا التَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ * * * مِنَّا لِرَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا

ليتقابل مطلع هذا الجزء تركيباً مع مطلع الجزء الثاني والثالث، وليتوازي تركيباً مع مطلع الجزء الرابع ثم مع مطلع الجزء الأول، وكأن الشاعر بذلك يغلق دائرة النص،

ويصل أجزاءه بعضها ببعض؛ ليصبح النص متماسكاً لأجزاء نحويًا ودلاليًا بواسطة «التقابل التركيبي والدلالي»، و«التوازي التركيبي والدلالي» كذلك.

٦. أزمنة النص:

للدلالات الزمنية في النص دور بارز في بنائه، وقد سبقت إشارة الدكتور محمد حماسة إلى أن هذه الأزمنة النصية قد^(١):

١. تتجاوب،

٢. أو تتدرج،

٣. أو تنتقل من زمن لآخر.

وبواسطة توزيع الأزمنة في النص - سواء أتناوبت أم تدرجت أم انتقلت من زمن لآخر - متماسكاً أجزاؤه وتتآلف. والناظر في معلقة امرئ القيس يجد أن الإشارات الزمنية الكبرى بالمعلقة تؤكد أن الزمن فيها ينتقل من (الماضي) الذي تجسد في (ذكرى الحبيب) في مطلع الجزء الأول إلى (الماضي البعيد) المستفاد من قوله: (قبلها) في مطلع الجزء الثاني:

٧. كَذَا بَكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا ** وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَا سَلِ

ثم تتداعى ذكريات ذلك الماضي البعيد المتمثلة في:

١٠ / .. يوم بدارة جلجل. (مطلع الجزء الثالث)

١١ / ويوم عقرت...

١٣ / ويوم دخلت الخدر...

١٨ / ويوما على ظهر الكتيب...

(١) انظر: اللغة وبناء الشعر، ص ٣٨-٣٩.

لقد تماسكت تلك الأجزاء عن طريق ذلك الانتقال من الزمن «الماضي» في الجزء الأول (١-٦) إلى «الماضي البعيد» في الجزء الثاني (٧-٩) والثالث (١٠-١٨).

ثم تستحيل تلك الذكريات إلى ليل طويل يحتم على صدر الشاعر:

٤٤. وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ** عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لَيْتَنِي

لتدخل القصيدة بذلك في زمن جديد إنه ذلك (الليل الطويل)، ثم تتدرج

أزمنة النص منذ هذه اللحظة، حيث يلف الليل بعباءته السوداء ذلك الجزء (٤٤ -

٤٧) إلى أن تكون الانفراجة في مطلع الجزء التالي؛ حيث ينتهي الليل، ويتدرج زمن

النص ليدخل في (زمن الغدو) المستفاد من الجملة الحالية: (والطير في وكناتها):

٤٨. وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكْنَاتِهَا **

إنه (زمن البكور)؛ فقد انتهى الليل، وأوشك النهار أن يشرق على الشاعر.

ثم يتدرج الزمن أكثر ليدخل في (وقت الضحى) حيث البرق الذي أتى ليغير كل شيء:

٧٤. فَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ **

وهكذا نجد أن النصف الأول من القصيدة قد غلب عليه الزمن الماضي

الذي انتقل إلى الماضي البعيد، وعن طريق ذلك «الانتقال الزمني» تماسكت أجزاؤه.

أما النصف الثاني من القصيدة فقد تدرجت أزمنته من (الليل) إلى (زمن البكور) إلى

(الضحى)، وبواسطة ذلك «التدرج الزمني» ترابطت أجزاء النصف الثاني.

والناظر في البنية الدلالية للنص يجد أنها تتوازي مع ذلك الانتقال والتدرج في

أزمنة النص؛ وذلك أن الشاعر بدأ من ذكريات الماضي حيث الأحزان والهموم، ثم

تداعت الأحزان أكثر فتذكر الماضي البعيد، فمثل ذلك كله ليلا طويلا هو في حقيقته

تلك الهموم. لكن الشاعر استطاع بفروسيته أن يتغلب على همومه؛ فانجلى الليل / الهموم، ودخل النص في زمن آخر إنه زمن الضحى، حيث البرق الذي يغير كل شيء؛ إيدانا ببدء حياة جديدة.

وهكذا تماسكت أجزاء النص بواسطة «الانتقال والتدرج في أزمته»، والذي تبعه انتقال وتدرج في الدلالة ليتأكد ذلك التماسك.

من وسائل التماسك الدلالي Coherence

١. علاقات الترتيب الدلالي:

هناك مجموعة من العلاقات الدلالية القابعة خلف سطح النص، والتي لها دور أساسي في تماسك أجزائه تماسكا معنويا غير ظاهر؛ ومن ثم فهي تحتاج إلى أناة في استنباطها من النص. وهذه العلاقات إنما تخضع للمبدع واهتماماته الخاصة؛ وذلك كأن يهتم المبدع بالأوصاف الحسية ثم ينتقل منها إلى الأوصاف المعنوية أو العكس، أو أن يذكر الأمر مجملا ثم يتناوله بالتفصيل، أو أن يذكر الكل ثم يتبعه بذكر الجزء أو العكس، أو أن يرتب حدثا على حدث لأن أحدهما كان سببا في الآخر ... وهكذا، ويمكننا أن نجعل أهم تلك العلاقات فيما يأتي:

- الكل / الجزء.

- السبب / المسبب.

- الخارج / الداخل.

فمثال علاقة «الانتقال من الكل إلى الجزء» من الملاحظات - عندما يصف

الشاعر محبوبته، فيبدأ بذكر اسمها الذي يحيل إليها بكل صفاتها، ثم يفصل ذلك بذكر مفاتها الحسية والمعنوية. ففي قول امرئ القيس: ٢٣ / وَيَيْضَةُ خَدْرٍ ... ذكر لهذه المحبوبة بكل ما تملكه من وسائل الجمال الحسية والمعنوية، والنساء يشبهن بالبيض من ثلاثة أوجه^(١): أحدها: بالصحة والسلامة عن الطمث، والثاني: في الصيانة والستر،

(١) شرح الملاحظات السبع، الزوزني: ص ١٦-١٧.

لأن الطائر يصون بيضه ويحضنه، والثالث: في صفاء اللون ونقائه، لأن البيض يكون صافي اللون نقيه إذا كان تحت الطائر.

فالوجه الأول والثالث يتعلقان بالصفات الحسية، أما الثاني فيتعلق بالصفات المعنوية.

ثم ينتقل امرؤ القيس من ذلك (الكل) الذي تجسد في لفظة واحدة (بيضة) إلى (الوصف الجزئي)، فبدأ بالأوصاف الحسية:

٣٠. هَصْرْتُ بِفَوْدِي رَأْسَهَا فَتَمَائِلَتْ **

٣١. مُهْفَهْفَةٌ بَيَّضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ ** تَرَائِبُهَا

٣٢. كَبُكِرِ الْمَقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ **

٣٣. تَصَدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي ** بِنَاطِرَةٍ

٣٤. وَجِيْدٌ كَجِيْدِ الرَّثْمِ ... **

٣٥. وَفَرْعٌ يَزِينُ الْمَتْنَ **

٣٦. غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزَرَاتٌ ... **

٣٧. وَكَشَحَ لَطِيفٍ ** وَسَاقٍ^(*)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من الترتيب الدلالي في الوصف حيث ينتقل امرؤ القيس في وصفه هذه المرأة من أعلى إلى أسفل؛ فينتقل من الرأس (٣٠) هصرت

(*) هصرت: جذبت، الفودان: جانب الرأس، المهفهفة: اللطيفة الخصر الضامرة البطن، المفاضة: المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم، الترائب: موضع القلادة من الصدر، المقاناة: المختلطة، يقال قانيت بين الشيئين إذا خلطت بينهما، تصد: تعرض، تبدي: تظهر، أسيل: خد ممدود، جيد: رقبة، الرثم: الظبي الأبيض الخالص البياض، الفرع: الشعر التام، المتن: الظهر، الغدائر: خُصَل الشعر، مستشزرات: مرتفعات، كشح: خصر.

بفودي رأسها ...)، إلى الخد (٣٣/... أسيل)، إلى الجيد (٣٤/... وجيد كجيد الرئم ...)، إلى الشعر الأسود الفاحم الذي يزين الظهر (٣٥/... وفرع يزين المتن...)، حتى يصل إلى وصف «الكشح» ف «الساق». وهكذا تماسكت هذه الأبيات بواسطة هذا «الترتيب الدلالي» في الوصف؛ ومن ثم لا يسوغ أن ينقل بيت ويوضع مكان بيت آخر، بحجة أن المعنى سوف يستقيم؛ فالشاعر لا يريد المعنى فحسب، بل المعنى المصوغ في بناء فني متماسك دلالياً.

ثم ينتقل الشاعر من الخارج (الحس) إلى الداخل (المعنى)، فيقول:

٣٨. وَتُضْجِي فَنَيْتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا ** نَوُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ
٤٠. تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا ** مَنَارَةٌ مُنْسَى رَاهِبٍ مُبْتَلٍ

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَتْ بِمِثْلِ كُلِّ تِلْكَ الصِّفَاتِ الْحُسْنَى وَالْمَعْنَوِيَّةِ أَنْ يَرْنُو إِلَيْهَا كُلِّ عَاقِلٍ:

٤١. إِلَى مِثْلِهَا يَرْنُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً **

والضمير هنا إنما يحيل إلى هذه المرأة بكل صفاتها المذكورة في الأبيات السابقة.

وهكذا تماسكت هذه الأبيات فيما بينها، بواسطة الانتقال الدلالي من الخارج إلى الداخل؛ فجاءت مترتبة على ذلك النحو الذي أراده الشاعر لها، والذي إذا ما شرع أحد في نقضه لفات مراد الشاعر من إيراد هذه الأبيات على ذلك النحو من الترتيب الدلالي الذي عمل على تماسك تلك الأبيات، على المستوى العميق للنص.

ثم يأتي آخر بيتين في هذا الجزء:

٤٢. تَسَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ عَنِ الصَّبَا	**	وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنْسَلٍ
٤٣. أَلَا رَبَّ خَصَمٍ فِيكَ أَلَوَى رَدَدْتَهُ	**	نَصِيحٍ عَلَى تَعَذُّلِهِ غَيْرِ مُؤْتَلٍ

ليقفا من أبيات الوصف السابقة موقف النتيجة من السبب؛ فمن كانت بكل تلك الصفات كيف يسلوها الشاعر؟! وبذلك يترابط آخر الجزء بما قبله من أبيات، بواسطة علاقة دلالية هي علاقة السبب بالمسبب.

كما سبق بان أن هذه المجموعة من الأبيات قد تماسكت بمجموعة من العلاقات الدلالية:

١. الانتقال الدلالي من الكل حيث (بيضة الخدر) إلى الجزء حيث (أبيات الوصف الحسي والمعنوي).

٢. الانتقال الدلالي من الخارج (الحسي) إلى الداخل (المعنى).

٣. الانتقال الدلالي من أعلى إلى أسفل (داخل أبيات الوصف الحسي).

٤. الترتيب الدلالي يربط آخر الجزء بما قبله بواسطة علاقة: السبب / المسبب.

إن الناظر في أبيات (الوصف) سواء أكانت وصف المحبوبة أم الناقصة أم الفرس أم الصحراء ... إلخ، يجد أنها - غالباً - ترتبط أجزاءها دلالياً بتلك المجموعة من العلاقات؛ إذ يبدأ الشاعر بالإجمال - غالباً - ثم يفصل منتقلاً من الأوصاف الحسية إلى المعنوية أو العكس، ثم تتسلسل الأوصاف مترتبة من أعلى إلى أسفل، أو من أسفل إلى أعلى، أو بأية طريقة أخرى تتناسب مع الموصوف، ثم تأتي الأبيات الأخيرة (بعد الانتهاء من الوصف) لتصوغ النتيجة المترتبة على ذلك الدور الذي يقوم به ذلك الموصوف بكل الصفات السابقة.

فامرؤ القيس بعد انتهائه من وصف فرسه بكل الصفات التي تؤهله للقيام بدوره، تأتي النتيجة:

و كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ يَنْحَرُهُ ** عُصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَلٍ^(*)

(*) الهاديات: المتدمات والأوائل، مرجل: المسرح بالمشط.

كذلك بعد أن ينتهي طرفه من وصف ناقته بالصفات المؤهلة للقيام بدورها تأتي النتيجة:

عَلَى مِثْلِهَا أَمْضِي إِذَا قَالَ صَاحِبِي ** أَلَا لَيْسَنِي أَفْدِيكَ مِنْهَا وَأَفْتَدِي
وما أشبه هذا البيت ببيت امرئ القيس:

٤١. إِلَى مِثْلِهَا يَرْئُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً ** إِذَا مَا اسْبَكَرْتُ يَنْزِعُ وَجْهَهُ وَمَجْهُولٍ
حيث تؤكد الترابط الدلالي بالترابط النحوي بالإحالة بقولهما: (مثلها)، حيث تدل
(كلمة «مثل» + الضمير) على أن المحال إليه هو: تلك الناقه (في معلقة طرفه) بكل ما
خلع عليها من صفات في الأبيات السابقة، وتلك المرأة (في معلقة امرئ القيس) بكل
ما خلع عليها من صفات حسية ومعنوية، فيما سبق من أبيات.

وكذلك بعدما ينتهي «ليبد» من وصف ناقته بالصفات التي تؤهلها للقيام
بدورها المنوط بها (قطع حاجته ممن كان وصله عارضا)، تأتي النتيجة:

٥٣. فَيَتَلَكَّ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ فِي الضُّحَى **
٥٤. أَقْضِي اللَّبَانَةَ **

يمكننا إذن أن نخرج بنتيجة تقول: إن الشاعر عندما يصف يلجأ - في
الغالب - إلى ربط أبياته نحويا بالإحالة بالضمير أو الإشارة إلى ذلك الموصوف -
بكل ما خلعه عليه من صفات - ودلاليا بواسطة «علاقات الترتيب الدلالي» التي
تشمل:

- الكل / الجزء.
- الإجمال / التفصيل
- الخارج / الداخل.
- السبب / المسبب.

٢. التوازي الدلالي:

تتوازي موضوعات النص دلاليا عندما تتنامى الأحداث متشابهة في
مقدماتها ونتائجها، تأكيدا من الشاعر على فكرة واحدة؛ وعندئذ يتماسك النص على
المستوى الدلالي العميق.

يتجلى ذلك في معلقة امرئ القيس في أجزاءها الأولى؛ إذ تبدأ المعلقة في جزئها
الأول بطلب الوقوف من أجل البكاء، بسبب تحول حياة الشاعر مع محبوبته إلى
ذكريات، وتحول تلك الديار التي شهدت ذلك الحب إلى أطلال بالية:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ **

وتتنامى الأحداث اللغوية في ذلك الجزء (١ - ٦) واصفة تلك الأطلال، ولا
يملك الشاعر في نهاية ذلك الجزء سوى دموعه / وسيلة الشفاء مما يلاقي من الآلام
الناجمة عن ذكر تلك المحبوبة الراحلة.

ويأتي الجزء الثاني ليبدأ بقوله: (٧ - كدأبك)، وتلك إشارة مبكرة من الشاعر
إلى أن الأحداث التالية ستشابه مع الأحداث السابقة (في الجزء الأول)، ومن ثم
تتوازي معها دلاليا.

وتتنامى الأحداث بالجزء الثاني متشابهة مع أحداث الجزء الأول حتى تنتهي
إلى تلك الدموع التي لا يملك الشاعر غيرها.

٩. فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً ** عَلَى النَّخْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مَحْمَلِي

وهكذا ينتهي الجزء الثاني بالدموع ليؤذن ببداية جزء جديد (١٠ - ١٨) حيث
الوصل المتجسد في وصف اليوم بالصلاح:

(*) صباية: رقة الشوق، المحمل: حمالة السيف.

١٠. أَلَا رَبُّ يَوْمٍ صَالِحٍ **

ثم تتوالى أيام الوصل الصالحة:

١٠. ** وَلَا سِيَّامًا يَوْمَ بِدَارَةِ جُلْجُلٍ

١١. وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِئَتِي **

١٣. وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْحِذْرَ **

١٨. وَيَوْمًا عَلَى ظَهْرِ الْكَيْثِ **

وتتجسد النهاية في الجزء الرابع (١٩ - ٢٢) حيث الصَّدُّ والإزماغ على

الصرم من جانب المحبوبة، ويقف رد فعل الشاعر عند حدود الكلام بطلب التمهّل،

والتشكيك في حقيقة أن يكون قد ساءها شيء من أخلاقه، تستحق ذلك الصرم:

- وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ ** فَسَلِّي نِيَابِي مِنْ نِيَابِكَ تَنْسَلِ

وينتهي الجزء بالدموع لكنها هذه المرة دموع المحبوبة:

٢٣- وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي ** بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلٍ^(*)

والناظر في هذا البيت يجد أن الدموع هنا لم تذرف حزنا على النهاية، كما هو

حال دموع الشاعر في الأجزاء السابقة، بل إنها تذرف الدمع من أجل أن غمك قلب

الشاعر وتستولي على جميع أعشاره، ويأتي التقييد بوصف القلب بأنه (مقتل)

بالتضعيف الدال على المبالغة للتأكيد على أن نهاية الشاعر في هذه المرة لم تكن أسعد

حالا مما كانت عليه في المرات السابقة؛ ومن ثم تتوالى هذه الأحداث الأخيرة دلاليا

مع الجزأين الأول والثاني؛ حيث تنامت الأحداث بالطريقة نفسها، حتى انتهت إلى

تلك النهاية المشابهة للنهايات السابقة.

(*) ذرفت العين: سال دمعها، المقتل: المذل غاية التذليل.

ويبدأ الجزء الخامس (٢٣ - ٤٣) متوازيا نحويا مع بداية الجزء الثالث (١٠ -

١٨) حيث البنية العميقة واحدة:

١٠. رَبُّ + مجرورها —————> رَبُّ يَوْمٍ ...

٢٣. وَارُبُّ المحذوفة + مجرورها —————> وَبِيضَةُ خَدْرٍ ...

ليمهد الطريق أمام « التوازي الدلالي »؛ فتبدأ الأحداث بالوصال، وتتنامي بالطريقة

نفسها أيضا، حتى تنتهي بإصراره على حبها:

٤٢. تَسَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ عَنِ الصَّبَا ** وَلَيْسَ فُؤَادِي عَنْ هَوَاكَ بِمُنْسَلٍ

إلى أن ينصحه الناصحون بتركه، ويلومه اللاثمون على البقاء عليه:

٤٣. أَلَا رَبَّ خَصِمٍ فِيكَ أَلْوَى رَدَدْتُهُ ** نَصِيحٍ عَلَى تَعْدَالِهِ غَيْرِ مُؤْتَلٍ^(**)

وفي انتقاء مادتي (النصح) و(العذل) إشارة إلى أن النهاية كانت تشبه

النهايات السابقة؛ فما كان الناصحون لينصحوه واللائمون ليلوموه إلا وقد رأوا ما آل

إليه حاله من تعب ونصب بسبب ذلك الحب وإبقائه عليه.

وبذلك نجد أن جميع موضوعات هذه الأجزاء قد توازت دلاليا؛ إذ تسير

الأحداث وتتنامي كما يلي:

وصل —————> (ينتج عنه) تعلق شديد بالمحبوبة —————> (ثم) رحيل المحبوبة وصعوبة

الوصول إليها —————> (ينتج عنه) إصراره على حبها والبقاء على العهد.

ويقف الشاعر عند حدود رد الفعل السلبي المتمثل في البكاء، أو مجرد الكلام،

أو الوعد بدوام البقاء على العهد. ولا تتحول القصيدة إلى رد فعل إيجابي إلا في النص

(**) الألوى: الشديد الخصومة، نصيح: كثير النصح، تعذال: لوم، مؤتلي: مقصر.

الثاني منها (٤٨ - إلى آخر القصيدة) بعد الانتصار على الهموم والأحزان؛ وذلك عندما لجأ الشاعر إلى فرسه (وسيلة الخلاص من تلك الأحزان)، ثم إلى البرق (وسيلة تغيير ذلك الواقع المظلم).

وبسير الأحداث في بنية دلالية خلفية واحدة (التوازي الدلالي) تماسكت أجزاء النص، وإن بدت في الظاهر تتحدث عن مجموعة من التجارب المختلفة المتباعدة زمنياً.

٣. التقابل الدلالي:

هو أن تتقابل معاني الجمل أو الأجزاء (أجزاء النص) لتأكيد معنى واحد بأكثر من وجه، أو لبيان القدرة على إتيان الأشياء المتناقضة، وبخاصة في سياق الفخر إشارة إلى معاملة كل بما يستحقه. يتضح ذلك في الجزء الأخير من معلقة عمرو بن كلثوم:

٩٤. وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ *** إِذَا قُبِبَ بِأَبْطَحِهَا بَيْنَنَا
٩٥. يَا أَيُّهَا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا *** وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
٩٦. وَأَنَا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا *** وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
٩٧. وَأَنَا النَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا *** وَأَنَا الْآخِذُونَ لِمَا رَضِينَا
٩٨. وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أَطْعَمْنَا *** وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
٩٩. وَتَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا *** وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينَا
١٠٠. أَلَا أُبَلِّغُ بَنِي الطَّمَّاحِ عَنَّا *** وَدُعْمِيًّا فَكَيْفَ وَجَدْتُمُونَا
١٠١. إِذَا مَا الْمَلِكُ سَأَمَ النَّاسَ خَسَفًا *** أَبِينَا أَنْ نُقَرَّ الذَّلَّ فِينَا
١٠٢. مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا *** كَذَلِكَ الْبَحْرُ نَمْلُؤُهُ سَفِينَا
١٠٣. إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ *** تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

ففي هذا الجزء نجد أن الشطر الأول يقابل الشطر الثاني دلاليًا، في ثمانية أبيات من عشرة الأبيات السابقة، وذلك كما يلي:

٩٥. الإطعام عند القدرة	يقابل	الإهلاك عند الابتلاء
٩٦. منع الناس مما يريدون (قوم الشاعر)	يقابل	النزول في أي مكان يشاءونه مما يملكه الناس
٩٧. الترك عند السخط	يقابل	الأخذ عند الرضا
٩٨. العصمة والمنع عند الطاعة	يقابل	العزم بالعدوان عند العصيان
٩٩. شربهم الماء صفوا	يقابل	شرب غيرهم الماء كدرا
١٠١. الحمل على الذل	يقابل	إباء الانقياد للذل
١٠٢. ملء البر	يقابل	ملء البحر
١٠٣. الصبي وقت الفطام	يقابل	الجبابة

وهذا «التقابل الدلالي» يؤدي وظيفتين:

الأولى: التوكيد على فعل الأمر ونقيضه على حد سواء، وقصر- ذلك عليهم دون غيرهم. والأخرى: تماسك أجزاء ذلك الجزء دلاليا؛ فكل شطر مقصود في مكانه الذي وضع فيه، فليس وضعه في مكانه هكذا كيفما جاء واتفق؛ وبذلك يصبح هذا الجزء كالوجهين للعملة الواحدة، كل وجه يدابر الآخر ويقابله، وتلك المقابلة دون غيرها يتحقق له الانسجام مع الوجه الآخر.

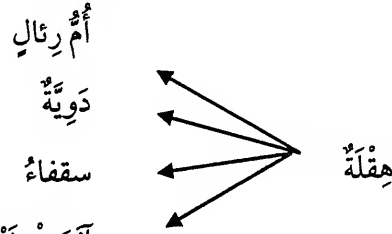
٤. الصور المجازية:

تؤدي الصور المجازية دورا كبيرا في تماسك أجزاء النص تماسكا دلاليا، وأكثر ما يكون ذلك عندما يلجأ الشاعر إلى الوصف، كما في قول الحارث بن حلزة، يصف ناقته:

عَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمِّ ** مَّ إِذَا خَفَّ بِالْثَوِيِّ النَّجَاءُ
بَرْقُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمُّ ** رِئَالٍ دَوِيَّةٌ سَقْفَاءُ
أَنْسَتِ نَبَأَةً وَأَفْزَعَهَا الْقُنَّصُ ** عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ
فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْفِ ** مَنِئِنَّا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ
وَطِرَاقًا مِنْ خَلْفِهَا طِرَاقٌ ** سَاقِطَاتٌ تُودِي بِهَا الصَّخْرَاءُ
أَتْلَهَى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ كُ ** لُ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ*

(*) الثوي: المقيم، النجاء: الإسراع في السير، الزفوف: الناقة المسرعة في سيرها، الهقلة النعامة، رئال، مفردا رأل وهو ولد النعامة، دوية: منسوبة إلى الدو وهي المفازة، السقفاء: الطويلة مع انحناء، النبأة: الصوت الخفي، أفزعها: أخافها وأرهبها، المنين: الغبار الرقيق، الأهباء: جمع هباء،

فالناظر في هذه الأبيات يجد أنها صورة نابضة بالحركة لتلك الناقة (الموصوف المحذوف)، ويجد أن أول صفة لتلك الناقة هي (زفوف)، وتلك صفة مستعارة من المجال الدلالي للنعامة، ورغم وضوح سرعتها بمجرد قوله (زفوف) إلا أنه أراد أن يمعن في بيان مدى سرعتها؛ فأكد ذلك بقوله (كأنها هقلة) أي (نعامة)، ثم يعمق الشاعر الصورة بتأكيد مدى السرعة، فيأتي بكل الدوافع والعوامل الممكنة التي تضيف إلى هذه النعامة سرعة إلى سرعتها، ومن ثم تتتابع النعوت المملوءة بالمفردات المعجمية المختارة بعناية من حقول دلالية بعينها:



أَنْسَتِ نَبَأَةً، وَأَفْزَعَهَا الْقُنَّصُ (عَصْرًا، وَقَدْ دَنَا
الْإِمْسَاءُ)

لقد تراكمت مجموعة من العوامل ضاعفت تلك السرعة:

١. عوامل جسدية: (زفوف - دوية - سقفاء).
٢. عوامل معنوية: ذات أولاد تخاف عليهم (أم رئال).
٣. يطاردها الصيادون (القنص) بصيغة الجمع.
٤. اختيار الوقت: (عصرا وقد دنا الإمساء)، مما يضاعف من خوفها على أولادها الذين ينتظرون عودتها في هذا الوقت.

الطراق: أطباق نعلها، ألوت بها الصحراء: أفنته وأبطلته، ابن هم: صاحب الهم، بلية عمياء: يقصد الناقة المبتلاة.

وهكذا نجد أن الشاعر يختار بدقة كل الصفات التي يخلعها على الموصوف

حتى يؤدي الغرض الذي من أجله ذكر في النص؛ ويتمثل ذلك الغرض في النتيجة:

أَتَلَهَّى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ كُـ ** لُ ابْنِ هَمِّ بَلِيَّةٍ عَمِيَاءُ

فليست هناك - إذن - نعمة حقيقية، بل هي تلك الناقة التي تشبه في سرعتها

هذه النعامة (التي هي سريعة بطبيعتها)، والتي ضاعف من سرعتها تلك الحالة

الموصوفة بها. هذه الناقة هي وسيلة الشاعر التي يستعين بها على همومه، ويجتاز بها

مخاوفه.

وبواسطة تلك «الصورة المجازية» التي تنبض بالحركة تماسكت هذه الأبيات

دلاليا مكونة جزءا متماسكا من أجزاء النص، وأكد ذلك التماسك النحوي بالتقييد

بالجار والمجرور والنعته، ثم بالإحالة إلى تلك الناقة (الموصوف المحذوف) - بكل ما

نعتت به من صفات - بالضمير الوارد في قوله (بها) في آخر أبيات هذا الجزء.

وقد تأتي الصور المجازية معقدة متراكبة، يظن الناظر إليها لأول وهلة أنها

مجموعة من الصور لأشياء مختلفة متباينة، لكن المدقق في البنية النحوية والدلالية

للنص، يجد أنها مجموعة من الصور في لوحة واحدة متناسقة الألوان. يتضح ذلك في

معلقة لببدا الذي يصف ناقته في الأبيات من الثاني والعشرين حتى الثالث والخمسين؛

فيبدأ بوصف الناقة، ثم ينتقل إلى وصف الأتان:

٢٥. أَوْ مُلْمِعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ....

ثم يمضي في وصف الأتان حتى ينتهي إلى وصف البقرة الوحشية:

٣٦. أَفْتَلِكَ أُمٌّ وَحْشِيَّةٌ...

ثم يمضي في وصف البقرة حتى ينتهي إلى قوله:

٥٣. فَيَتَلِكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِغُ...

٥٤. أَفْضِي اللَّبَانَةَ...

وهذه الإشارة إنما هي إحالة إلى تلك الناقة المذكورة في أول الأبيات؛ بدليل

ذكر (قضاء اللبانة)، والاستجابة لذلك الأمر الوارد في أول الأبيات:

٢٠ - ٢٢ / فَاقْطَعْ لُبَانَةً مَنْ تَعَرَّضَ وَضَلُّهُ.... بِطَلِيحِ أَشْفَارٍ..

إن هذه الإحالة تؤكد أن كل الأحداث والصفات في جميع هذه الأبيات (٢٢ -

٥٤) ترتبط بالناقة (الموصوف المحذوف)، وما صورة الأتان والبقرة الوحشية إلا

صورتان لهذه الناقة، فليست هناك أتان حقيقية، ولا بقرة وحشية حقيقية، وإنما أتى بهما

لبيان مدى سرعة هذه الناقة.

وهكذا، تماسكت أجزاء هذا الجزء من أجزاء النص تماسكا نحويا بالإحالة

باسم الإشارة، ودلاليا بواسطة «الصور المجازية» (صورة الناقة والأتان والبقرة

الوحشية) التي كوّنت لوحة واحدة لتلك الناقة (الموصوف المحذوف).

عند هذا الحد يتبين لنا أن أي نص فني تتحكم في بنائه مجموعة من الوسائل النحوية والدلالية التي تعمل على تماسكه على المستوى السطحي (بنيته اللفظية) والمستوى العميق (بنيته المعنوية)، وقد ذكرنا بعض هذه الوسائل، ولا شك أن هناك وسائل نحوية ودلالية أخرى غير التي ذكرت تحتاج إلى بيان ودراسة من خلال تناول النص الفني.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- الإبداع الموازي : التحليل النصي للشعر

د. محمد حماسة عبد اللطيف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠١ م.

- اتجاهات التحليل الزمني

د. محمد عبد الرحمن الريحاني ، دار قباء للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨ م.

- ارتشاف الضرب

أبو حيان الأندلسي ، تحقيق د. رجب عثمان محمد ، مراجعة د. رمضان عبد التواب ،

مكتبة الخانجي القاهرة ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

- أسرار البلاغة

عبد القاهر الجرجاني ، صححه وعلق عليه محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ،

بيروت ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

- الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)

د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ /

١٩٨٣ م .

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك

ابن هشام الأنصاري ، تحقيق بركات يوسف هبود ، مراجعة يوسف البقاعي ، دار

الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

- الإيضاح

القزويني ، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ،

ط ٣ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

- بلاغة التراكيب

د. توفيق الفيل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩١ م .

- بلاغة الخطاب وعلم النص

د. صلاح فضل ، عالم المعرفة ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

- البلاغة والأسلوبية

د. محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ م .

- بناء الجملة العربية

د. محمد حماسة عبد اللطيف ، دار الشروق ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

- البنى التركيبية والدلالية لظاهرة التعليل في العربية

د. طه الجندى ، مجلة دار العلوم ، ع ٢٧ .

- البيان والتبيين

الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٤٠٥ هـ /

١٩٨٥ م .

- تاج العروس

الزبيدي ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

- تحليل الخطاب

براون ويول ، ترجمة د. محمد لطفي ، ود. منير التريكي ، مطابع جامعة الملك سعود ،

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

- تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناس

د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٨٦ م .

- تحليل النص الشعري

لوتمان ، ترجمة : د. محمد فتوح أحمد ، دار المعارف ، ١٩٩٥ م .

- جماليات القصيدة الجاهلية

د. صلاح رزق ، مكتبة النصر ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٨ م .

- الجملة في الشعر العربي

د. محمد حماسة عبد اللطيف ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ /

١٩٩٠ م .

- الجنى الداني

المرادي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،

ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

- حديث الأربعاء

د. طه حسين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م .

- الخصائص

ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٤ ، ١٩٩٩ م .

- خصائص التراكيب

د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

- دلائل الإعجاز

عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق الشيخ محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ، ط ٥ ، ٢٠٠٤ م .

- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث

د. عبد الفتاح البركاوي ، دار المنار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩١ م .

- دور الحرف في أداء معنى الجملة

المصادق خليفة راشد ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٩٩٦ م .

- دور النحو في تفسير النص الشعري

مصطفى عراقي ، رسالة ماجستير بدار العلوم بالقاهرة ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

- دينامية النص

د . محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٩٩٠ م .

- ديوان امرئ القيس

امرؤ القيس ، تحقيق حنا الفاخوري ، طبعة دار الجليل ، بيروت ، د.ت .

- ديوان المتنبي

المتنبي ، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي وسعيد جودة السحار و د. عبد العزيز شرف ،

مكتبة مصر ، د.ت .

- رؤى وتجارب

د. صلاح رزق ، مكتبة النصر ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠١ م .

- الزمن واللغة

د. مالك يوسف المطلبى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م .

- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك

ابن عقيل ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية - بيروت ١٤١٥

هـ / ١٩٩٥ م .

- شرح التسهيل

ابن مالك ، تحقيق د. عبد الرحمن السيد ، ود. محمد المختون ، دار هجر ، القاهرة ، ط ١ ،

١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

- شرح التصريح على التوضيح

الشيخ خالد الأزهرى ، المطبعة الأزهرية المصرية ، ط ٢ ، ١٣٢٥ هـ .

- شرح الرضي على الشافية

الرضي ، تصحيح وتعليق الشيخ عبد الرحمن خليفة ، مطبعة محمد علي صبيح ،

القاهرة ، ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م .

- شرح الرضي على الكافية

الرضي ، الشركة الصحافية العثمانية ، ١٣١٠ هـ .

- شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات

ابن الأنباري ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، ط ٤ ، ١٤٠٠ هـ /

١٩٨٠ م .

- شرح القصائد العشر

التبريزي ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٠

هـ / ١٩٨٠ م .

- شرح المعلقات السبع

الزوزني ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د.ت .

- شرح المفصل

ابن يعيش ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية ،

بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

- الصاحبى في فقه اللغة

ابن فارس ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٧ م .

- صوت الشاعر القديم

د. مصطفى ناصف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م.

- الطراز

العلوي ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ، ١٣٣٣ هـ ، ١٩١٤ م .

- ظواهر نحوية في الشعر الحر - دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور

د. محمد حماسة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٠ م .

- العربية من نحو الجملة إلى نحو النص

د. سعد مصلوح ، الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة

الكويت ، دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون ١٩٩٠ م .

- العلاقات النحوية بين المفردات في الجملة ودورها في تشكيل المجاز

د. محروس السيد بريك ، (رسالة دكتوراه ، مكتبة كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ،

٢٠٠٨ م).

- علم لغة النص

د. سعيد بحيري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

- علم اللغة والنقد الأدبي

د. عبده الراجحي ، فصول ، ع ٢ ، يناير ١٩٨١ م .

- علم النص : مدخل متداخل الاختصاصات

فان دايك ، ترجمة د. سعيد بحيري ، دار القاهرة للكتاب ٢٠٠١ م .

- العمدة

ابن رشيق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجليل ، بيروت ، ط ٥ ،

١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

- عيار الشعر

ابن طباطبا العلوي ، تحقيق عباس عبد الساطر ، مراجعة نعيم زرزور ، دار الكتب

العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

- الفروق اللغوية

أبو هلال العسكري ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ .

- فصول ، ع ١ ، أكتوبر ١٩٨٤ م .

- في الشعر الجاهلي : دراسات نصية في المعلقات

د. صلاح رزق ، مكتبة النصر ، حرم جامعة القاهرة ١٩٩٩ م .

- الكتاب

سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤٠٨ هـ ،

١٩٨٨ م .

- الكليات

أبو البقاء ، دار الطباعة العامة ، القاهرة ، ١٨٣٧ هـ .

- اللامات

أبو القاسم الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٣٨٩ هـ /

١٩٦٩ م .

- لسان العرب

ابن منظور ، صححه : أمين محمد عبد الوهاب ، ومحمد الصادق العبيدي ، دار إحياء

التراث العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٣ م .

- لسانيات النص

د. محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ م .

- اللسانيات واللغة العربية

د. عبد القادر الفاسي الفهري ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣ م .

- اللغة العربية معناها ومبناها

د. تمام حسان ، عالم الكتب ، ط ٣ ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

- اللغة والإبداع

د. شكري عياد ، إنترناشيونال برس ، ١٩٨٨ م .

- اللغة وبناء الشعر

د. محمد حماسة ، مطبعة دار الصفوة ، ط ١ ، ١٩٩٢ م .

- المثل السائر

ابن الأثير ، تحقيق د. أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانة ، منشورات دار الرفاعي ،

الرياض ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

- مدخل إلى علم اللغة النصي

فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر ، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي ، مطابع

جامعة الملك سعود ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .

- معاني الأبيته في العربية

فاضل السامرائي ، منشورات جامعة الكويت ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، ط ١ ،

١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .

- المعرفة اللغوية

تشومسكي ، ترجمة د. محمد فتيح ، ص ٨٨ ، دار الفكر العربي ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ /

١٩٩٣ م .

- المعجم الوسيط

مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ هـ .

- مغني اللبيب عن كتب الأعراب

ابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ،

١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

- المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث

الشيخ بوقرية ، علامات ، مجلد ١٠ ، ج ٤٠ ، ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ / يونيو ٢٠٠١ م .

- مفتاح العلوم

السكاكي ، ضبط وتعليق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ /

١٩٨٧ م .

- مناهج النقد المعاصر

د. صلاح فضل ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

- منهاج البلغاء

حازم القرطاجني ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشارقة ، تونس ،

١٩٦٦ م .

- من وظائف الصوت اللغوي

د. أحمد كشك ، مطبعة المدينة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- موجز تاريخ علم اللغة في الغرب

روبنز ، ترجمة : د. أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، نوفمبر ١٩٩٧ م .

- نحو أجرومية للنص الشعري

د. سعد مصلوح ، فصول ، ع ١٠٢ ، سنة ١٩٩١ م .

- النحو والدلالة

د. محمد حماسة ، مطبعة المدينة ، القاهرة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

فهرس الموضوعات

- النص الأدبي : تحليل وبناءؤه

د. إبراهيم خليل ، عمان ، الأردن ، ط ١ ، ١٩٩٥ م ، دون ناشر .

- نظام الجملة في شعر المعلقات

د. محمود نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩١ م .

- نظرية تشومسكي اللغوية

جون ليونز ، ترجمة د. حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط ١ ،

١٩٨٥ م .

- همع الهوامع

السيوطي ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨ هـ /

١٩٩٨ م .

- الوحدة السياقية للقصيد العربية : رؤية نحوية في تماسك النص الشعري

د . مصطفى عراقي ، صحيفة دار العلوم ، الإصدار الرابع ، السنة السادسة ، ع ١٢ ،

ديسمبر ١٩٩٨ م .

- A dictionary of theoretical linguistics,

M. Al Khuli, librairie de liban, beriut, 1991.

- Cohesion in English,

Halliday and R. Hassan, Longman, London, first published, 1976.

فهرس الموضوعات

٥	كلمة حق: بقلم أ.د. محمد حماسة
٧	المقدمة
٦٤-١٧	الفصل الأول أسس تأليف الكلام وإنتاج النص:
٤٣-١٩	- أسس تأليف الكلام:
١٩	مدخل
٢٧-١٩	أسس تأليف الكلام عند القدماء:
٢٧	المستقيم والمحال من الكلام عند سيبويه
٣٢	تأليف الكلام المفيد وتحديد العنصر الغائب عند ابن جني
٣٥	النظم وتأليف الكلام عند عبد القاهر الجرجاني
٣٨	تعريف النحو ودوره في تأدية المعنى عند السكاكي
٤٠	أسس تأليف الكلام عند ابن الأثير
٤١	التأليف بين الألفاظ والنظام النحوي عند يحيى بن حمزة العلوي
٤٢	خلاصة كلام القدماء حول أسس تأليف الكلام
٥٢-٤٣	أسس تأليف الكلام عند المحدثين:
٤٣	منهج التحليل إلى الوحدات النحوية
٤٤	كيفية تأليف الكلام عند تشومسكي
٤٩	الخروج من الصمت اللغوي إلى النطق الكلامي

١٠٧	أثر تقييد العنصر الاسمي في أداء المعنى النحوي الدلالي
١١٠	دور الاسم المطلق في أداء المعنى
١١٠	من معاني تقييد الاسم بالتعريف
١١٢	إطلاق الجمل وتقييدها تبعاً للمعنى
١١٣	أثر تقييد الجملة الاسمية بالتوكيد في أداء المعنى النصي
١٢٦	٣- الرافد الثالث : معاني الحروف :
١٢٦	لا يتضح معنى الحرف إلا داخل التركيب
١٢٧	حذف الحرف في غير مواضع الحذف المشهورة إنما يكون لمعنى
١٢٨	الوظيفة المزدوجة للحرف
١٣٠	دور الكاف التشبيهية في تشكيل معنى النص وتماسك أجزائه
١٣٢	الاختيار بين حروف العطف ودوره في أداء المعنى النصي
١٣٤	الدلالة النصية للفاء التي تربط الشرط بالجزاء
١٤١	المعنى النصي للواو الحالية بين الذكر والامتناع
١٤٣	أثر زيادة الحرف في أداء المعنى النصي
١٤٦	الجانب الثاني : المعنى الأولي (المعجمي) للمفردات :
١٤٧	المفردات هي الوجه الآخر للغة
١٤٨	كيفية عمل المفردات لأداء المعنى
١٤٩	تقييد الكلمة ودوره في انتقالها بين الحقول الدلالية
١٥٣	المجاز من نتائج كسر قواعد الاختيار بين المفردات
١٥٥	دور المكون الفونولوجي (الصوتي) للكلمة في أداء المعنى النصي

٥٠	محاور بناء الجملة الصحيحة نحويًا ودلاليًا عند د. محمد حماسة
٦٦-٥٢	- أسس إنتاج النص الأدبي :
٥٢	اللغة تتشكل في نص متماسك
٥٥	الصفات الأساسية للنصوص
٦٣	خلاصة
٦٧	الفصل الثاني المعنى النحوي الدلالي وأثره في تأويل الشعر
٦٧	- مفهوم المعنى النحوي الدلالي :
٧٣	- جانب المعنى النحوي الدلالي :
٧٣	الجانب الأول : المعنى النحوي الأولي :
٧٤	١- الرافد الأول : معاني الصيغ الصرفية :
٧٥	اختيار المبدع بين الاسم والفعل
٧٦	اختيار المبدع من بين أبنية الأفعال
٨٥	اختيار المبدع من بين أبنية الأسماء
٨٧	دور أبنية الصفة المشبهة والمبالغة في بناء المعنى النحوي الدلالي في معلقة امرئ القيس
١٠٠	٢- الرافد الثاني : معاني الصيغ النحوية :
١٠٠	المقصود بالصيغ النحوية
١٠١	أثر تقييد العنصر الفعلي بالحال والنعت في أداء المعنى
١٠٤	أثر التقييد بالمستثنى المنصوب في أداء المعنى
١٠٥	أثر التقييد بما يدل على التعليل في أداء المعنى

١٨٥	الزمن النصي يختلف عن الزمن داخل الجملة
١٨٦	تقسيم معلقة لبید تبعاً للتحويلات الزمنية
١٩٦	٢- تحولات الضمائر :
١٩٦	مراعاة الالتفات بين الضمائر وكم ورودها في النص
١٩٧	تقسيم معلقة عنتره تبعاً لتحويلات الضمائر
٢٠١	٣- التقابل والتجاور بين الخبر والإنشاء :
٢٠١	أقسام الطلب بين اللغويين والبلاغيين
٢٠٢	الخبر والاستخبار والأمر عند ابن فارس
٢٠٣	عدم إشارة ابن فارس إلى الأمر بصيغة اسم فعل الأمر والمصدر النائب عن فعله
٢٠٥	تقسيم معلقة زهير تبعاً للتقابلات والتجاورات بين الخبر والإنشاء
٢١٣	ثانياً : المعايير الدلالية :
٢١٣	١- التفريع الدلالي :
٢١٣	مفهوم التفريع الدلالي
٢١٤	تقسيم معلقة امرئ القيس تبعاً للتفريع الدلالي
٢٢١	٢- التداعي الدلالي :
٢٢٢	التداعي يكون غالباً بين أشياء واهية العلاقات
٢٢٢	لابد للتداعي الدلالي من سند نحوي
٢٢٢	تقسيم معلقة عمرو بن كلثوم تبعاً للتداعي الدلالي

١٥٩ الفصل الثالث : النص (مفهومه - معايير تقسيمه) :

١٥٩ - مفهوم النص ومعايير النصية :

١٥٩ النص في اللغة والاصطلاح

١٥٩ الخلط بين مصطلحي النص والخطاب

١٦٠ عدم تفرقة علماء النص الغربيين بين النصوص الأدبية وغيرها

١٦٢ أسباب الاضطراب حول تعريف النص

١٦٣ تعريفات النص تبعاً للمعايير المختلفة :

١٦٣ أولاً : اعتبار زاوية تلقي النص

١٦٤ ثانياً : اعتبار السياق الاجتماعي

١٦٧ ثالثاً : اعتبار المعايير اللغوية

١٧٦ رابعاً : اعتبار مجموعة من المعايير المتضافرة

١٧٨ - معايير تقسيم النص :

١٧٨ طريقة كتابة النص الجاهلي تلقي على المفسر عبء تقسيمه

١٨١ تقسيم النص إلى مجموعة من الجمل

١٨١ النص في حقيقته مجموعة من الأجزاء

١٨١ أولاً : المعايير النحوية :

١٨١ ١- التحويلات في أزمنة النص

١٨٢ وسائل الدلالة على الزمن في اللغة

١٨٣ الحوار حول دلالة صيغ الأفعال على الزمن

٢٧٨	٢- ترابط قضايا تنابعات الجمل والأبنية الكبرى :
٢٧٩	دور الوحدات الصرفية والنحو والدلالة
٢٧٩	الترابط بين قضايا تنابعات الجمل
٢٨٢	العلاقات الدلالية الرابطة بين قضايا تنابعات الجمل : (السببية - علاقات منطقية ومفهومية - الازدواج الزمني)
٢٨٤	الترابط بين الأبنية الكبرى (موضوعات النصوص)
٢٨٦	الوظائف الدلالية للأبنية والقواعد الكبرى
٢٨٧	٣- انسجام التأويل :
٢٨٧	المقاطع اللغوية المتجاورة مترابطة
٢٨٨	النص هو ما يعده المتلقي نصا
٢٨٩	علاقات الترابط النصي
٢٩٢	الإحالة عند براون ويول
٢٩٢	الإحالة وسيلة من وسائل الاختصار اللغوي
٢٩٣	ثانيا : إسهامات عربية معاصرة :
٢٩٣	١- التشاكل والتباين وسيلتا الانسجام النصي
٢٩٥	أولا : التشاكل :
٢٩٨	أ- تشاكل التعبير : (التشاكل الصوتي - التشاكل المعجمي - التشاكل التركيبي)
٣٠١	ب- تشاكل المعنى
٣٠١	ثانيا : التباين
٣٠٣	٢- وسائل انسجام النص الشعري :
٣٠٤	المقترحات الغريبة

٢٣١ التماسك النصي بين القدماء والمحدثين :

الفصل الرابع :

مدخل :

إشارات المبدعين إلى التماسك النصي

- صور التماسك النصي عند القدماء :

١- وسائل الترابط عند النحاة القدماء

٢- الفصل والوصل بين الجمل

٣- ترابط أجزاء البيت

٤- التماسك على مستوى الجزء / القطعة

٥- التماسك النصي :

أ- الإرهاصات الأولى

ب- الدراسة المنهجية :

أولا : التماسك على مستوى الجزء

ثانيا : التماسك على مستوى النص (بين الأجزاء)

التماسك النصي عند المحدثين :

أولا : إسهامات علماء النص الغربيين :

١- الاتساق النصي ووسائله :

وسائل الاتساق النصي

أولا : الوسائل النحوية : (الإحالة - الاستبدال - الحذف)

ثانيا : وسائل نحوية معجمية (الوصل)

ثالثا : الربط المعجمي : (التكرار - التضام)

٣٣٦	٤- التوازي التركيبي
٣٣٩	٥- التقابل التركيبي
٣٤٢	٦- أزمنة النص

من وسائل التماسك الدلالي Coherence:

٣٤٤	١- علاقات الترتيب الدلالي
٣٤٧	٢- التوازي الدلالي
٣٤٩	٣- التقابل الدلالي
٣٥٢	٤- الصور المجازية
٣٥٤	المصادر والمراجع
٣٦١	فهرس الموضوعات
٣٧٣	

٣٠٤	المعطيات العربية
٣٠٥	وسائل انسجام النص عند د. محمد خطابي
٣٠٦	ملاحظات على إطار د. محمد خطابي
٣٠٩	٣- السبك والحبك معيارا التماسك النصي :
٣١١	التدرج الهرمي في نحو النص ، ونحو الجملة
٣١١	وسائل السبك : (التكرار - التوازي - الحذف - الروابط - الاستبدال بين الصيغ)
٣١٦	وسائل الحبك : (العلاقات الضمنية بين المفاهيم - التداعي)
٣٢٠	٤- التماسك النحوي الدلالي :
٣٢٠	التماسك النحوي الدلالي على المستوى الأفقي
٣٢١	التماسك النحوي الدلالي على المستوى الرأسي
٣٢٣	وسائل التماسك النحوي الدلالي على المستوى الرأسي : (تجاوب وتدرج وانتقال الدلالات الزمنية - الضمائر - توازي الجمل الفرعية أو تجاورها مع الجملة المحورية - التوازي التركيبي - التكرار - دلالة المفردات - المرتكز الضوئي أو موضوع النص
٣٢٧	الفصل الخامس من وسائل التماسك النصي :
	مدخل

٣٢٧

٣٢٨

٣٢٨

٣٣٠

٣٣١

من وسائل التماسك النحوي Cohesion:

١- الإحالة : (الضمائر - أسماء الإشارة)

٢- أدوات التشبيه

٣- حروف العطف